رواية

هُناكَ ... عِندَ القِمّة

لِسحر خواتمي وَ هبة اعرابي

سلسلة فيء الغمام

عن الرّواية

هذه الرّواية هي جزء من سلسلة فيء الغمام، وهي مجموعة روايات اجتماعيَّة تقدِّم سبع قصص متوازية ومتداخلة فيما بينها، ورغم ذلك فإنّ كلّ رواية قائمة بحدٍّ ذاتها. تتناول الروايات مجموعةً من شباب وشابَّات لِكُلٍّ منهم قِصَّته وأحلامه، ومحاسنه وعيوبه، ونقاط قوته ومواطن ضعفه، ومشكلاته التي سيواجهها وسيسعى لحلِّها. تدور معظم الأحداث في السلسلة فيما أشرنا إليه بـ "الوطن"، وهو إحدى الدول العربية في الشرق الأوسط دون تحديد أو تقييد.

وفيما يخصُّ التصنيف العمريّ، فنحن نرى أنَّ السلسلة مناسبة لمن عمرهم خمسة عشر عاماً أو يزيد، لكن مع هذا فإنَّ الحبكة الدرامية وما بها من تفاصيل وجوانب نفسيَّة واجتماعيَّة تؤهلها لمن هم فوق العشرين عاماً.

الروايات متاحة بشكل مجانيّ، ويمكن تحميلها عبر موقعنا أو صفحاتنا على مواقع التواصل الإجتماعي.

Website : www.faibooks.com

E-mail : info@faibooks.com

Facebook : @faibooks

Instagram : @faibooks7

Twitter/X : @faibooks7

رواية هناك عند القمّة

تأليف: سحر خواتمي وَ هبة اعرابي

رقم الإصدار وتاريخه: الإصدار الثاني – 5 مايو 2025.

التدقيق اللغوي: نورا خدَّام

تصميم الغلاف: هبة اعرابي

الرسوم التصويريَّة: سحر خواتمي

تنويه: جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز دون الحصول على إذن خطي من المؤلفتين استخدام أي مادة من مواد هذا الموقع الشبكي أو استنساخها أو نقلها كليّاً أو جزئيّاً -في أي شكل وبأي وسيلة- سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها.

سحر وَ هبة

إهداء

إلى رفقاء الدّرب الذين لا يعرفون الخذلان

مقدِّمة

مع كلِّ خطوةٍ نخطوها إلى الأمام ترسم الحياة لنا مساراتٍ عديدة، فنختار منها ما نرتئيه الأفضل والأنسب، ورغم إدراكنا بعدم وجود مسار ممهَّد، وأنَّ جميع الطرائق تتناوب بين الصعود والهبوط، إلَّا أنَّ الفضول ينتابنا والشكوك تساورنا مع كلِّ عقبةٍ تواجهنا، فنتساءل: "يا ترى، أكان المسار الآخر هو الأحسن والأصح؟! أنتراجع أم نمضي قدماً؟"

وما بين الحيرة والثبات، والتردُّد والإقدام، نحن هناك نسدِّد ونقارب.

الشخصيَّات الأساسيَّة

جُمان، يونيو 1984

آدم، أبريل 1986

"نحن نبني كثيراً من الأسوار وما لا يكفي من الجسور"

إسحاق نيوتن

الفصل الأوَّل

آدم

يوليو 2003– العطلة الصيفيّة

كان الصخب يملأ المكان؛ أصوات الجماهير مرتفعة، وصوت المعلِّق يصدح بقرب انتهاء الشوط وبدء الوقت بدل الضائع، يعني هذا بضع ثوانٍ في اللعب، لهذا قبضت على ذراع التحكُّم بقوَّةٍ وركَّزت ضغطاتي على الأزرار بإيقاعٍ سريعٍ ومدروسٍ، وبينما كان الحَكَم يستعدُّ لإطلاق صافرة انتهاء الشوط الثاني كان هاتفي يرنُّ مجدَّداً ليشتِّت تركيزي، إنَّه يمان صاحب الإصرار والعزيمة التي لا تلين، كان يكرِّر اتِّصالاته دون جدوى. رفع محمود حاجبيه بدهشةٍ وهو يتمتم:

– غريب أمرك! لِمَ لا ترد عليه وتريحنا من هذا الإزعاج؟

أجبته:

– لا أستطيع الآن، عليَّ أن أتغلَّب عليك أولاً.

ضحك محمود قائلاً:

– أنتَ تحلم، لن أسمح لك بذلك!

وبالفعل، انتهى الشوط الثاني بخسارتي أمام محمود بسبب تلك الاتِّصالات المزعجة. أخذنا استراحةً قصيرةً، فوضعت عصا التحكُّم جانباً، وقلت لمحمود:

- هلَّا أحضرت لنا نفّاضة السجائر.

فأجابني:

- ها هي ذي بجانبك آدم.
- آه شكراً.

أشعلت سيجارتي، وفي تلك الأثناء، عاود يمان محاولة الاتِّصال بي، فنظر إليَّ محمود وهزَّ رأسه مستفسراً عن سبب عدم ردِّي، فقلت له:

- لا بدَّ أنَّه سيؤنِّبني بسبب سيارته.
- هل أخذتها اليوم أيضاً؟
- نعم، فأنا أودُّ الذهاب إلى النادي حالما أفوز عليك.

أجاب:

- كفاك هراءً، ولا تقحم نفسك بتحدِّياتٍ لست أهلاً لها، وإلا ستندم.

ضحكت مستهزئاً بما يقوله، ثمَّ أردف كلامه قائلاً:

- على أي حال كن حذراً، فهناك دورية شرطة جديدة في الشارع المحاذي للنادي، قد يكتشفوا أنَّك لا تحمل رخصة للقيادة بعد.
- سأحاول تجنُّبهم وسيكون كلُّ شيء على ما يرام.

أمسكت هاتفي المحمول، فوجدتها عشر مكالماتٍ فائتة من يمان، قلت في نفسي: أكلُّ هذا من أجل سيارته؟ يا إلهي كم هو مزعج!

أنهيت سيجارتي ورحت أستعدُّ لمباراةٍ جديدةٍ مع محمود، وإذ بهاتفي يرنُّ مجدَّداً، كنت على وشك رميه من النافذة، لكن حين رأيت اسمها، رميت عصا التحكُّم، وانزويت في جانب الغرفة وأجبتها حالاً:

- أهلاً هنائي.

فردَّت بقلقٍ:

- أين أنتَ آدم؟
- في بيت محمود، ما الأمر؟
- لِمَ لا ترد على أخيك؟ يحاول يمان الاتِّصال بك منذ أكثر من نصف ساعة.
- أعلم، لكن لا أريد أن أسمع توبيخه من أجل سيارته.
- لا يا حبيبي، لدينا خبر رائع لك.
- وما هو؟

- ظهرت نتائج قبول الجامعة.

امتلأ قلبي حماسةً، فأردفتْ كلامها وهي تقول لي:

- مباركٌ لك يا بني، حصلت على قبولٍ من كلية الهندسة الطبيَّة، نحن فخورون بك يا حبيبي.

صرخت بأعلى صوتي، وقلت لمحمود:

- تحدَّد مصيري! إنَّها الهندسة الطبية، يا سلام!

وما إن سمع ذلك حتَّى صرخ وصفَّر بصوتٍ عالٍ، أمَّا أنا فأكملت حديثي مع والدتي، التي سألتني:

- متى ستعود؟ نريد أن نحتفل بك.
- حسناً سأعود حالاً.
- أنا بانتظارك، لا تقد السيارة بسرعةٍ، ثمَّ ألا تستطيع أن تصبر، هي بضعة أشهرٍ وستحصل على رخصة القيادة، تجنَّب المشكلات يا ولدي!
- لا تقلقي، دعواتك.
- في أمان الله يا حبيبي.

وأغلقت الهاتف، فأقبل محمود نحوي يبارك لي مجدَّداً، وقال:

- ستكون من اليوم فصاعداً "الباشمهندس آدم" ألف مبارك!

شكرته ومن ثمَّ استأذنت كي أعود إلى المنزل، فهناء تنتظري، ولا يجب أن يؤخِّرني عنها شيءٌ.

جُمان يوليو 2003– العطلة الصيفيّة

لم تكن لدي أي رغبة بشرب الشاي رغم أنَّني لم أنم جيِّداً ليلة الأمس، فذلك القرار يشغلني بشدَّةٍ ويؤرِّقني، لكنِّي عزمت اليوم على مصارحة والدي به. استبدلت ثيابي وصففت شعري بعنايةٍ طبقاً للأصول المتَّبعة في منزلنا، والتي لا تقبل أمي بالخروج عنها مطلقاً مهما كانت الظروف أو المبرِّرات.

نزلت من غرفتي متوجِّهة صوب الحديقة المغلقة، هناك حيث سأجد أبي وأمي كالمعتاد، يجلس كلٌّ منهما على مقعده الذي لم يغيره منذ سنوات، سنشرب الشاي بهدوءٍ بينما ينهي أبي قراءته السريعة للجريدة، ثمَّ سيتوجَّه كلٌّ منهما لعيادته ولن يعودا قبل الساعة التاسعة مساءً.

وصلت وجلست في مكاني أنا أيضاً، أمسكت بفنجان الشاي وجعلت أسترسل في حديثٍ تمهيديٍّ وطويلٍ، وحين شعرت أنَّه أثار ضيق أمي وتململ أبي، وضعت فنجان الشاي على الطاولة وشبكت أصابعي من أسفلها وحسمت أمري قائلةً:

- أبي، أمي، لديّ ما أخبركما به اليوم وسأتحدَّث بوضوحٍ كي لا أطيل عليكما.

أومأت والدتي برأسها بالإيجاب دلالةً على أنَّها تسمعني، بينما رفع والدي نظره نحوي باستغراب منتظراً ما سأقوله.

- تعلمان أنِّي لم أطمح يوماً لدراسة الطب، وأنِّي لم ألتحق بكلية الطبِّ السنة الماضية إلا بعد استسلامي لرغبتكما، وتذكران كم عارضتُ الأمر، ولكنَّكما أصررتما أنِّي سأغيِّر رأيي عاجلاً أم آجلاً، وها قد مضت سنة، سنة كاملة قضيتها وأنا أضغط على نفسي كي أتأقلم مع هذا المجال، أحاول أن أنسى شغفي بالرياضيات والفيزياء! لطالما أبهرتني النظريات والبراهين، والقوانين ودقّتها، وتفرُّعاتها، وحالاتها، لم تكن سنوات المدرسة كافية لإشباعي بتلك المواد، أريد أن أتعمَّق بتلك العلوم أكثر

فأكثر، وأن أفهم فلسفتها. خلاصة الكلام، لقد قرَّرت ترك كلية الطبِّ، والانتقال إلى...

لم أكن قد أنهيت جملتي بعد، حتَّى أبعد والدي كرسيَّه غاضباً ومضى من غير أن يتحدَّث إليّ بكلمةٍ واحدةٍ! نظرت بطرف عيني وأنا ألاحق خطواته، وسألت نفسي: أين سيذهب؟ وماذا سيفعل؟ لماذا يمضي هكذا دون أن يرد؟ وحالما خرج سألتني والدتي بصوتٍ خافتٍ وهي تنظر بتعجُّبٍ واندهاشٍ:

- جُمان، ماذا تقولين؟
- نعم يا أمِّي، أريد أن أغيِّر مجال دراستي، فهذا هو الوقت الأنسب، لا أريد أن أضيع سنة أخرى.
- هل تمازحيننا؟
- لا أمزح، منذ متى وأنا أمزح بالأساس؟
- وما هي الكلية التي تنوين الالتحاق بها؟
- الهندسة الإلكترونية.

لم يعجبها اقتراحي، فتركتني هي أيضاً ومضت.

لا أدري لماذا عليَّ أن أصبح طبيبة مثلهما؟ لقد خاب أملي في موقفهما، لم أكن أتوقَّع أنَّ والديَّ اللذين أعتبرهما من أكثر الآباء انفتاحاً سيتَّخذان

هذا الموقف المستاء جدًّاً، وعلى إثر هذا، امتنع والدي عن الحديث معي، وراحت أمِّي تحذو حذوه، دون أن يفكِّرا على الإطلاق في مشاعري، ولا في الصعوبات التي أعانيها. مضت أيام على هذا النحو المزعج، وفي الليلة التي تسبق موعد ذهابي إلى الكلية لنقل أوراقي، دخل والدي إلى غرفتي وقال بحزمٍ:

- إن كان ولا بد، فاختاري الهندسة الطبيَّة، ولن أقبل النقاش في ذلك.

ومن ثمَّ خرج من الغرفة.

جُمان يوليو 2004– العطلة الصيفيّة

مضت السنة الأولى في كليَّتي الجديدة على أكمل وجه، استطعت إحراز علاماتٍ جيِّدة جدّاً في المواد، وأثبتُّ لوالديّ أنَّ قراري كان صائباً، وأنَّ كلية الهندسة هي الخيار الأفضل لي، ورغم أنِّي سأدرس عدداً من المواد الطبيَّة، إلا أنَّ أغلب المواد تتمحور حول الرياضيات والمجال الهندسي. لم أحزن على ضياع سنتي الدراسية في كلية الطبِّ، إذ منحتني تلك التجربة متعة المقارنة بين الكليتين من ناحية المواد، والطلاب، وأسلوب المحاضرين، وطريقة تعاملهم، فكلُّ شيء مختلف لحدٍّ كبيرٍ، ولعلَّ الاختلاف الأكثر وضوحاً هو أنَّ عدد الفتيات في كلية الهندسة قليلٌ نسبةً لعدد الشبَّان لدرجة أنَّني وفي بادئ الأمر اعتقدت أنِّي لن أحظى بصديقةٍ خلال سنواتي الدراسيَّة، لكن لحسن الحظِّ خاب توقُّعي.

كنت أجلس في غرفتي حين اتَّصلت بي جود، فقالت لي وهي في قمَّة حماستها:

- جُمان، أنا في الكلية، وصدرت علامة المادة الأخيرة للتوِّ، لقد نجحنا في مادة الاحتمالات! حصلتِ على خمس وثمانين بالمئة.

- حمداً لله، شكراً لكِ جود، وماذا عنكِ؟
- واحد وستُّون، أنا سعيدةٌ للغاية.
- مباركٌ لك يا عزيزتي، وما علامة يزن؟
- تسعون!
- توقَّعت ذلك، هو بارع في كلِّ المواد.
- ما شاء الله، وهو الأوَّل لهذه السنة، وأنتِ الثانية على الدفعة يا عزيزتي، دعينا نحتفل بمناسبة خلاصنا من المواد جميعها، وحصولك على المركز الثاني بجدارةٍ.
- حسناً سأجهِّز نفسي وآتي إلى الكلية حالاً.
- وسأكون بانتظارك جُمان.

أغلقت الهاتف وانطلقت إلى غرفة الجلوس هناك حيث كانت والدتي، فأخبرتها بما استجدَّ معي، وحين علمت أنِّي الثانية على الدفعة، قالت لي بامتعاضٍ متصنَّعٍ:

- مباركٌ لكِ يا ابنتي.

وددت لو أشعر بفرحتها، لكنَّها تعمَّدت ألا تُظهرها. استأذنتُ منها وأخبرتها أنِّي سأخرج لمقابلة جود، فأومأت برأسها ولم تعلِّق بشيء، وانطلقت مسرعةً لأحتفل مع جود.

آدم

يوليو 2004 – العطلة الصيفيّة

وصلت إلى المنزل وأنا أشعر بالحرِّ الشديد، لكنَّها استلمتني مباشرةً، وبدأت بسلسلة الأسئلة:

- ويحك! لِمَ تفوح منك رائحة السجائر؟
- هذا عطري الجديد.
- لا تجبني بهذه الطريقة، أنا والدتك ولست صديقك. أخبرني: هل ذهبت إلى الكلية لترى إن استجدَّ أمرٌ ما؟
- لا لم أذهب، سيتَّصل بي عمر إن صدرت أي علامات.
- هل صلَّيت الظهر؟
- لا، نسيت.
- هل صليت العصر؟
- لا!

لم تتوقَّف أمِّي عن أسئلتها، فرحت أكمل الإجابات وأنا أتحرَّك في المنزل وألتقط أغراضي المبعثرة، وأبحث عن جهاز التحكُّم لأشغِّل مكيِّف الهواء، أكملت كلامها وهي مستاءة منِّي:

- لا حول ولا قوَّة إلا بالله، هداك الله يا بني، حتَّى الصلاة لم تعد تؤدِّيها كما يجب، على الأقل لا تقطع حبلك مع الله.
- ادعي لي يا أمي، ادعي لي.
- ليتك تقتدي بأخيك يا آدم.
- أمِّي، لم أعد أطيق سماع هذه النصيحة، أنا لستُ يمان!

ورفعت صوتي مُرغماً، لقد حاولت ألا أغضب إلا أنَّني فشلت، فقد ضقت ذرعاً بمقارنتها لي مع أخي الأكبر، وعن مدى التزامه، ألا تستطيع تقبُّلي كما أنا الآن؟ هل يجب عليَّ أن أتطبَّع بقالب أخي أو أي إنسانٍ آخر يعجبها حتَّى تستطيع تقبُّلي؟!

تركت ما بيدي ودخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب، لم أكن أرغب بسماع المزيد، فلست بمزاجٍ جيِّدٍ أساساً. أعلم أنَّني لا أتَّبع القواعد التي ربَّاني عليها والداي، وأعلم أنِّي أخالفهما في كثيرٍ من الأمور، وأعلم أنَّ بيئتي ليست على هذه الدرجة من الانفتاح، لكنِّي أشعر أنَّ الأزمنة التي نعيشها أنا ووالداي مختلفة تماماً، فلا أنا بقادرٍ على الرجوع إلى زمانهما، ولا هما قادران على احتوائي وفهمي، ولم نعد نستطيع الالتقاء في نقطةٍ واحدةٍ على الرغم من امتناني لهما ولما قدَّماه لي، وكذلك لا أنكر فضلهما علي، ولكنِّي ضقت ذرعاً من العظات اليوميَّة، وسئمتُ سماعها.

أذكر حين حصلت على قبولي الجامعيِّ في قسم الهندسة الطبيَّة كم كانت فرحتي كبيرةً، قلت في نفسي: جاء الفرج، أخيراً سترضى عنِّي والدتي وترى أنِّي قمت بإنجازٍ مهمٍّ، كنت أظنُّ أنَّ التحاقي بكلية الهندسة سيخفِّف عنِّي الضغوطات التي أعانيها، لكن لم يتغيَّر أي شيء، بل على العكس، اجتمعت عليَّ محاضراتها اليومية عن الأخلاق والالتزام، مع المواد المعقَّدة والمستعصية، وخرجت أنا بخفَّي حنين وجنيت على نفسي.

رياضيات، رياضيات، رياضيات، لِمَ كلُّ هذه المواد؟

ما دخلي أنا بكثيرات الحدود وقليلها؟ ولِمَ عليَّ البحث عن القيم العليا والدنيا لكلِّ المنحنيات؟ وماذا عن الأعداد العقدية؟ ألم تفِ كلّ تلك الأعداد حولنا بالغرض كي نستعين بعددٍ تخيليٍّ؟! ثمَّ لِمَ عليَّ أن أقلق حيال كلّ الاحتمالات؟ ومن هو هذا الشخص المتفرِّغ والذي يعشق سحب الكرات من ذاك الصندوق اللعين؟ ولِمَ عليَّ أن أتنبأ أيّ كرة سيسحبها، فليحسب ما يشاء، زرقاء أو حمراء أو صفراء، وليدعني وشأني. ثمَّ لِمَ لا يسحب ملاعق أو أقلام أو مسامير؟ لماذا يصرُّ على أن يذكرني بها؟ ألا يوجد سوى الكرات ليسحبها، تبّاً له ولصندوقه.

في تلك الأثناء وصلتني رسالة قصيرة من عمر، كتب فيها:

"مرحباً آدم، يؤسفني إعلامك بأنَّك لم تنجح في مادة الاحتمالات، حظّاً أوفر في الفصل المقبل يا صديقي".

قرأتها ومن ثمَّ رميت هاتفي جانباً ورحت أتأمَّل سقف الغرفة وأنا أردِّد: إذن سأبقى عالقاً في دوامة الاحتمالات إلى أجلٍ غير مسمَّى.

جُمان مارس 2005– السنة الثانية

كنت أجلس إلى جانب جود في القاعة، شعرت بأن رأسي يكاد أن ينفجر، إنّها المحاضرة السادسة لهذا اليوم، سألت نفسي: لِمَ لا تُوزَّع المحاضرات بشكلٍ مدروسٍ؟! فبعض الأيام تكون الدروس والمحاضرات فيها خفيفة وسهلة، بينما تتكدَّس المواد الدسمة في يومٍ واحدٍ. بينما كنت أجاهد نفسي للصمود، اقتربتْ منِّي جود وهمست:

– هل تفهمين شيئاً؟

أجبتها:

– أحاول عبثاً، لقد تعبت حقَّاً، ولم يعد بإمكاني التركيز أكثر من ذلك.

– أنا أشعر بمللٍ شديدٍ، كم تبقَّى من الوقت؟

– نصف ساعة.

– لم أعد أستطيع جُمان، أريد أن...

لم تنهِ جود كلامها حتَّى تنبَّه المحاضر إلى أنَّ أحد الطلاب يأكل شيئاً ما، فقال له بغضبٍ:

- أنتَ! ألا تستحي من نفسك؟

أجابه الطالب وهو يقف:

- أنا؟
- نعم، أنت.
- عفواً! لم أقصد إزعاجك.
- أزعجتني وانتهى الأمر، أكمِل طعامك خارج القاعة هيًّا.

أخذ ذلك الطالب أغراضه ومضى، وحين خرج لم يغلق الباب بشكلٍ كاملٍ، ووقف أمام باب القاعة وبقي منتظراً خروجنا من المحاضرة، أمَّا جود فتوقَّفت عن الحديث خشية أن تنال عقاباً مشابهاً إن رآها المحاضر وهي تثرثر.

حاولت مجدَّداً أن أركِّز، لكن لم تعد لدي أي طاقة لفهم ما يكتبه المحاضر على السبورة، فرحت أراقب ذلك الطالب الذي طُرد خارج القاعة، فهو كثير الحركة، أخرج من جيبه علبة سجائر وبدأ ينفث الدخان، ثمَّ راح يحرِّك ساقه إلى الأمام والخلف، وهو يمسك بهاتفه الخليوي، وبينما أنا سارحةٌ سألتني جود:

- هل أنهيتِ التمرين؟
- أيُّ تمرين؟

- أرجوك أنقذي الموقف وحاولي حلّه، كي ننتهي من هذه المحاضرة.
- عفواً، لقد كنت في حالة شرود، ما هو التمرين؟

كانت جود تعطيني معطيات المسألة في الوقت الذي انتهى فيه يزن من حلِّها، فشرح المحاضر طريقة الحلِّ، وأُخلي سبيلنا.

جُمان يوليو 2005– العطلة الصيفيّة

- أهلاً بكِ جُمان، أنرتِ.
- شكراً لكِ عزيزتي.

خلعتُ حذائي ودخلت ومن ثمَّ ناولتها علبة الشوكولا، فقالت لي:

- أرجوكَ لا تجعلي الأمور رسميَّةً بيننا، لا داعيَ لإحضار أي شيء.
- هذه زيارتي الأولى لبيتك، ثمَّ إنَّها شيءٌ بسيط جدَّاً، ولا يُذكَر.

تبسَّمت وقالت:

- شكراً لك جُمان! تفضَّلي، من هنا غرفتي.

وما إن دخلنا إلى غرفتها، حتَّى بدأنا بسلسلة أحاديثنا التي لا تنتهي، فمنذ أن بدأت العطلة الصيفية ونحن لم نلتقِ معاً، فأنا سافرت مع والديّ، وجود مشغولة مع أهلها وأقاربها وحفلات العائلة، واستقبال الخاطبات. سألتها وهي تحكي لي عن أخبارها:

- يا إلهي كيف تتحمَّلين هذا الكم الهائل من زيارات الخاطبات؟ يبدو الأمر مرهقاً للغاية!

- نعم هو كذلك بالفعل، لكن لنقل إنِّي اعتدت الأمر، ماذا عنكِ؟
- كما أخبرتك سابقاً، لا أستقبل أي خاطبات، فبالنسبة لوالدي عليَّ التركيز على الدراسة فقط لا غير، وأنا أوافقهما الرأي ولا أنوي الارتباط حالياً.
- وأنا مثلك، لكن ماذا أفعل؟! هكذا هو مجتمعنا.

ابتسمتُ وسألتها:

- وكيف حال أُسَيد؟ هل من جديدٍ على الموقع الإلكتروني للكلية؟

وما إن سمعت جود باسمه حتَّى توردَّت وجنتيها، أجابتني:

- أتقصدين المنتدى؟
- طبعاً، وهل يوجد غيره؟

ضحكتْ ومن ثمَّ فتحت جهاز الحاسب، وهي تقول:

- ويح قلبي، دعيني أطلعك على مواضيعه الجديدة، يا إلهي كم هو رائع!
- جود! أراكِ تبالغين في إعجابك به، احذري من الانجراف، ستورطين نفسك!

نظرت إليَّ وهي تتنهَّد، وقالت:

- أشعر أنِّي قد تورطت وانتهى الأمر.
- ويحك! أنتِ لا تعرفينه بعد؟
- بل أعرفه جيداً، أقرأ ما يكتب، وأسمع ما يقول...

قاطعتها مباشرةً، وقلت لها بحزمٍ:

- لا تعتمدي على كتاباته لتحكمي على شخصيَّته، لا شيء أسهل من الكلام!

أجابتني محاولةً استدراك كلامها:

- وأرى تصرُّفاته وأخلاقه وتعامله في الكلية.. جُمان، إنَّه شابٌّ كامل الأوصاف، لم أرَ لالتزامه، ودينه، وعلمه، وسعة أفقه مثيلاً في حياتي، ما الضير في أن أميل إليه؟
- أخشى عليكِ من كسرة القلب، هذا كلّ ما في الأمر.
- لا تقلقي سيكون كلُّ شيء على ما يرام، سأحافظ على مسافة أمان ولن أتعلَّق به، أعدك بذلك.

لم أعاندها، فأنا أتفهَّمها، جود فتاة فريدة، تتطلَّع إلى أحلامٍ كبيرةٍ، وترغب في أن تعيش تجارب غنيَّة وزاخرة، وتحبُّ التميُّز والمتميزين، وأُسَيد يملك بالفعل كاريزما خاصَّة جدَّاً، وهو مختلف عن الآخرين

على الصُّعُد كافَّة، ولا عجب أن يلفت انتباهها وتميل إليه، فهي انتقائية، وحتَّى عندما تختار صديقاتها، فهي حذرة للغاية، رغم أنَّها اجتماعيَّة ويشعر المرء كما لو أنَّها صديقة الجميع، إلا أنَّها ليست كذلك، فأنا أعلم أنَّني مررت باختباراتٍ كثيرةٍ حتَّى وقع الاختيار عليَّ بأن أكون صديقتها المقرَّبة، لم يكن من الصعب اكتشاف ذلك خلال السنة الماضية، وعليَّ أن أكون صريحة، فقد أخضعتها هي الأخرى لاختباراتي الخاصَّة ولو لم تجتزها بنجاحٍ لما توطَّدت علاقتنا إلى هذا الحدّ، فأنا لم أعتد مرافقة فتاةٍ محجَّبةٍ وملتزمةٍ دينياً، لا أذكر أنَّ أحداً من دائرة معارفي كان يقطع حديثنا أو دراستنا كي يستأذن ويقيم الصلاة.

تفتخر جود بالتزامها، وطريقة حياتها، وفهمها للدين، فهي تتعامل مع الدين على أنَّه منهج حياة، وتؤمن بأن كلَّ ما تفعله يندرج تحت مسمَّى العبادة إن هي وضعت نية الفائدة والخير لها ولغيرها، فمجيئها إلى الكلية عبادة، ودراستها، واهتمامها بمظهرها، وسلامها، وكلامها، وحتَّى كتاباتها وخواطرها. تربط كلَّ ذلك دوماً بالعمل الصالح والثواب، لكنَّها لا تزجّني في هذا السياق إطلاقاً، فلا تحرجني ولا تتدخَّل بشؤوني ولا تسألني ولا تحقِّق معي، تحترم جود خصوصيتي، فهي ذكية وتعلم أنَّ هذه الأمور حسَّاسة بالنسبة لي ولا أحبُّ الحديث عنها، إلا أنَّني أستمتع بالتعرُّف إلى أفكارها، ودوافعها، فهي تجيد

التعبير عن نفسها بشكلٍ واضحٍ وصادقٍ، وهذه الخصلة لا تقدَّر بثمن، أمَّا أنا فعلى عكسها، وأعلم أنِّي متحفِّظة وحذرة في كلامي، فأظهر الحدَّ الأدنى من انفعالاتي ومشاعري وأفكاري أمام الناس، لكن مع هذا وذاك، فإنَّ جود تفهمني بدقَّةٍ، بالفعل هي ذكيَّة جدَّاً، لدرجةٍ مبهرةٍ.

جُمان أكتوبر 2005– السنة الثالثة

في السنة الثالثة تصبح الكلية مكاناً مألوفاً للغاية، ويغدو الذهاب إليها أمراً محبَّباً وقريباً إلى القلب، فيكثر الأصدقاء والزملاء، وتصبح المواد أكثر اختصاصيَّة، إذ تكون أغلبها متعلِّقة بعلوم الحاسب الآلي والبرمجة والإلكترونيات. إحدى تلك المواد، هي مادة "معالجة الإشارة"، والتي نتعلَّم في قسمها العملي المبادئ الأساسية لعمل بعض الأجهزة الطبيَّة، فندرس الإشارات المختلفة التي يمكن جمعها من الجسم الحيوي، ونتعلَّم دلالاتها، وطرائق تحليلها ونستخرج النتائج والمعلومات المفيدة منها.

وفي الجلسة الأولى لتلك المادة، وصلت إلى الكلية متأخِّرة بسبب زحمة الطرقات، وكي يزداد الأمر سوءاً أضعت الجدول، ولم أعد أذكر أين يقع المخبر الذي عليَّ التوجُّه إليه. اتَّصلت بجود، لكنَّ هاتفها كان خارج التغطية، فرحت أهرول في ممرَّات الكليَّة لعلِّي أجد المكان الصحيح، وبينما كنت مرتبكةً وجدت طالباً من دفعتنا ينتظر أمام باب أحد المخابر، فسألته:

– عفواً أين يقع مخبر مادة معالجة الإشارة؟

أشار إلى الباب الذي خلفه وهو ينفث الدخان، فقلت له:

- وهل بدأت الجلسة؟

فأجابني:

- ربَّما.

أسرعت ودخلت إلى المخبر، فسألني المهندس المشرف:

- ما سبب تأخُّرك يا آنسة؟
- اعذرني لقد كانت الطرقات مزدحمةً للغاية.
- ما اسمك؟
- جُمان.

دوَّن المهندس اسمي مع الحاضرين، ثمَّ قال:

- حسناً لا بأس تفضَّلي، أرجو ألا يتكرَّر الأمر.

أومأت له بالإيجاب، وهممت بالجلوس بالقرب من جود، لكنَّ المهندس قال:

- لقد وزَّعنا المجموعات الثنائية، كما ترين تحتوي الفئة على عشرين طالباً، لذا سيعمل كلُّ طالبين معاً على تجربةٍ ما.

ثمَّ نظر حوله فأشار إلى طاولةٍ فارغةٍ في المخبر، وقال:

- للأسف ستعملين وحدك اليوم يا آنسة.
- لا بأس.

جلست وبدأت بالتعرُّف إلى التجهيزات التي على الطاولة وأتَّبع الخطوات اللازمة، وبينما كنت أعمل جاهدةً، طُرق الباب، وإذا به الطالب ذاته الذي تحدَّثت معه قبل قليل، دخل وسأل المهندس:

- هل تسمح لي بالدخول؟

أجابه المهندس:

- وما الذي أخَّرك إلى هذا الوقت؟ لقد مضت نصف ساعة من الجلسة!

تمتم قليلاً ثمَّ قال:

- لم أكن بحالٍ جيدةٍ.

فاجأني جوابه، اعتقدت بأنَّه سيتذرَّع بظرفٍ ما، لكنَّه كان صادقاً، ومن حسن الحظِّ كان المهندس المسؤول عن المخبر متفهِّماً ولطيفاً، إذ نظر إليه قليلاً ثمَّ قال له بحزمٍ:

- تفضَّل، وأرجو ألا تكرِّر هذا الموقف، ستعمل مع زميلتك التي تجلس على تلك الطاولة.

وأشار نحوي، اضطَّربت وقلت في نفسي: هل سأعمل مع هذا الطالب المُهمل؟! يا للبؤس! هذا كله جراء تأُخّري.

وقبل أن يجلس ذلك الطالب، سأله المهندس:

- ما اسمك؟

فأجابه بتراخٍ شديد:

- آدم.

آدم　　أكتوبر 2005– السنة الثالثة

سحبت كرسيَّاً وجلست، ورحت أتأمَّل التجهيزات التي على الطاولة، فسألت زميلتي في التجربة:

– ما اسم المادة؟

فأجابتني باستغرابٍ:

– إنَّها مادة معالجة الإشارة!

– آه صحيح، وما هذا الذي بحوزتك؟ أهو جهازٌ لكشف الكذب؟

– موضوع جلسة اليوم هو: قياس إشارات الدماغ.

– وماذا علينا أن نفعل؟

– يجب أن نتعرَّف إلى طريقة استخدام هذه الحسَّاسات، وبعدها سيتطوَّع أحدنا لجمع بياناته، ومن ثمَّ ندرس الإشارات التي جمعناها، ونبحث عن الإشارة التي نودُّ معالجتها وتحليلها واستخراج المعلومات منها.

قطبتُ حاجبي وأجبتها:

- تبدو هذه التجربة مريبةً للغاية، دعينا نبدأ إذن.

وبينما كنَّا نعمل، حاولت أن أتذكَّر ما اسمها لكنِّي لم أفلح. اختلست النظر إلى دفترها وقرأته بصعوبةٍ، لعلَّه "جُمانا"، لكنِّي لم أكن متأكِّداً، إذ كانت تضع فوق الدفتر أقلاماً كثيرةً.

ويلاه كم تحبُّ الفتيات الأقلام الملونة!

أنهينا الخطوة الأولى، وحين وصلنا إلى مرحلة جمع البيانات، تطوَّعتُ بأن تُجمع بياناتي، وضعتُ الحسَّاسات على رأسي بمساعدة المهندس المشرف، ومن ثمَّ بدأنا. طلب المهندس منِّي أن أجلس بهدوء، لكنِّي لم أستطع، فقد كان الأمر مضحكاً للغاية، سألته وهو يُفَعِّل الحساسات:

- يا سلام، هل ستنومني مغناطيسياً؟

أجاب المهندس:

- ليتني أستطيع، لتتوقَّف عن الكلام قليلاً. حاوِل أن تهدأ، لا تتحرَّك!
- أرجوك يا أستاذ هلَّا التقطت لي صورةً.

نظر إليَّ المهندس باستنكارٍ وقال:

- بالطبع لا! اجلس بهدوء الآن، وسآتي حالما تنتهيا من جمع البيانات.
- حسناً.

استأتُ من عدم استجابته لي، فهذا المنظر المريب لا يتكرَّر، مرَّت بعدها دقائق عديدة، وقبل أن أفصل الحساسات، نظرتُ إلى الفتاة نظرةً ذات مغزى أحاول استدرار عطفها لتحقِّق لي طلبي الذي رفضه المهندس ويبدو أنِّي نجحت، فقد سألتني:

- أتُهمّك الصورة لهذا الحدّ؟

أجبتها بانفعالٍ:

- نعم كثيراً، هلَّا التقطتِها لي؟ سأكون ممتناً للغاية، وسأعمل بجدٍّ حتَّى نهاية التجربة، أعدك بذلك.

أعطيتها هاتفي فالتقطت لي صورةً، ومن ثمَّ قالت:

- والآن دعنا نكمل العمل.

وما إن اطلعنا على البيانات عبر الحاسب حتَّى انفجرتُ من الضحك، فقد كان نمط البيانات غريباً، وغير متكرِّرٍ، فقلت لها:

- ما هذا النشاط الغريب لخلايا دماغي؟ أخشى إن رآها أحد أن يتَّصل بالإسعاف لنقلي إلى أقرب مستشفى، كيف سنحلِّل هذه البيانات المخيفة؟
- دعنا نطبِّق بعض المرشحات، لنعثر على الإشارة المطلوبة، هناك ضجيج في البيانات.

ضحكت، ثمَّ قلت لها:

- ضجيج؟ وما سببه؟ لعلَّه السهر وقلَّة النوم؟!
- عفواً اعذرني على سوء الفهم، كنت أقصد أنَّ الضجيج في الإشارة التي جمعناها، وليس في رأسك؟ هل تفهمني؟

أومأت لها بالإيجاب، وتوقَّفت عند هذا الحد، إذ يبدو أنَّها لا تفرِّق بين المزاح والجدِّ، حاولت بعدها التزام الهدوء، وبالفعل راحت الفتاة تطبِّق الخطوات اللازمة بدقَّةٍ وإتقانٍ، فتركت لها الأمر دون أن أتدخَّل، فهي على ما أظنُّ من الفتيات المجتهدات في الدفعة، ولا أعتقد بأنَّها تحتاج إلى مساعدتي.

أكملنا الجلسة على هذا النحو، هي تبحث وتحسب وتحلِّل وتدوِّن النتائج، وأنا أحاول جمع بياناتٍ مختلفة عن طريق تلك الحساسات،

فتارةً أضعها على يدي، وتارةً على هاتفي، وتارةً على الطاولة، هكذا إلى انتهت الجلسة، فنظرت إليَّ وسألتني:

- ألن تدوِّن النتائج في دفترك؟ سيراها المهندس بعد قليل.
- آه صحيح.

أمسكت دفتري ورحت أكتب أرقاماً من مخيِّلتي، فسألتني:

- لماذا لا تكتب النتائج الحقيقية؟

أجبتها:

- ومن سيدقِّق بها؟ لن يلاحظ الأمر.

بدا عليها الامتعاض لكنَّها لم تعلِّق. شكرتها مجدَّداً على عملها ومثابرتها، وعلى التقاطها للصورة، وتوجَّهت نحو المهندس المشرف، أعطيته دفتري، فوضع توقيعه وأعاد الدفتر وهو يقول لي:

- لا يمكن أن تكون هذه النتائج لدماغٍ بشريٍّ، في المرَّة القادمة لا تخترع!

ضحكت وأومأت إليه بالإيجاب، ومن ثمَّ ألقيت السلام ومضيت.

جُمان مارس 2006– السنة الثالثة

كنَّا في القاعة نتحادث قبل بدء المحاضرة ضمن مجموعةٍ كبيرةٍ من الفتيات، حين استدارت إحداهنَّ نحوي وقالت:

– يبدو أنَّ منافسك مشغولٌ هذه الأيام بمغامراته العاطفيَّة.

صمتُّ ولم يعجبني كلامها، فأيْ نعم لاحظنا جميعاً بأنَّ ثمَّة علاقة عاطفيَّة تربط يزن وليلى، لكن هذا لا يعني أن نملك الحقَّ بالحديث عنهما بهذه الطريقة! لست ملاكاً، ولا أدَّعي أنِّي لم أحادث جود حول علاقة يزن وليلى بالفعل، لكن لم نكن نتحدَّث بداعي السخرية أو الاستهزاء، كنَّا نناقش اختلافهما الشديد، وكيف أنَّ الحبَّ قد يجمع التناقضات. عندما رأتني جود عاجزةً عن الردِّ، أجابت نيابةً عنِّي:

– نتمنَّى لزميلنا يزن التوفيق في كلِّ مجالات حياته

ثمَّ نظرت نحوي وقالت:

– والآن دعينا نجلس يا جُمان.

أمسكت يدي وجلسنا على أحد المقاعد، وبعد دقائق امتلأت القاعة بالطلاب، ودخل الدكتور وبدأت المحاضرة.

شتَّت كلام تلك الفتاة انتباهي، فبحثت عن ليلى في القاعة لأجدها تجلس بجوار يزن بالفعل، فكَّرت مجدَّداً بطبيعة علاقتهما غير المفهومة، هو من أذكى شباب الدفعة، يصبُّ جلَّ تركيزه بالدراسة والاجتهاد، أمَّا ليلى فهي أيقونة الموضة في كليتنا، إن لم يكن في الجامعة كلّها، صرّحت لأكثر من مرَّة أنَّ الدراسة آخر اهتماماتها. على أي حال، ما عليَّ أن أركِّز به هو أنَّ يزن خصمٌ صعبٌ وليس بالهيِّن، ورغم كلِّ الجهد الذي أبذله إلا أنَّه يتفوَّق عليَّ دائماً، فيحتلُّ المرتبة الأولى وأتبعه أنا في المرتبة الثانية.

وبينما كنت أفكِّر، وصلتني ورقة تسجيل أسماء الحضور في القاعة، فوضعت اسمي ومرَّرتها لجود، التي أمسكتها بدورها وهمست قائلةً:

- انظري إلى خطّه كم هو جميل!

وأشارت إلى اسم أُسَيد، فأجبتها:

- إنَّ خطَّه سيِّئٌ على فكرة!

ما تزال جود عالقة بأحلامها بلا جدوى، فأنا أكاد أجزم بأنَّ أُسَيد يدرك مدى إعجابها به، يبدو بأنَّه لا يرغب بالارتباط في الوقت الراهن أو لعلَّه مرتبطٌ بالأساس، فجود من أجمل وألطف بنات الدفعة، ومع ذلك فهو يتجاهلها، غريبٌ أمره بالفعل! لقد اعترف لها ثلاثة شبَّان خلال الأشهر الماضية.

أتساءل ما سرُّ السنة الثالثة؟ لماذا تتأجَّج المشاعر والعواطف، وتنتشر عدوى الحب بين الطلاب والطالبات؟!

نظرت إلى جود التي كانت تتأمَّل ورقة الحضور وقلت لها:

- هل تودِّين الاحتفاظ بالورقة؟ هيَّا مرِّريها إلى التالي.
- اصبري قليلاً، فأنا أبحث لكِ عن عريس من الدفعة.

همستُ بانفعالٍ:

- عريس!
- نعم، يجب أن أجد نصفك الثاني، اختاري أو سأختار لكِ.
- لن أختار أحداً!
- إذن اختاري رقماً عشوائياً أرجوك.
- وماذا ستفعلين بالرقم؟
- صاحب الرقم المتسلسل في ورقة الحضور، سيكون نصفك الثاني، هيَّا!
- مليون.
- لا جُمان، اختاري رقماً معقولاً.

تظاهرت بعدم اهتمامي بالأمر، ونظرت مجدَّداً إلى المدرجات، فوجدته يجلس بجانب ليلى ويزن في المقعد الأوَّل، عدت إلى دفتري أحاول تدوين ما يشرحه الدكتور، لكنَّ أصرَّت جود على لعبتها، وعادت تلحُّ:

- جُمان دعينا نتسلَّى قليلاً، أعطني رقماً أرجوك.

تصنَّعتُ ملامح الانزعاج، وقلت لها:

- ثلاثة! والآن هلَّا عدنا إلى المحاضرة؟!

استدرت وبقيت أنظر إليها بطرف عيني وهي تحاول أن تجد صاحب الرقم ثلاثة، وكما توقَّعت، ما إن قرأتْ اسمه حتَّى وضعتْ يدها على فمها وهي تضحك بصوتٍ منخفضٍ وقالت لي:

- ويحي! جُمان! لن تصدقي من هو صاحب الرقم ثلاثة!

قلت لها:

- كما لو أنِّي أهتم، لا أريد أن أعلم بالأساس.
- آدم، إنَّه آدم.
- ومن هو آدم؟
- الشابُّ الطويل الأسمر الذي يجلس بجوار يزن، ألا تذكرينه؟ عملتما معاً في تجربةٍ الفصل الماضي.

- آه ربَّما عرفته، والآن كما وعدتني، فلنركِّز على المحاضرة.
- حسناً، وسنناقش الأمر عندما نخرج.

كانت جود في قمَّة حماستها وسعادتها، لا أعلم ما الذي جعلها تبتكر تلك اللعبة! إلا أنَّها أتت في وقتها.

آدم

مايو 2006– السنة الثالثة

كنت أجلس في مقصف الكلية أنتظر يزن كي يشرح لي إحدى المحاضرات المستعصية، فالامتحانات على الأبواب، وقد تطوَّع أن يساعدني، فهو في كلِّ الأحوال سيشرح الدروس لليلى، فعرض عليَّ أن أنضمَّ إليهما في الدروس التي أحتاج إليها.

– ما بك؟ تبدو شاحباً للغاية.

سألتني ليلى وهي تجلس، فأجبتها:

– أشعر بمللٍ شديدٍ من كلِّ شيءٍ، نفس الدوامة أدور بها في كلِّ مرَّةٍ تقترب فيها الامتحانات، لكن هذه المرَّة هي الأسوأ مع هذا العدد الهائل من المواد.

فأجابني يزن:

– لا داعي للقلق، حاول أن تضع جهدك وتكرِّس وقتك كله للدراسة.

ضحكت، وقلت له:

- حين أفتح كتابي أفكِّر بكلِّ شيءٍ عدا المحاضرة التي أمامي، وفي أحسن الأحوال يصيبني شغفٌ مفاجئٌ بالثقافة العامَّة. البارحة على سبيل المثال، رحت أبحث عن ماذا كان يأكل ملك الصين الحادي عشر -هذا إن كان له أي وجود- بعد وجبة غدائه!

ضحكت ليلى بصوتٍ مرتفعٍ، فنظر إليها يزن نظرة فحواها أن تتحفَّظ بعض الشيء، لكنَّه لم يعقِّب بشيء، ثمَّ قال:

- هل أبدأ الشرح؟ أم تحتاجان إلى بعض الوقت؟

عدَّلنا من جلستنا وأجبناه:

- نحن جاهزان يا أستاذ، تستطيع أن تبدأ.

وبدأ يزن يشرح لنا بسلاسةٍ فائقةٍ، لدى يزن قدرة سحرية على جعل المنهاج يسيراً وواضحاً، هو يفهمه لدرجة تشعرني بأنَّه هو من ألَّفه، حين انتهى من الشرح، سألنا:

- هل فهمتما المحاضرة؟

أجبته:

- نعم، أشكرك جزيل الشكر.

جلست معهما بضع دقائق بعد انتهاء الدرس، ومن ثمَّ جمعت أغراضي وودعتهما، وضعت السَّماعات على أذني ومضيت إلى المنزل، فلا مكان لي بينهما بعد انتهاء الدرس.

مشيت وأنا أفكِّر بهما، لا أعلم كيف يتوفَّقان معاً، فرغم اتِّساع الهوة بين جدِّيته وهزلها، واجتهاده وتكاسلها، والتزامه وتراخيها، إلا أنِّي أراهما ثنائيَّاً مذهلاً، يكمِّلان بعضهما البعض، فليلى طيبة القلب، ذات روحٍ مرحة، والتعامل معها هيِّنٌ ليِّن، من الجميل أنَّ كلاً منهما وجد نصفه الثاني. سألت نفسي وأنا أبتسم: ماذا عنك يا آدم؟ أين هي فتاتك الآن؟ ماذا تفعل في هذه اللحظة؟ وفي أي أرضٍ هي؟ كيف شكلها؟ وما اسمها؟ تُرى كيف يلتقي الشخص بنصفه الثاني؟ ماذا يشعر؟ وكيف يكتشف الأمر؟!

آدم يونيو 2006– السنة الثالثة

- آدم، هيَّا تعال، لقد حضَّرت لكَ بعض الطعام، لا تذهب دون أن تأكل شيئاً يا بني.

نادتني والدتي وأنا في قمَّة الاستعجال بعد أن أنهيت صلاة الظهر بسرعةٍ، فلم يبقَ لبداية الامتحان إلا عشر دقائق.

- لم يعد هنالك وقت، أين مفاتيح سيارة يمان؟
- كالعادة، تتعذَّر بالامتحان وضيق الوقت كي تأخذ السيارة، ستجد المفاتيح مكانها، كن حذراً أرجوك!
- ادعي لي فوضعي حرج.
- ليتني أعلم متى لم يكن وضعك حرجاً، وفقك الله يا آدم يا حبيبي.. يصلِّي فقط في أيام الامتحان! هداك الله يا ولدي.

وجريت مسرعاً، أدرت الأغاني على أعلى مستوى أثناء طريقي إلى الكلية، تساعدني هذه الأجواء على رفع حالتي المعنوية. وصلت إلى الكلية وركنت السيارة في مرآب الأساتذة والموظفين رغم أنِّي لست منهم بالطبع، إلا أنَّ الوقت أضيق من تلك القوانين السخيفة، وبينما كنت على وشك النزول من السيارة، تفاجأت بليلى تركن سيارتها

بالقرب منِّي بكلِّ ثقةٍ، إلا أنَّ حال ليلى لا يشبه حالي، فلديها ما يمكِّنها من ركن سيارتها حيثما تشاء، تركن سيارتها في بعض الأحيان مكان سيارة العميد ولا تهتم!

- هلا وغلا!

ألقيت السلام عليها وأنا أبحث بين الأوراق التي في جيبي عن بطاقتي الشخصيَّة من أجل الامتحان.

- أهلاً آدم، هيَّا نسرع، ترى هل نصل في الوقت المحدَّد؟
- لا أعلم، علينا أن نجري.
- كيف سأركض بهذا الكعب؟!
- اخلعيه وأسرعي.
- هل تمزح؟

وبدأنا نركض، فأجبتها:

- لا أمزح!

حاولت اللحاق بي، وأجابتني بأنفاسٍ متلاحقةٍ:

- أتظنُّ أنَّ مظهري يقلُّ أهمِّيةً عن الامتحان؟

أجبتها وأنا أمسك بمقبض الدرج كي أستعين به على دفع نفسي:

- كما تشائين، إذن سأسبقك، لكن مهلاً! ما رقم القاعة؟
- لا أعلم!
- اتَّصلي بيزن بسرعةٍ.
- لا يملك هاتفاً.
- تذكَّرت، يا لها من ورطةٍ! سأتَّصل بعمر.

وقبل أن أمسك بهاتفي، وبينما كنا نجري وجدنا يزن ينتظرنا في الرواق.

- هيَّا أسرعا، سيبدأ الامتحان، القاعة من هنا هيَّا، آدم أنت في القاعة المجاورة، هيَّا أسرع!
- شكراً لك!

تركتهما ومضيت إلى القاعة ودخلت إلى الامتحان في اللحظات الأخيرة. حاولت جاهداً في هذا الامتحان، فقد أصبحت أشدَّ رغبةً في تجاوز المواد كافَّة بنجاح، لا أريد أن أتخلَّف عن باقي أفراد دفعتي خاصة بعد أن توطدت علاقتي بالعديد منهم؛ عمر، ويزن، وليلى، ليسوا كلّهم سواء طبعاً، ولكلٍّ واحدٍ منهم ما يعجبني فيه ويجذبني إليه.

جُمان		سبتمبر 2006 – السنة الرابعة

كنت أنتظر بدء الدوام بفارغ الصبر، وعلى مدى شهرٍ كاملٍ كنت أحاول إيجاد السياق المناسب لأحكي لجود عمَّا أشعر به، إلى أن أتتني الفرصة حينما دار بيننا الحديث الدائم والذي لا نهاية له، ألا وهو الحديث عن "أُسَيد"!

فما يزال أُسَيد في عالمه الخاص لا يبادل جود أي مشاعر، ومنذ أن بدأت السنة الرابعة لم تعد جود تحتمل هذه الحال، وكانت مستعدَّةً لأن تدفع نصف عمرها لتعلُّم ما الذي يفكر به أُسَيد نحوها، وفيما إذا كان يكنُّ لها أي مشاعر أم لا، ومع أنَّ الجواب واضحٌ وضوح الشمس إلا أنَّها كانت تأبى فهمه، وللمرَّة الألف راحت تشاورني في خطَّةٍ جديدةٍ رَسَمتْها لتكتشف مشاعر أُسَيد، وحين أخبرتها بأنَّ الخطة واضحة وساذجة جدَّاً، أجابتني بحزنٍ:

- أرجوك جُمان، هذه المرَّة محبوكة بطريقةٍ رهيبةٍ، ثقي بي وساعديني.
- لا يا جود، إنَّك تستجدين مشاعره!
- حقَّاً! أهي واضحةٌ فعلاً؟

- نعم.

تنهَّدت وبدأت عيناها تكتنزان بالدموع.

- جُمان! لقد تعبت، ماذا بوسعي أن أفعل؟
- يجب أن تنسيه جود! فقط لا غير. إن كان يكن لكِ مشاعر طيِّبة فسيبوح لكِ بها يوماً ما، حينها أحبِّيه كما تشائين.
- لا أستطيع جُمان..
- بل تستطيعين، كفاك ضعفاً يا جود.
- لا تلوميني جُمان، فأنتِ لا تعلمين كيف يكون شعور الحبِّ مسيطراً على صاحبه.

وهنا أتت فرصتي فتشجَّعت وأجبتها وأنا في قمَّة ارتباكي:

- فلنقل لقد بدأت بالتعرُّف إليه بالفعل!

توقَّفت جود عن البكاء فجأة، ونظرت إليَّ وسألتني:

- ما هو الذي تعرَّفتِ إليه؟
- ممم، ذاك المسيطر على المرء!
- الحبُّ!؟

ضحكتُ وأنا أجيبها:

- نعم، ألستُ بشراً؟
- ويحي لم أقصد ذلك، من، وأين، وكيف، ومنذ متى؟
- سأخبرك بكلِّ شيءٍ، لكن بشرط أن تهدئي الآن وتستعيدي بهجتك ودعينا نتحدَّث في مكانٍ لطيفٍ وهادئٍ.
- وأنا موافقة، هيَّا بنا.

وتوجَّهنا إلى كافيتريا صغيرة بجانب الكلية، وفي الطريق راحت جود تلحُّ علي بالسؤال:

- هل أعرفه جُمان؟ تحدَّثي لقد نفد صبري.
- نعم تعرفينه. اصبري حتَّى نجلس في الكافتيريا، سأحكي لكِ كلَّ شيء.
- لا أستطيع، هيَّا أخبريني.
- حسناً هو شابٌّ أسمر وطويل.

شهقت بصوتٍ مرتفعٍ ووضعت يدها على فمها وقالت بدهشةٍ:

- آدم؟

احمرَّ وجهي واضطَّربت نبضات قلبي ونظرت إليها نظرة اعترافٍ ثمَّ أومأت برأسي، فقالت لي:

- كيف لم تخبريني بذلك؟
- كنَّا نتحدَّث عنه يومياً.
- لا جُمان، لم أتوقَّع أن تتحوَّل اللعبة إلى حقيقة.

وهنا وصلنا إلى الكافيتيريا، فجلسنا، حينها نظرت إليَّ نظرة شكٍّ، وقالت وهي توجِّه أصابع الاتهام نحوي:

- جُمان، اعترفي، هل اخترتِ رقم ثلاثة عمداً؟
- ممم، نعم!
- إذن فالأمر ليس حديثاً.

وهنا شعرت باستيائها، ولديها الحق بذلك، فهي تخبرني أسرارها ومشاعرها بصدقٍ وشفافيَّةٍ مهما كانت خاصَّة، استدركت الوضع وقلت لها:

- أنتِ أوَّل شخص أخبره بالأمر، صدِّقيني جود.

حاولت جود حينها أن تخفي ملامح الانزعاج وتبتهج مجدَّداً، فأنا أعلم أنَّها لا تريد أن تفسد عليَّ هذه اللحظات، فقالت لي:

- لا مشكلة، أنا لست منزعجةً، والآن أخبريني هل تحدَّثتما بشيءٍ خاص؟
- لا إطلاقاً! أنا فقط من وقعت في حبِّه، هو لا يعلم شيئاً.

وهنا ابتسمت جود ابتسامةً عريضةً، ثمَّ نادت للنادل وطلبت فنجاني قهوة آخرين، وقالت لي:

- يبدو أنَّنا سنحتاج إلى عشرة فناجين اليوم، تفضَّلي واشرحي لي القصة من أوَّلها، وكلِّي آذانٌ صاغية.
- حسناً، بدأ الأمر منذ السنة الماضية، حين لاحظت بأنِّي أراقبه، وأتعمَّد أن أكون حيث يكون فأتتبَّع تحرُّكاته، وأجد نفسي أتساءل دوماً: هل أتى؟ وهل سيجلس في مقهى الكليَّة أم لا؟ وكأنَّني مراقب الدوام لكن لشخصٍ واحدٍ، لآدم فقط!
- أخبريني جُمان، كيف حظي بانتباهك؟
- لطالما لفتني شكله، وضحكته التي تعلو وجهه، وأسنانه البيضاء الناصعة، يتحدَّث بعفويَّة ولديه نبرة صوتٍ مميَّزة، كلُّ ما فيه ينبض بالحيوية، حركاته، وملامحه، وتصرفاته، وألوان ملابسه. تحيط به هالة خاصَّة من الفوضى الجميلة. أتعلمين؟ تلك الأربطة التي يلفها حول معصمه تستفزني للغاية، وشعره الذي

يعبث به حين يشعر بالملل. ألم تلاحظي كم يشعر بالملل في المحاضرات؟

- طبعاً، فهو لا يستطيع أن يجلس بهدوء.

- نعم، يلعب بهاتفه، يتلوَّى يميناً ويساراً، ومن ثمَّ يخربش على دفتر ملاحظته، أحبُّ طريقته بمسك القلم جود، يمسكه بأصابعه الرفيعة والسمراء. أتعلمين؟ حين عملت معه في إحدى التجارب كان قلبي يخفق بشدَّةٍ، لم أكن مدركةً لمشاعري نحوه بعد، لكنِّي لم أستطع أن أنظر إليه بشكلٍ مباشر حين التقط له الصورة، أتذكرينها؟

- نعم بالطبع كان ذلك في السنة الماضية. أخبريني: متى أدركتِ مشاعرك تجاهه جُمان؟

- بعد انتهاء الامتحانات الماضية، أمسكت بنفسي متلبسةً وأنا أنتظر صدور علاماته بفارغ الصبر، إذ كنت أبحث عن اسمه وأطمئن على نجاحه حتَّى قبل أن أجد علاماتي، فكما تعلمين تكدَّست المواد في قائمته، وكان على وشك مفارقة الدفعة إن لم يجتزها. أنا سعيدةٌ بأنَّ آدم أبدى جدِّيةً واهتماماً بدراسته في الآونة الأخيرة، وآمل أن يبقى على هذه الحال، ولا يتراجع مجدَّداً، لا يمكنني تصوُّر الدفعة من غير وجوده معنا.

- ألهذه الدرجة جُمان؟

- بل وأكثر، صدِّقيني أنا أستغرب أيضاً من نفسي، لم تكن تخطر على بالي فكرة أن يلفت انتباهي شابٌّ في الكلية. لكن لا أحد يشبه آدم بخفَّة ظلِّه، ووسامته، وعفويته، أغبط ليلى لأنَّها تحظى بفرصة الحديث معه، أغبط أصدقاءه لأنَّهم يقضون وقتاً طويلاً بصحبته، ويسمعونه ويحدِّثونه، ويعرفون عنه أشياء كثيرة. لطالما تساءلت: يا ترى كم عدد أخوته؟ ما هي كتبه المفضَّلة؟ وما هي هواياته؟ كيف تبدو والدته؟ وما اسمها؟ أهي جميلة؟ هل يشبه والدته أم والده؟ أين يقع منزله؟ هل يربِّي حيواناً أليفاً؟ أريد أن أعرف عنه أكثر يا جود.

ابتسمت جود وهي تقول:

- هل تسمعين ما تقولينه جُمان؟ أشعر أنِّي لا أعرف هذه الفتاة التي أمامي.

أخفضت رأسي خجلاً، فقالت:

- مهلاً لقد تذكَّرت شيئاً مهمَّاً، بعد لعبة الأسماء وورقة الحضور، أذكر أنِّي نعتَّه مرَّات بـ: "نصفك الثاني"، لكنَّك لم تظهري أي اهتمام، لذا اعتقدت أنَّ الأمر يزعجك ولم أكرِّره.

- بالعكس، لقد كان ذلك الوصف يسعدني للغاية.
- كم أنتِ ماكرة يا جُمان!
- سامحيني أرجوك.
- لا عليك، إن كنتِ سعيدةً بمشاعرك تجاهه، فأنا سعيدة لأجلك، لكن أرجوك، لا تتعلَّقي به كثيراً، حافظي على مسافة أمان.
- انقلبت الأدوار يا جود، بالأمس كنتُ أنا من أكرِّر عليك هذه الكلمات.
- بالضبط، كوني حذرةً.
- لا تقلقي أنا مسيطرة على زمام قلبي.
- لو ترين وجهكِ يا جُمان كم ازداد إشراقه وأنتِ تتحدَّثين عن آدم، سبحان الله، حقَّاً لا شيء كالحبّ!

ابتسمتُ خجلاً، ثمَّ قلت لها وأنا أضمُّها:

- شكراً لكِ جود، شكراً لأنَّك صديقتي التي أثق بها.

ربَّتت على كتفي برفقٍ ورقَّةٍ، وهي تقول:

- أنتِ دوماً على الرحب والسعة.

أنهينا حديثنا وعدت إلى المنزل، وأنا أشعر براحةٍ نفسيَّةٍ كبيرةٍ، بعدما بحت لجود عن مكنونات نفسي.

آدم مارس 2007 – السنة الرابعة

مع بدء الفصل الدراسي الثاني، نصحني عمر بحضور محاضرات الدكتور قيصر، ولا سيما أنَّ المادة المسؤول عنها هي مادة اختصاصيَّة ومهمَّة للغاية. بالفعل، استجمعت طاقتي وانطلقت إلى محاضرته الأولى لنا، وما إن رآني يزن في القاعة، حتى سألني باستغراب:

- هل أنتَ آدم؟ أم أنَّك شبحه؟

أجبته:

- بل آدم بشحمه ولحمه.
- وما تلك المعجزة التي جعلتك تأتي لمحاضرة الساعة الثامنة صباحاً؟ أشعر بأنِّي أهذي!

أجبته وأنا أهمُّ بالجلوس بجانبه:

- لا تقلق، أنتَ بخير ولا تهذي.

وبينما نحن نتحدَّث كان الطلاب يتوافدون إلى القاعة، اكتشفت أنِّي لست وحدي من لديه الفضول والرغبة في حضور مادة الدكتور قيصر، بل أغلب الطلاب كذلك، وبعد دقائق دخل الدكتور قيصر إلى القاعة

وألقى السلام بودٍّ وتواضع، ومن ثمَّ بدأ بمحاضرته. حاولت التركيز معه قدر الإمكان، وكان الوضع جيِّداً، وخلال المحاضرة وصلت ليلى، طرقت الباب وقالت:

- أهلاً دكتور، أتسمح لي بالدخول؟
- تفضَّلي.

قال لها "تفضلي"، هكذا وبكلِّ بساطةٍ، لم يؤنِّبها، ولم ينهرها، سألته وأجابها وانتهى الأمر!

استمتعت في المحاضرة وأعجبتني طريقة الدكتور قيصر، فهو يعاملنا كزملاء، وقبل أن يختم محاضرته، وبصفته رئيس قسم الهندسة الطبيَّة، شرح لنا مخطَّطه لمشاريع التخرج لسنتنا المقبلة، إذ خصَّص القسم العمليَّ لمادته لتحضير حلقات بحثٍ حول المواضيع الجديدة والمهمَّة في مجال الهندسة الطبيَّة.

سرد لنا الدكتور قيصر الخطوات الأساسية للبحث العلمي، فشرح كيفية اختيار موضوع البحث، وتحليل المشكلة واقتراح الحلول، وطريقة عرض النتائج وقياس جودتها، واستخدام المراجع المناسبة، ومن ثمَّ أدرج بعض الأمثلة عن المشكلات التي يمكننا اختيارها في دائرة اختصاصنا، وأخبرنا بأنَّه سيشرف على نتائج حلقات البحث بنفسه في

نهاية الفصل الدراسي الحالي، لنستفيد من ملاحظاته واقتراحاته، ونضمن بذلك جودة مشاريع التخرُّج التي سنعمل عليها خلال السنة القادمة.

أبهرني أسلوبه، هو شابٌّ في الثلاثينيات من عمره، أتمّ دراسته منذ سنواتٍ في فرنسا، ويبدو مختلفاً عن بقيَّة الكادر التدريسي، فهو متحمِّسٌ ومتأمِّلٌ بنا. طلب منَّا أن نكوِّن مجموعاتٍ صغيرة، كي نبدأ بالبحث عن الفكرة المناسبة والتحضير لها. لذا وفي اليوم التالي، التقيت بيزن فسألني:

- هل تودُّ الانضمام إلى مجموعتنا؟

أجبته:

- بلا أدنى شكّ.

ناولني ورقةً كي أدوِّن اسمي عليها، أمسكتها ورحت أقرأ الأسماء:

يزن، ليلى، عمر، أُسَيد، جود، وجُمان.

سألته:

- من وضع هذه التشكيلة؟
- تشكيلة! هل نحن فريق كرة قدم؟

ضحكت وأجبته:

- لا، لكن تبدو المجموعة غير متجانسة.
- لا أفهمك آدم، ما المشكلة؟

نظر إليَّ ثمَّ قال:

- على أي حال، لا يعني وجود أسمائنا في هذه القائمة بأنَّنا سنعمل بالضرورة معاً في مشروع التخرُّج، فهي فقط حلقة بحثٍ تمهيديَّة، وقد ننقسم مجدَّداً إلى مجموعات في السنة المقبلة.

لم أردّ، فسألني:

- هل تكمن مشكلتك مع أُسَيد، أم مع الفتاتين؟
- ليس بالضبط، انسَ الأمر الآن، ودعني أدوِّن اسمي.

لم أشأ أن أسهب أكثر، فعلاقة أُسَيد مع يزن وطيدة، ارتادا المدرسة الثانوية ذاتها، وأشعر بعمق الصداقة بينهما، رغم أنَّهما لا يتقابلان كثيراً، فأُسَيد مشغولٌ ولا يكون في الكلية إلا في وقت المحاضرات، وهو كما سمعت معلِّمٌ ويدرِّس المواد الشرعيَّة للأطفال في جوامع عديدة، يبدو ملتزماً للغاية، وأخشى أن يكون متشدِّداً وصعب المراس.

جُمان أبريل 2007– السنة الرابعة

حين عرض علينا يزن الانضمام إلى مجموعته مع ليلى للعمل على حلقة البحث معاً، تشاورنا أنا جود حول الأمر ورحَّبنا بالفكرة، ووافقنا. رغبت حقَّاً في أن أحظى بفرصة العمل مع منافسي يزن، فقد مرَّت أربع سنوات ونحن نتنافس بقوِّةٍ، وإن اجتماعنا معاً في مشروعٍ واحد سيجعل من الأمر أكثر حماسةً، وسيجعله مختلفاً كليَّاً عن الوضع الطبيعي للمتنافسين. وبعد يومين تفاجأنا بأنَّ أُسَيد وعمر وآدم قد انضموا جميعاً في حلقة البحث ذاتها، لم أكن لأتوقَّع أن تكون كلُّ هذه الأطراف معاً، لكن هذا ما حدث بالفعل.

كان الأمر مربكاً لجود في جلستنا الأولى، فجود ما تزال عالقةً بين مشاعرها نحو أُسَيد وتجاهله لها، وحين نلتقي معه لا تكون على طبيعتها، حتَّى يزن وليلى لا يبدوان بأفضل حالاتهما، فمن الواضح أنَّ لديهما مشكلاتٍ عديدة، إذ كانا يتجادلان قبل وصولنا إلى الجلسة بصوتٍ مرتفعٍ، وبدا الغضب الشديد على ليلى التي كانت على وشك أن تغادر الجلسة لولا إصرار يزن على ضرورة التزامها بالجلسات العملية.

سألت نفسي: هل ستمضي بقية الجلسات على هذه الحال؟! وكيف سنعمل معاً؟ فأنا لست أفضل حالاً من الباقين، إذ كنت مضطَّربة للغاية، ورحت أتحاشى التعامل مع آدم قدر الإمكان، فمشاعري نحوه في ازدياد مستمرٍّ، ويضطَّرب قلبي حين أراه.

آدم

مايو 2007– السنة الرابعة

- هلا وغلا.
- أين أنت يا آدم؟ لماذا لا ترد؟ أتَّصل بك منذ البارحة.
- أنا في المستشفى، لقد تعرَّضت لحادثٍ أليمٍ.
- هل تمازحني؟
- لا، أنا أقول الحقيقة.
- ماذا حدث؟ وكيف حالك الآن؟ أجبني بسرعة.
- لا تقلق فأنا لا أزال على قيد الحياة.
- حمداً لله على سلامتك، أخبرني كيف وضعك الصحيّ؟
- صدِّقني لا أعلم كثيراً عن التفاصيل، كُسِرَت ساقي وأحد أضلاعي، وجسمي مغطىً باللفائف، أبدو مرعباً كالمومياء، نعم فثمَّة جروح في جسدي بسبب الزجاج الذي تناثر أمامي وقت الحادث.
- ألف سلامة عليك يا صديقي ألف سلامة، هل كنت في السيارة وحدك أثناء الحادث؟
- كنتُ مع والدتي في طريقنا إلى المنزل.
- وكيف هي الآن؟

- هي بخيرٍ الحمد لله، ولم تكن بحاجةٍ إلى أن تبيت في المستشفى، وأُصيبت فقط ببضعة جروح في يديها.
- سلامتها!
- كانت المسكينة قبل وقوع الحادث ببضع دقائق تكرِّر طلبها بأن أخفِض صوت المسجل وأخفِّف السرعة، كما لو أنَّها كانت تشعر بما سيحدث. للأسف لم أستجب إليها، بعدها رنَّ هاتفي الخليويُّ وسارعتُ للردِّ، ثمَّ حصل ما حصل، ظهرت سيَّارةٌ مسرعةٌ أمامنا، وعندما حاولت تفاديها انحرفت عن الطريق فاصطدمنا بحائطٍ كبيرٍ.
- حماكما الله، كم ستمكث في المستشفى؟
- لا أعلم بالضبط، قرَّر الطبيب أنَّه يتحتَّم عليَّ البقاء في المستشفى حتَّى تلتئم جروحي وتستقرَّ حالتي.
- أتمنى لك الشفاء العاجل، هل أستطيع زيارتك آدم؟
- بالطبع، سيسعدني الأمر، أهلا وسهلاً بك متى شئت.
- حسناً، لن أطيل عليك، ارتح الآن ونلتقي بعد قليل.
- مع السلامة.

أغلقت الهاتف ولم تمر ساعة حتَّى وصل عمر إلى المستشفى، جلس قليلاً ولم يُطِل ووعدني أن يزورني يومياً، هو نِعْمَ الصديق فعلاً، لا يبخل

بوقته ولا بمشاعره ولا بمواساته في زمنٍ بات يضن الناس بوقتهم وجهدهم على الآخرين.

جُمان مايو 2007 – السنة الرابعة

كنتُ حزينةً للغاية لأجل جود، فبعد الخطَّة الأخيرة لجود لمعرفة ما قد يخفيه أُسَيد لها من مشاعر، فهمت وصدَّقت أخيراً أنَّ أُسَيد لا يكترث بها مطلقاً. كانت صدمتها كبيرةً، وسبَّب لها الموضوع أزمةً حادَّةً، لم تعد تود إتمام مهمَّاتها في حلقة البحث، حتَّى أنَّها لم تعد تذهب إلى الكلية، وأشاعت أنَّها مريضةٌ ولم تعد تتحرَّك من بيتها، إلى أن يمضي الوقت الذي تحتاج إليه لتخرج من أزمتها.

سألتها وأنا أتحدَّث معها بالهاتف:

- هل ستأتين لموعدنا الأخير مع مجموعة حلقة البحث؟ نحتاج إلى أن نجمع النتائج ونحضِّر للمناقشة.
- لا جُمان، لن آتي.

لم أصر عليها بل طمأنتها:

- حسناً، سأشرح لكِ المستجدَّات، لا تضغطي على نفسك، وسأبرِّر غيابك لا تقلقي.
- أشكرك جُمان، لا أعلم كيف أعبِّر لك عن امتناني.

- لا تقولي هذا الكلام، لِمَ أنا صديقتك إذن؟! لكن أريدك أن تكوني أقوى.
- مسألة وقت وسأعود كما كنت، صدقيني.

ودَّعتها وأنهينا المكالمة، لكنَّها عاودت الاتِّصال بي بعد أقلِّ من خمس دقائق، قلت في نفسي لعلَّها نسيت شيئاً تودُّ قوله، أجبتها:

- أهلاً يا جود!

ألقت السلام فلاحظت بأنَّ نبرة صوتها قد اختلفت عمَّا كانت عليه قبل قليل، إذ بدت مضطَّربةً للغاية، قالت لي بحذرٍ:

- جُمان عزيزتي، سأخبرك بأمرٍ مهمٍّ، لكن اسمعيني ولا تجزعي أرجوك!

قلقتُ جدَّاً، فسألتها:

- ماذا هناك جود؟
- وصلتني رسالةٌ نصيَّةٌ من عمر قبل قليل.
- ماذا كتب فيها؟ هل هو بخير؟

أجابتني بارتباكٍ:

- آدم، آدم في المستشفى!

صرخت بأعلى صوتي:

- ماذا؟
- لا تقلقي إنَّه بخيرٍ، تعرَّض لحادثٍ، نتج عنه بعض الكسور والجروح.

توقَّف الدم في عروقي لوهلةٍ، فسألتها بصوتٍ مرتجفٍ وأنا أحاول التأكُّد ممَّا سمعته:

- ماذا تقولين جود؟ حادث؟! ويلي، متى وكيف؟
- اهدئي أرجوك، أقسم لك إنِّي لا أعلم مزيداً من التفاصيل.

في تلك الأثناء شعرت بدوارٍ شديد، وبأنِّي على وشك فقدان توازني، فقالت لي جود:

- جُمان هل تسمعينني؟ هل أنتِ على ما يرام؟

أجبتها وأنا أحاول الاستناد على حافَّة مكتبي:

- نعم أسمعك جود.
- هو بخيرٍ صدِّقيني، لقد تجاوز المرحلة الحرجة، الحمد لله.
- هل أنتِ متأكِّدة؟
- نعم، ومع ذلك سأتَّصل بعمر وأسأله عن حالته.

- اتَّصلي به حالاً، أرجوك.
- سأفعل.
- حسناً.

وبعد دقائق اتَّصلت بي جود وشرحت لي تفاصيل الحادث، وما إن أغلقت الهاتف حتَّى جلست على الأرض وأنا أمسك بقلبي.

رددت وأنا أبكي: يا إلهي احفظه، احفظه من كلِّ مكروهٍ، وحينها لاح لي مشهد الحادث في مخيلتي، فرأيت آدم وهو غارق بدمه، فشعرت بأنَّ الجدران تدور حولي، وأظنني غبت عن الوعي للحظات، فما يزال ذكر الدم يسبب لي أزمةً كبيرةً، فكيف إذن إن كان المصاب هو آدم؟!

وبعد ساعةٍ نادتني والدتي لتناول طعام العشاء، نظرت إلى المرآة فوجدت جفوني متورِّمةً من البكاء، فاعتذرت عن مشاركتها الطعام وأمضيت الوقت وحدي في غرفتي إلى أن حان وقت النوم. لم يغمض لي جفنٌ في تلك الليلة، وأنا أفكِّر بما حدث معه وبما يعانيه من ألمٍ وتعبٍ وكسورٍ.

آدم! تبّاً لتلك الشظايا التي اخترقت جسدك.

وتبّاً لهذه السيارات التي لم تجهَّز بنظام أمانٍ ليحميك.

آدم كن بخيرٍ أرجوك، كن بخيرٍ.

– آدم، هلَّا توقفت عن تعديل سرعة المحاليل، ذلك خطير للغاية!

أجبت الممرِّضة وأنا أتململ:

– أريد أن تنتهي الجرعة بسرعةٍ.

– وما الفارق؟ في الحالتين ستبقى في فراشك.

– أرغب في الخروج والتنزُّه في الحديقة، أين الكرسي المتحرِّك؟

– تهطل الأمطار في الخارج كما ترى، لن تستطيع التنزُّه اليوم، اصبر قليلاً.

– أين سجائري؟

– أي سجائر؟

– لا أعلم، أريد سجائر، اجلبي لي ولو واحدة، أرجوك.

– أنا آسفة لا يمكنك التدخين داخل المستشفى.

– هذا ليس عدلاً.

– عن أي عدلٍ تتحدَّث؟ هل ستدخِّن هنا؟

– وما الضير في ذلك؟

– هل تمزح؟

وبينما كنتُ أجادلها، وصل عمر ويزن في الوقت المناسب، استأذنت الممرِّضة ومضت. سألت عمر وهو يضع صندوقاً كبيراً على الطاولة:

- يا سلام! ماذا جلبت لي اليوم؟ طعاماً حلواً أم مالحاً؟
- حلواً، بالأمس أخبرتني أنَّك لا تشتهي الطعام المالح.
- لا تتعب نفسك أرجوك، وإيَّاك أن تجلب معك شيئاً بعد الآن، أنا بالفعل لا أشتهي الطعام إطلاقاً.
- لا تقل ذلك، تغذَّ جيِّداً وعد إلينا سريعاً، فالكلية من غير وجودك مملَّةٌ جدَّاً.

ضحك يزن وهو يقول:

- تُكرِّر ليلى تلك الجملة دائماً.

سألته:

- كيف هي ليلى؟
- بخيرٍ، كانت ستأتي معنا اليوم، إلا أنِّي أخبرتها بأنَّنا سنذهب مساءً، وحينها لن تكون الخالة أم يمان موجودةً، تودُّ أن تأتي وتتعرف إلى والدتك، أعتقد أنَّها ستزورك غداً صباحاً.
- على الرحب والسعة.

سألني عمر حينها:

- وهل أتى أُسَيد؟ طلب منِّي اليوم عنوان المستشفى.
- نعم مرَّ بعد ظهر اليوم، لم أتوقَّع زيارته بصراحةٍ، فنحن لسنا صديقين مقربين، ولم أتعامل معه إلا بضع مرَّات كما تعلمان.

قال يزن:

- لا عجب، فأُسَيد شابٌّ نبيلٌ وأخلاقه عالية، ناهيك عن أنَّه دقيق في فقه الأولويَّات، فعيادة المريض هي من أهمِّ السنن، أُسَيد يتعلَّم ويُعلِّم ويطبِّق.

أجبته:

- نعم، لاحظت ذلك، على أي حال هو لم يضيِّع هذه الفرصة واستغلَّها للموعظة، فقال لي إنَّ ما حدث معي رسالة وعليَّ فهمها، وحين سمعت والدتي أسلوبه ومنطقه، لفت انتباهها، ووجدت فيه ضالَّتها، فأخبرته بأنِّي لا أحافظ على فروضي، وأوصته بأن يصحبني معه إلى الصلاة في الكلية!

قال يزن:

- هذا جيِّد، سيكون الأمر من صالحك...

وبينما كان يزن يكمل كلامه، طرق أحد عمّال المستشفى الباب وسلّمنا باقة وردٍ كبيرة، وضعها على الطاولة التي أمام عمر ومضى. سألتُ عمر:

- ترى ممَّن هذه الورود! هلّا نظرت إلى الاسم!
- لا أجد أي بطاقة أو اسم، من أرسلها إذن؟
- إمَّا شخصٌ نسي كتابة اسمه، أو شخصٌ تعمَّد عدم وضع اسمه.

راح يزن ينظر إلى الباقة، وقال:

- لعلَّها من معجبةٍ؟
- لا أعتقد.
- وما الذي يجعلك متأكِّداً؟
- لو أنَّها موجودة لشعرت بها، ليس من الصعب اكتشاف شخصٍ يكنُّ لك المشاعر. للمشاعر طاقةٌ تخرج للعلن مهما حاول صاحبها إخفاءها!

احمرّ وجه عمر فغيَّر الموضوع وراح يشرح لي مجريات الأحداث في الكلية، فسألته:

- متى موعد مناقشتنا لحلقة البحث؟

أجابني:

- الأسبوع المقبل.
- لم أنتهِ بعد من مهمّاتي.
- لا بأس، سأتمّها عنك.
- سلبتَ لبّي بهذا الكلام، أشكرك يا عمر! فأنا لا أستطيع التركيز بأي شيء من مكاني هذا، تزعجني رائحة الكلور والمعقّمات جدّاً، وأشعر بالغثيان طيلة الوقت، ناهيك عن كونهم لا يسمحون لي بالتدخين إطلاقاً.

أجابني عمر وهو يربّت على كتفي:

- لا تقلق، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

تزامنٌ سيءٌ! آدم لم تستقر حالته الصحيَّة بعد، وجود ما تزال في حالةٍ حرجةٍ، ورغم ذلك إلا أنَّها كانت تستمع إلى شكواي المستمرَّة وقلقي حول حالة آدم، حدّثتني قبل انطلاقي إلى موعد حلقة البحث الأخير، كي تؤكِّد لي عدم قدومها، وقبل أن تغلق الهاتف سألتني:

- وكيف هو آدم؟
- ما يزال وضعه غير مستقرٍ إلى الآن، لم أستطع فهم حالته تماماً، لكنّي سأحاول استقراء بعض الأخبار من ليلى حين سألتقي بها اليوم.
- مضى على الحادث أسبوعٌ كاملٌ، ألم يتحسَّن؟
- يبدو أنَّ لديه بعض المضاعفات. جود! أتمنَّى أن أسمع صوته وأطمئن عليه.
- برأيي تستطيعين الاتِّصال به، لن تخرب الدنيا!
- بل ستخرب، فأنا لم أتَّصل به في حياتي ولا أستطيع أن أهتمَّ به بشكلٍ مفاجئٍ.
- ما دام أنَّك لا تستطيعين فعل أي شيء، فادعي له، اقرئي له القرآن على نيَّة الشفاء، سورة البقرة أو الأنعام.

- لِمَ هذه السور فقط؟
- انظري سأسهِّل الأمور عليك، إنَّ قراءة القرآن من الأعمال الصالحة أليست كذلك؟
- نعم!
- وأنت تتوسَّلين بأعمالك الصالحة وتدعين له بالشفاء، هذا كلّ ما في الأمر، اقرئي ما تشائين، واسألي الله أن يشفيه.

أنهيت المكالمة، وفكَّرت مليّاً بما قالته جود، فهنالك مشكلة صغيرة، كيف أقرأ القرآن وأتوسَّل بأعمالي الصالحة وأنا لا أواظب على الصلاة بالأساس! يبدو الأمر متناقضاً، عليَّ أن أوازن الأمر أوَّلاً!

نظرت إلى الساعة، فكانت الثالثة، قلت في نفسي هل لديّ الوقت كي أصلي الظهر قبل أن أنطلق لموعدنا مع المجموعة، فكَّرت كثيراً، ولو أنِّي لم أفكِّر لكنت صلَّيتها، لكنِّي أضعت الوقت. وعدتُ نفسي أن أصلي الفروض المتبقيَّة من هذا اليوم حالما أعود.

حين وصلت إلى الكلية كانت ليلى حاضرة قبل أن يحضر أي أحد، فانتهزتُ الفرصة وسألتها بشكلٍ مباشر:

- أهلاً ليلى، كيف حالك؟
- أنا بخيرٍ شكراً لك.

- أودُّ سؤالك، كيف حال زميلنا آدم؟
- زرته بالأمس، المسكين لم تلتئم جروحه بشكلٍ جيِّدٍ بعد، تلازمه الحرارة المرتفعة منذ يومين.
- هل تحسَّن اليوم أم ما يزال وضعه سيِّئاً؟
- ما تزال حرارته ترتفع كلّ خمس ساعات، والمشكلة أنَّه يتذمَّر من فكرة البقاء في المستشفى، يودُّ الخروج، لم يعد يطيق المكوث هناك.
- لا بدَّ أن يتحلَّى بالصبر، يتلقَّى في المستشفى الرعاية اللازمة.
- أخبرناه بذلك، أتصدِّقين؟ كان على وشك الهروب منذ يومين!
- إلى هذا الحد؟!
- بل أكثر، هو منزعجٌ من منعه من التدخين أيضاً.
- وهل منعوه بشكلٍ كاملٍ؟ ألا يستطيع التدخين في حديقة المستشفى؟
- بلى يستطيع، لكن أخبرتني الخالة أم يمان حين رأيتها البارحة، أنَّها هي من أوزعت سرَّاً لكلِّ الطاقم الطبِّي بمنعه عن التدخين منعاً باتاً. اعتبرتها فرصةً لإجباره على عدم التدخين.
- أتقصدين والدته؟

- نعم، واعتبرتُ أنا نفسي في قمَّة الذكاء حين أخذت له هدية معي، سيجارة إلكترونيَّة، سألتني الخالة أم يمان وهي ممتعضةٌ من هذه الهدية: "هل هذه ستعينه على ترك التدخين أم ستزيد الأمر سوءاً؟" أجبتها بأنَّ الأمر يعتمد عليه.

سكتت قليلاً ثمّ أردفت:

- مسكينٌ آدم، فالأدوية قويَّة جدَّاً، وهو متعبٌ في العموم، ولا يشتهي الطعام، لذا لقد خسر قليلاً من وزنه.
- أتمنَّى له الشفاء العاجل.

اعتصر قلبي عليه، وفي تلك اللحظة دخل عمر، وبعد أن حيَّانا سألنا:

- لن يأتي آدم كما تعلمان، هل من غائبٍ آخر؟
- نعم، جود متعبة ولن تستطيع الانضمام إلينا.
- سلامتها، أتمنَّى لها الشفاء العاجل.
- لا تقلق، أيام قليلة وستكون بحالةٍ جيدةٍ.

هنا سألت ليلى:

- ما مرضها بالضبط؟
- إرهاقٌ عام، هي بحاجةٍ إلى الراحة بسبب ضغط الدراسة.

لاحظت اضطّراب عمر مما سمعه منِّي حول جود، وفي تلك اللحظات وصل يزن ومعه أُسَيد، قلت في نفسي: كم هو قويٌّ هذا الأُسَيد ولا يبالي! كدت أحقد عليه لكن أعلم عِلم اليقين ألّا علاقة له بما حدث لجود، هي من أحبَّته، وبإرادتها أغرقت نفسها بحبِّه.

أنهينا الجلسة، فعدت إلى المنزل مباشرةً وأنا أشعر بضيقٍ شديدٍ، فقد أصبحت الكلية موحشةً من دون جود وآدم، بقيت منقبضة القلب بضع ساعات فلجأت إلى الصلاة، ومن ثمَّ حاولت أن أقرأ ما أوصتني به جود من القرآن الكريم، لكنِّي لم أنجز سوى بضع آياتٍ، ومن ثمَّ استسلمت للنوم.

آدم

مايو 2007 – السنة الرابعة

وأخيراً إنَّها الحرية، يا إلهي ما أصعب المكوث في المستشفى، حمدت الله أنِّي لا أعاني من مرضٍ مزمنٍ يجبرني على الذهاب دوماً إلى هذا المكان. كنت مع يمان ووالدتي في طريق عودتنا إلى المنزل، جلست في المقعد الخلفي وقلت:

- أمِّي، هناك علبة سجائر في الصندوق الذي أمامك، هلَّا أعطيتني إيَّاها رجاءً!
- سجائر! أيُّ سجائر؟
- سجائري!
- لقد رميتها كلها.
- أنتِ تمزحين!
- لا أمزح.
- هذا مستحيل! أنتِ ضد التبذير ورمي النعمة.
- نعمة! أتسمِّي هذا السم نعمة؟ إنَّه نقمة النقم.
- حسناً كما تشائين، أعطني إيَّاهم الآن، أرجوك!
- قلت لك رميتهم، أقسم إنِّي رميتهم.

- أمِّي لِمَ فعلت هذا؟ هذه السجائر أجنبية، كيف رميتها؟ لقد أنفقت أموالاً كثيرة كي أشتريها.
- آدم، لا سجائر بعد اليوم، أرجوك يا حبيبي، ها قد مرَّ أسبوعان من دونها، أرجوك يا بني.
- كنت أنتظر هذه اللحظة كي أحصل على سيجارةٍ بعد كلِّ هذا الوقت. أنا مستاءٌ للغاية!

لم يتكلَّم يمان ولم يعقِّب -كعادته- بل ظلَّ يقود سيارته بهدوئه المعتاد، حمداً لله أنِّي لم أكن أقد سيارته وقت الحادث، بل كانت سيارة والدي، ومن حسن الحظ أنّ أبي ليس من النوع الذي يخشى على أغراضه كثيراً، إذ أصبح مظهرها سيئاً بعض الشيء، ومع ذلك فهو لم يبالِ، خاصَّة وأنَّ نجاتي بالنسبة إليه كانت هي الأهم، وهو بالمقابل لن يمانع بالحصول على سيارةٍ جديدةٍ. وعلى إثر ذلك وهبني سيارته بعد إصلاحها، وأطلقت عليها اسم "أبريل".

آدم

يونيو 2007 – السنة الرابعة

عندما حان موعد الامتحانات النهائيَّة للسنة الرابعة، كانت قدمي ما تزال بحالةٍ غير مستقرَّة، فتبرَّع يمان بمساعدتي في الذهاب إلى الكليَّة. كان يرافقني وينتظرني إلى أن أنتهي من الامتحان، ونعود إلى البيت معاً. في حين كان أُسَيد ويزن وعمر يحاولون جاهدين مساعدتي في المواد، أبلينا حسناً، درست بجدٍّ قدر ما أستطيع، لكن كان أصعب ما في الأمر أنَّ والدتي قد اتَّخذت هذه المرَّة موقفاً صارماً بشأن السجائر، إلا أنَّني لم أشأ تخييب ظنَّها، فرضخت لأوامرها.

في النهاية سيصبُّ كلُّ ذلك في مصلحتي، عاجلاً أم آجلاً!

مضى شهر الامتحان على هذه الحال، إلى أن أتى اليوم الأخير، وتحسَّنت قدمي بشكلٍ جيِّدٍ، وبينما كنت خارجاً من قاعة الامتحان، تفاجأت بأحد الطلاب يناديني:

– هل أنت الطالب آدم؟

أجبته:

– نعم.
– يودُّ رئيس القسم التحدُّث إليك.

- أتقصد الدكتور قيصر؟
- نعم، فهو ينتظرك في مكتبه.
- حسناً، سآتي حالاً.

يا سلام! ماذا يريد منِّي الدكتور قيصر! أهي مصيبةٌ تسبّبت بها؟ أم ماذا بالضبط؟!

انطلقت إلى مكتبه، طرقت الباب، وألقيت السلام، فردَّ الدكتور قيصر السلام وأشار لي بالجلوس، وبدأ حديثه مباشرة:

- كيف حالك يا آدم؟
- أنا بخيرٍ دكتور.
- وإصابتك؟
- تحسَّنتْ!
- ما بك؟ لِمَ أنتَ متفاجئٌ بسؤالي؟
- كيف علمت بأمر الحادث دكتور؟
- علمت من مصدرين، لعلَّ أهمهما أنَّك لم تقم بأي إجراء لتبرِّر غيابك عن الكلية في الآونة الأخيرة، وقد اشتكى أغلب أساتذتك من هذا الأمر وحَلَلتُ الموضوع، لا تكرِّر هذا رجاءً!
- أشكرك دكتور، لم أكن أعلم بما حدث، أنا ممتنٌّ لك.

- لا بأس، كن أكثر اهتماماً بدراستك، وأكثر حذراً حين تقود سيارتك التي بالتأكيد ليس مكانها في مرآب الكلية!
- لكنِّي لم آتِ بها منذ أسابيع.
- أعلم، أتحدَّث عن السنة المقبلة.
- حاضر دكتور، لن أركنها في المرآب مجدَّداً.
- آدم، عليك أن تدرك أنَّني وبصفتي مسؤول عن قسمكم، فإن أي شكوى متعلِّقة بأحدكم تبلغني، وأنا من جهتي أفضِّل منح طلابي فرصةً أو اثنتين قبل اتِّخاذ أي إجراءٍ ضدهم، لكن اسمك بالذات يتكرَّر كثيراً يا آدم، انتبه! علمت أنَّ مشكلاتك مع الأساتذة كانت أكثر حدَّةً قبل أن أتسلَّم رئاسة هذا القسم، لهذا فأنا أقترح عليك أن نبدأ صفحةً جديدةً معاً، ما رأيك؟

كانت طريقة الدكتور قيصر راقيةً للغاية، أحرجني من فرط أدبه، فاحمرَّ وجهي، وأجبته بصوتٍ منخفضٍ:

- نعم دكتور، سأحاول.

أجابني بنبرته السريعة والحازمة:

- ستستطيع، لا تقلق، أنت شابٌّ ذكيٌّ.

ابتسم لي، وأكمل:

- أمَّا عن المصدر الثاني، فزملاؤك، أو ربَّما هم أصدقاؤك على ما أعتقد، لقد تفانوا في سدِّ الثغرات خلفك بالطرائق شتى، عليك أن تكون ممتنّاً لحصولك على أصدقاء أوفياء مثلهم، أخبرني صديقك عمر أنَّك لم تضع اسمك بعد في قائمة مشاريع التخرج! والبارحة كان اليوم الأخير لتسجيل المشاريع، لذا فقد طلب منِّي إضافة اسمك إلى هذه المجموعة.

وهنا أعطاني الدكتور قيصر قائمةً بالأسماء التالية: عمر، وجود، وجُمان، ويزن، وليلى، وأُسَيد، وسألني:

- هل تودُّ أن تعمل معهم بالفعل؟ أم أنَّك ترغب في اختيار مجموعةٍ أخرى؟
- نعم، سأعمل معهم، لكنِّي نسيت أن أسجِّل اسمي، أنا آسف!
- حسناً لا بأس، الآنسة سارة، هل تعرفها؟
- أعرفها طبعاً!
- هي التي تشرف على مشروعكم، نسِّق معها وتأكَّد من أنَّها أضافت اسمك إلى المجموعة. على فكرة، هي مَن اقترحت إرسال الورود باسم القسم حين علِمتْ بالحادث، وهي من كانت تتابع أخبارك.
- أي ورود؟ أهي تلك الباقة التي لم تكن ممهورةً بأيِّ اسمٍ؟

- نعم، لا بدَّ أنَّها تلك.
- هذا لطفٌ منكم، شكراً جزيلاً.
- عفواً، أتمنَّى لكَ التوفيق!
- حسناً، سأمضي الآن، السلام عليكم.
- وعليك السلام.

ومضيت مُنبهراً بوجود شخصٍ مثل الدكتور قيصر في كلِّيتنا، حازمٌ ودقيق، ذو هيبةٍ ووقار، متواضعٌ رغم مكانته وعلمه. بالفعل، ثمَّة أناس يفرضون احترامهم على المرء من دون أدنى اختيارٍ منه.

الفصل الثاني

مع بداية السنة الخامسة، وككلِّ مجموعات مشروع التخرُّج، اجتمعنا نحن السبعة مع الدكتور قيصر والآنسة سارة. حين دخلا إلى القاعة ألقيا السلام، ومن ثمَّ نادى الدكتور قيصر على أسمائنا:

- يزن، أُسَيد، عمر، آدم، ليلى، جُمان، وجود، هل الجميع موجودون؟

أجبناه بصوتٍ واحدٍ:

- نعم.
- سأتحدَّث معكم اليوم بخصوص مشروع التخرُّج. اطَّلعت على مقترحاتكم، ودرسناهم أنا والآنسة سارة عن كثب، وخلُصنا إلى ما يلي: الفكرة جيدة وجديدة، لكنَّها تحتاج إلى أسسٍ نظريَّةٍ، وخبرة عمليَّة في مجال برمجة الشرائح الإلكترونية، وبرأيي، قد يثمر عملكم بنتاجٍ قابلٍ للنشر في أرقى المجلات العالمية في مجالكم، استغلّوا قدراتكم جيِّداً لإنتاج عملٍ ذي قيمةٍ علميَّةٍ عاليةٍ، فمنكم من هو ماهرٌ بالبرمجة والتعامل مع الدارات الإلكترونية، وهناك من يجيد الدراسة النظرية وتحليل النتائج.

سأله يزن:

- لكن هل سيكون الوقت كافياً لكتابة ورقة بحثية؟
- لا تقلق يا يزن، لستم مضطَّرين إلى كتابتها قبل التخرُّج، ومع هذا سيكون أُسَيد مستعداً لهذه المهمَّة، فقد عملنا أنا وأُسَيد في الصيف على ورقةٍ بحثيَّةٍ واستطاع تطوير مهاراتٍ وخبراتٍ لا بأس بها في مجال البحث العلمي، أليس كذلك أُسَيد؟

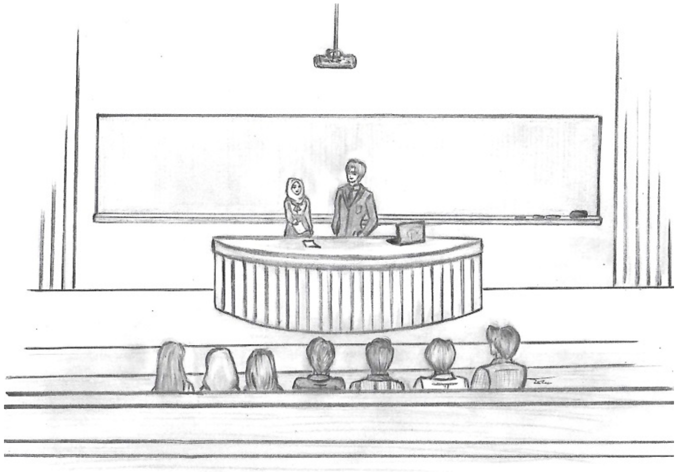

ونظر إلى أُسَيد الذي بدوره أومأ بالإيجاب بكلِّ ثقةٍ واعتزاز. أردف الدكتور قيصر كلامه قائلاً:

- إن احتجتم إلى جلسة نقاشٍ أخرى، نسِّقوا مع الآنسة سارة، وسأكون جاهزاً. أنا متفائلٌ جدَّاً بما يمكن أن تقدِّمونه معاً.

أجبناه:

- شكراً لك دكتور.

ابتسم بوقارٍ وألقى السلام ومضى هو والآنسة سارة.

وبعد أيام وفي جلستنا الأولى معاً، كانت الآنسة سارة برفقتنا، قسَّمنا العمل والمهمَّات بشكلٍ واضح.

أُسَيد: إيجاد الحلول السابقة، وطرائق الحل التقليدية، ودراسة سبب عدم جدواها، والبحث عن المراجع وتدوين كل ملاحظاتنا التي نزوده بها بنسقٍ أكاديميٍ.

يزن وليلى وجود: بناء الخوارزميات وإيجاد الحلول.

جُمان وآدم: برمجة وكتابة الكود اللازم لكلِّ ما يقترحه يزن.

عمر: فحص الكود وأخذ النتائج وتشغيل التجارب بمعطياتٍ مختلفةٍ وتدوين النتائج والملاحظات وعرضها للمناقشة، إضافةً إلى تنسيق مواعيد للنقاش ولطرح الأفكار البديلة والمشكلات التي تواجهنا.

إذن سأعمل في البرمجة أنا وآدم، كوني الأكثر حذراً على المعايير البرمجية، وكون آدم الأسرع والأكثر ذكاءً في البرمجة، ولديه خبرة لا بأس بها بالتعامل مع مشكلات البرامج ونُظُم التشغيل المختلفة.

بعد أن قُسِّم العمل، جلس كلٌّ منَّا مع شريكه في العمل، وأعطتنا الآنسة سارة جدولاً لساعاتٍ محدَّدةٍ يكون فيها أحد المخابر متاحاً لنا للعمل فيه، وبذلك نستطيع التركيز بشكلٍ أفضل بما أنَّ عددنا كبير ونحتاج إلى مكانٍ مناسبٍ لنعمل فيه بجدٍّ، وقبل أن نفترق وضعنا أنا وآدم المخطَّط والنقاط الرئيسة لعملنا.

وحين عدت إلى البيت فتحت هاتفي، ونظرت إلى اسمه الذي بات يُزيِّن قائمة الأسماء عندي، فسألت نفسي: ترى هل سنتبادل يوماً المشاعر ذاتها، كما تبادلنا أرقام هواتفنا اليوم؟

آدم أكتوبر 2007– السنة الخامسة

- آلو جُمانا!
- أهلاً آدم.
- جُمانا، أنا آسف يبدو أنِّي لن أستطيع القدوم اليوم، سأرسل إليكِ الكود لدمجه، إن حصلت أي مشكلات أخبريني بها.
- حسنا، لا بأس.

من الجيِّد أنَّها لم توبِّخني، لم أكن أودُّ الذهاب إلى الكليَّة في ذلك اليوم. لم تمر خمس دقائق حتَّى اتَّصلت بي جُمانا وقالت:

- مرحباً آدم.
- هلا!
- إنَّ الكود مليء بالمشكلات، حاولتُ حلّها قدر الإمكان، لكن لم أستطع تصحيحها بالكامل، لذا فلم أستطع تشغيل الكود.
- حسناً، انتظريني سآتي إلى الكلية ونرى ما يمكننا فعله.
- سأكون بانتظارك.

وانطلقتُ مباشرةً إلى الكليَّة، لم أستغرب أنَّ مشكلات الكود متفاقمة، فقد كتبت البرنامج بشكلٍ متسرِّعٍ، لأنِّي فقط أودُّ إنهاءه بأقصر مدَّة.

حين وصلتُ إلى المخبر وجدت جُمانا تعمل بجدٍّ، وبعد أن ألقيت عليها السلام وجلست لأبدأ النقاش معها حول الأخطاء البرمجية، توقَّعت أنَّها ستستعرض أخطائي وتُملي عليَّ الطريقة الصحيحة للبرمجة، لكنَّها ابتسمت ابتسامةً بسيطةً وقالت لي بشكلٍ مفاجئٍ:

- تريد أن تنهيَ عملك بسرعةٍ مع أنَّك تستطيع أن تُتقنه أكثر، هل أنت غير ممتنٍّ لوجودك في مجال الهندسة؟

أبديتُ استغرابي من تعليقها، وأجبتها:

- شيءٌ من هذا القبيل، أحياناً أعمل بجدٍّ وإتقانٍ، لكن تأتي عليَّ بعض الأوقات أشعر فيها بثقلٍ كبيرٍ ومللٍ قاتلٍ.

نظرتْ إليَّ بهدوء وهي تستمع لما أقول ولم تجب، فأكملتُ كلامي:

- ربَّما لا تستطيعين فهم شعوري، وتعتبرينه ساذجاً، لكنَّها الحقيقة، تختلف مشكلاتكم أنتم الأوائل عن مشكلاتنا، وطموحاتكم وآمالكم، كلُّ هذا يختلف كليَّاً عنَّا.

أمالت رأسها قليلاً لتستعدَّ للكلام وأجابتني بهدوء:

- تشعرني كما لو أنَّنا من كوكبٍ آخر، لا تحكم علينا بصيغة التعميم، ثمَّ إنِّي أفهم مشكلتك، فقد عشت تفاصيلها في سنتي الأولى.
- كيف ذلك؟
- أمضيتُ سنةً دراسيَّةً كاملةً في كلية الطب، ومن ثمَّ انتقلت إلى الهندسة.

هنا صرختُ بأعلى صوتي وأنا أضرب كفِّي بجبهتي:

- تركت كلية الطب كي تدرسي الهندسة؟

ضحكتْ وهي تجيبني:

- هل صدَّقت الآن أنِّي أعرف مشاعر الضياع؟
- لماذا فعلتِ ذلك؟
- كان حلم والديّ أن أسير على خطاهما وأن أدرس الطب، أمَّا أنا فما أحببته يوماً، ولطالما كانت دراسة الرياضيات والتبحُّر فيها هي شغفي وحلمي، أتصدِّق؟ لم أستطع الإفصاح عن رغبتي تلك، لذا اقترحت حلَّاً وسطاً وهو دراسة الهندسة، لذا حين انتقلت إلى هنا كان علي أن أتفوَّق في دراستي حتَّى أثبت لهما

صحَّة قراري، ولكي يتسنَّى لي الحصول على قبولٍ من جامعةٍ مرموقةٍ في ألمانيا، للعودة إلى هناك واستكمال الدراسات العليا.

- العودة! هل كنت هناك يوماً؟

- نعم، في أيَّام طفولتي المبكرة، كان والداي يختصَّان في دراسة الطب في ألمانيا، هناك حيث وُلِدت وقضيت أيَّامي حتَّى سنِّ الثامنة، ثمَّ قرَّرت عائلتي أن حان وقت الاستقرار في الوطن.

وهنا، هدأتُ ونظرتُ باتِّجاهٍ آخر وأعتقد أنِّي سهوت قليلاً، فأنا لا أحبُّ بالعموم الحديث عن الأحلام والشغف، سألتني:

- آدم، هل أنت بخيرٍ؟

فأجبتها:

- نعم بخيرٍ، لكن حديث الشغف يطرق ذكرياتٍ لا أحبِّذ استرجاعها.
- أنا آسفة!
- لا عليكِ، فالأمر ليس بهذا السوء.

انتظرتها لتسألني أكثر، لكنَّها لم تفعل. أكملنا بعدها العمل، ودمجنا السطور البرمجية، وفي وسط العمل قلت لها وأنا أكتب على لوحة المفاتيح:

- إنَّها كرة القدم.

نظرتْ إلي وقالت:

- يوماً ما ستجد وقتاً لها، وليس بالضرورة أن تحترفها.
- كنت أعشق كرة القدم، مارستها منذ طفولتي إلى أن أتى اليوم الذي عرض عليَّ فيه مدرِّبي الاحتراف لأنَّه وجد عندي الموهبة. في ذلك اليوم ذهبت إلى والدتي وكأنِّي عثرت على كنزٍ، وكانت فرحتي لا تُصدَّق، لكن حين أخبرتها ورأيت ردَّة فعلها كانت خيبة أملي لا توصف. ما أزال أذكر كيف أجابتني بأنَّها لا تحلم أن تراني لاعب كرة قدم، وكذلك لن تسمح لي بالاحتراف لأنَّ ذلك سيؤثِّر على مستقبلي الدراسي.
- ألم تناقش الأمر معها؟
- بلى، فأنا لم أستسلم بسهولة، لكنّها وحين رأت إصراري الشديد، أوكلت مهمّة إقناعي لأخي الكبير، الذي استطاع في نهاية المطاف أن يقنعني بوجهة نظر والدتي، فتخطيت الأمر لكن

بصعوبة، وها هي ذي أمِّي إلى الآن تقلق إن ارتديت ملابس كرة القدم، بربِّك أهذا عدلٌ؟!

لم تجبني، فتنهَّدت وقلت:

- دعينا نعود إلى الكود، أين كنَّا؟

وأشارتْ إلى السطر الذي كنت أعدِّله.

- مع مرور الوقت أجد نفسي أتعلَّق به أكثر وأكثر، لا أدري إن كانت مشاركتي له في العمل نعمة أم نقمة؟ جود! لماذا لم تساعديني على التخلُّص من مشاعري تجاه آدم كما فعلت معك حين بدأتِ بالإعجاب بأُسَيد؟

سألتها بينما كنَّا نمشي في المول التجاري الكبير في مركز المدينة خلال عطلة نهاية الأسبوع، فأجابتني:

- وبماذا سأساعدك أو كيف سأنصحك؟ لا تشبه حالتك حالتي إطلاقاً.
- وما الفارق برأيك؟
- نحن شخصيَّتان مختلفتان، وآدم وأُسَيد كذلك، ولا نستطيع تعميم أي حالةٍ على الأخرى.
- لكنَّها مشاعر من طرفٍ واحدٍ.
- جُمان، اسمعيني، حين أعجبتُ بأُسَيد حاولت فعل أشياء بسيطة علَّها تلفت نظره، كنت أتتبَّع أخباره، وكتاباته، وكلَّ ما يصدر عنه، وأُأَجِّج مشاعري بيدي، حتَّى طريقتي في القراءة والكتابة

تغيَّرت. أنتِ حين أُعجبت بآدم لم تتغيَّري إطلاقاً، حتَّى أنَّك لم تحاولي التقصِّي حول ما يتعلَّق به، أُتيحت لكِ فرصٌ كثيرة لتسأليه وتطيلي الحديث معه، أتذكرين حين تحدَّثتما عن الشغف، وأخبركِ عن حلمه الضائع؟ أتذكرين كيف اقتضبت الكلام ولم تسترسلي؟ أرى أنَّك تضبطين الأمور بشكلٍ جيِّدٍ، وما من شيءٍ أنصحك به تستطيعين فعله لتنسيه، فوقتك منذ البداية ممتلئٌ بالكامل، كما أنَّ آدم مختلفٌ جدَّاً عن أُسَيد. لا تنسي أنَّ أُسَيد رآني زميلةً له لا أكثر ولا أقل، ولم يكن هنالك أمل في أن تتغيَّر مشاعره تجاهي، ولولا ذلك لما كنت لأستسلم بهذه السهولة، بينما في حالة آدم هو لم يلحظك بعد، ولعلّه سيلاحظك مع الأيَّام لأنَّ فتاةً مثلك يستحيل أن تمرَّ في حياة شخصٍ من غير أن يذكرها أو يلاحظها.

- أتعتقدين ذلك حقَّاً؟

سألتها وأنا متفائلةٌ بطريقة تحليلها للأمور، فأجابتني:

- لا تنسي، لكلِّ إنسانٍ قصَّته الخاصَّة، وهو بطلها.

أعطاني كلام جود دفعةً معنويَّةً كبيرةً كي لا أتوتَّر، وبينما كنت أفكِّر، سألتني جود رغم محاولاتها بالتغلُّب على نفسها ومقاومة إغراء الشراء:

- انظري إلى هذه الحقيبة، جميلةٌ أليست كذلك؟
- لديك شبيهتها!
- لا، هذه مختلفة.
- وما الاختلاف؟
- هذه أصغر وأكثر أناقة، وألوانها متناسقة بشكلٍ أفضل.

أجبتها بذهولٍ ودهشةٍ:

- نعم، تبدو كذلك.
- ألم أقل لك؟ إذن دعينا ندخل ونسأل عن سعرها.

مضت فلم ألحق بها بل بقيت في مكاني أنظر إلى الطابق الأول من مكاني حيث أقف، وحين لم تجدني عادت إلي وسألتني:

- جُمان ما بك؟
- انظري هناك من غير أن تتحرَّكي كثيراً!

أدارت جود وجهها فرأت ما رأيت، آدم ومعه فتاة، يتبادل معها الحديث ويضحك، سألتني جود وهي تنكزني:

- من هذه الفتاة؟

فأجبتها:

- من أين لي أن أعلم؟
- ويح قلبي، لا يشير المنظر إلى خير، ماذا تفعل معه هنا؟
- ماذا تقصدين، من تكون برأيك؟
- وما أدراني! لكنَّها جميلة، ولطيفة.
- ربَّما تكون أخته!
- ليس لآدم أي أخت.
- أشعر بالفضول لأعرف من هي.

وما إن أنهت جود جملتها حتى لاحَظَنا آدم من بعيد، فلوَّح لنا وهو يبتسم، فرأيته بعيداً، بعيداً جدَّاً، ليس بالمسافة فقط، بل بكلِّ شيءٍ، وانتابني شعورٌ مؤلمٌ.

كم أنا قريبةٌ منه في قلبي، بعيدةٌ عنه في كلِّ ما سواه!

كانت الفتاة جميلةً، متوسِّطة الطول، محجَّبة بطريقةٍ لطيفةٍ، ويبدو عليها المرح والإشراق. مضينا ونار الغيرة قد اشتعلت في قلبي وعاصفةٌ من الظنون راحت تدور في رأسي، وحين انتهينا من موعدنا ودَّعت جود وركبت سيارة أجرة كي أعود إلى المنزل، وبينما كنت أتأمَّل الطريق

رحت أفكِّر بكلام جود، وأقول لنفسي: أخشى أن تكون تلك الفتاة بطلة قصَّته وتبقى قصَّتي ببطولةٍ فرديَّةٍ!

آدم

نوفمبر 2007– السنة الخامسة

مرَّ شهران على بدء الفصل الدراسيِّ والجميع يعمل بجدٍّ في مشروع التخرُّج، فعمر يدير الأمور بشكلٍ مهنيٍّ لافتٍ للنظر. وأُسَيد يسجِّل ويكتب ويدوِّن ويبحث، أمَّا أنا وجُمانا فلدينا مهمَّات برمجيَّة كثيرة، وجُلبَت الشريحة التي يتوجَّب علينا العمل عليها، ورغم أنَّ الأمر قد بدا ممتعاً، إلا أنَّ الصعوبات ازدادت.

اعتدنا منذ مدَّةٍ أن نلتقي جميعنا في المخبر ونعمل في المشروع، واعتادت جُمانا أن تجلب لنا بعض الأطعمة الخفيفة، فوالدتها تسافر كثيراً إلى أوروبا لحضور مؤتمراتٍ طبيَّة، وحين تعود تجلب لها في كلِّ مرَّةٍ بعض الحلويات والشوكولا الفاخرة.

- صباح الخير.

دخلتُ وأنا ألقي السلام على الفتاتين، فأجابتني جود –التي كانت برفقة جمان لهذا اليوم– وهي تختار بعض قطع الشوكولا:

- صباح النور، أهلاً آدم!
- وماذا أحضرتِ لنا اليوم جُمانا؟

سألت وأنا متوجِّهٌ نحو الطاولة، فأجابتني جُمانا:

- شوكولا بجوز الهند.
- هل نبدأ بالعمل؟

سألت جُمانا وأنا ألتهم ما بيدي بسرعةٍ كي لا أزعجها بصوت الطعام، أجابتني جُمانا:

- نعم!

وما إن أنهيت بلع ما في ثغري حتَّى شرِقت به من كثرة استعجالي، وبدأت بالسعال، لا بدَّ وأنَّها قطعةٌ صغيرةٌ من جوز الهند قد تسلَّلت إلى قصبتي الهوائية.

- أتحتاج إلى كأسٍ من الماء؟

سألتني جود، فقلت لها:

- لا شكراً.

وهنا اتَّصلت بي والدتي، أجبتها وما تزال نوبة سعالي متواصلةً لكن بتواترٍ أخف عمَّا كانت عليه:

- هلا وغلا.
- ما بك؟ لِمَ تسعل؟ آدم، هل عدت للتدخين؟

قالتها كما لو أنِّي أنفث سيجارتي أمامها، أجبتها وأنا أتململ:

- لا يا أمي لم ولن أعود، صدقيني!
- بل عدت.
- صدِّقيني لم أدخِّن.
- أنت تقول لم أدخِّن وفي سرِّك تكمل جملتك بكلامٍ آخر.
- وهل أنا طفلٌ صغير؟ واللهِ لم أعد إلى التدخين.
- كفاك يا ولد، لا تحلف كذباً!
- أمِّي، أرجوك لديّ مهمَّات كثيرة، زملائي ينتظرونني، دعينا نكمل جلسة المحكمة في المنزل، اتفقنا أيُّها القاضي؟
- آدم، أرجوك لا تدخِّن!
- لن أفعل، قلت لكِ لن أفعل، أراك مساءً، أحبُّك.

أغلقت هاتفي وأنا أتنهَّد بقوَّةٍ. كان صوتي يملأ المكان، وسمعت الفتاتان كلَّ المحادثة، فقالت لي جُمانا:

- لو أنَّك أنهيت سعالك ومن ثمَّ أجبتها، كنتَ تجنَّبت سوء الفهم. أما تزال والدتك قلقةً حول عودتك إلى التدخين؟

- نعم، لقد توقَّفتُ عن التدخين لأجلها، كانت تبكي بسبب هذا الموضوع، ولم أعد أستطيع رؤية دموعها.
- هل الإقلاع عن التدخين بهذه الصعوبة؟
- نعم، مثل أي نقطة ضعف في حياة المرء.

وفي تلك اللحظة، استأذنت جود للمغادرة، ثمّ مضت، أمَّا أنا فعادت إليَّ نوبة السعال.

- أتعلمين؟ حين كنت في المستشفى، اتَّفقتْ أمِّي مع الطاقم الطبي كي يمنع عنِّي التدخين، تظاهرت بأنّي لا أعلم شيئاً، وبقيت صامتاً كي لا أزعجها، لم أكن أريد زيادة همّها.
- والدتك رائعة.
- لكنَّها ومع ذلك قاسيةً علي في بعض الأحيان.
- لأجل مصلحتك.
- أعلم، لكن يلعب الأسلوب دوراً مهمَّاً، وأنا بالذات لا تنفع القسوة معي إطلاقاً، أتذكرين كم كنت أُوبَّخ من الأساتذة في الكلية، لكن في المرَّة الوحيدة التي تحدَّث معي بها الدكتور قيصر كانت طريقته رائعة، وأثَّر أسلوبه في نفسي أكثر من كلماته.
- نعم، إنَّه مميَّزٌ جدَّاً.

- ليس هذا فقط، حين كنت في المستشفى، سأل عنِّي وأرسل إلي الورود باسم القسم، ما هذا الرقي؟!
- في نهاية المطاف، أنتَ طالبٌ في قسمه.
- لكنِّي لست مميَّزاً بشيءٍ، لست من الأوائل، ولست من أهل المحسوبيات، لست من أغنياء القوم أو أعلاهم نَسَباً، أنا طالبٌ عاديٌّ جدّاً، لكنَّ الدكتور قيصر عادل، ويتعامل معنا بطريقةٍ واحدةٍ، ولا يلتفت إلى المظاهر.

عدت إلى الحاسب وأنا أفكِّر بما سردته للتو حول نقاط الضعف، وكيف يحكم الناس على المرء، ويتعاملون معه ولا يعلمون ما يعاني من اضطِّراباتٍ في نفسه، وفي وسط العمل حدَّثت نفسي وأنا أفكِّر بصوتٍ مرتفعٍ:

- نحن لا نعلم ما يخفي كلُّ امرئٍ في قلبه، والظاهر هو الظاهر.

تظاهرت جُمانا بأنَّها لم تنتبه إلى ما أقوله، لكنِّي رأيتها وهي تكتب على دفترها تلك العبارة: "الظاهر هو الظاهر".

سعدتُ بعبارتي الاعتباطية التي كتبتْها على دفترها، رغم أنِّي لم أفهم ما المميَّز بتلك العبارة بالضبط!

كنَّا نعمل بجدٍّ حين دخل أُسَيد إلى المخبر كي يتحدَّث إلى آدم، لم يطل كثيراً وذهب بعد عشر دقائق. أخفض آدم صوته وهو يقول لي:

– نسي أن يأخذني معه إلى الصلاة، على غير عادته.

قلت له:

– إن كنت تودُّ الذهاب سأنتظرك، لا بأس.

– نعم، عليَّ أن أذهب لكنِّي متكاسلٌ عن الوضوء.

وضحك، ثمَّ أكمل كلامه:

– آهٍ من الكسل، أنتم المجتهدين لا تعانون كما أعاني، تلتزمون بمواعيدكم ومخطَّطاتكم بسهولةٍ، أمَّا أنا فعلى العكس.

صمت قليلاً ثمَّ أكمل:

– أعلم أنَّه يتوجَّب عليَّ احترام موعد الصلاة فهو لا يشبه المواعيد الأخرى.

تفكَّرت بما يقول، ولامس كلامه قلبي، فأنا أحترم المواعيد بشدَّةٍ مع الناس، فكيف أتهاون بمواعيدي مع ربِّ الناس؟! ومع أنَّه لم يقصد توجيه الكلام إلي، إلا أنِّي شعرت بالخجل الشديد، ولم أعلم كيف سأجيبه، فقال لي وهو ينظر ببراءة:

- آسف جُمانا، لم أكن ألِّمح لأيِّ شيء!

تفاجأت من ردَّة فعله وكأنَّه شعر بي، نظرت إلى عينيه وهو يحاول استقراء حالتي بترقُّبٍ، وكدت أن أهيم بنظرته تلك، فأدرت وجهي وأجبته:

- لا بأس!

وبعد نصف ساعة من العمل، قلت لآدم:

- آدم، هنالك أمرٌ عليَّ فعله، أأستطيع أن أستأذن لنصف ساعة؟
- بالطبع!

استأذنته وقرَّرت التوجُّه لأداء الصلاة، كلُّهم يصلُّون، عمر يصلي، ويزن يصلِّي، وحتَّى ليلى! رأيتها أكثر من مرَّة تذهب إلى مصلَّى الفتيات، ويبدو أنَّ تأثير يزن قويٌّ عليها لدرجةٍ كبيرة. نعم كلّهم يصلُّون، إلا أنا ما أزال أتهاون في الفروض، ورغم أنَّ جود تحاول ألا تتدخَّل بهذا

الموضوع بالتحديد، إلا أنَّها وفي الآونة الأخيرة بدأتْ بالتمليح إليه، فهي تريد مصلحتي وأصبحت علاقتنا عميقةً لدرجة تعطيها الصلاحية بأن تحدِّثني مباشرةً حول الأمر، ومع ذلك يبدو أنَّها تفضِّل أن تمنحني مزيداً من الوقت لأكون مستعدَّة.

انطلقت إلى المرافق العامَّة للكلية، حاولت جاهدةً أن أتوضأ، فاكتشفت أنَّ الأمر ليس سهلاً، فأنا أحمل أشياء كثيرة، لمت نفسي وأنا أقول ليتني تركتهم في المخبر، وبعد عشرين دقيقة من الارتباك والمحاولات تمَّ الوضوء بنجاح، فانطلقت إلى الغرفة المخصَّصة للصلاة، وتذكّرَت أمراً مهمَّاً.

كيف سأصلي وليس بحوزتي أي شيء أغطي به رأسي؟ فأنا لا أستطيع استخدام أغطية الصلاة التي في المصلى، يستحيل أن أضعها على رأسي وقد استخدمتهنَّ قبلي المئات. بحثت عن شالٍ في حقيبتي، فلم أجد وذهبت كلُّ محاولاتي سدىً، اتَّصلت بجود كي تجد لي حلَّاً، لكنّها لم تجب على هاتفها، فقرَّرت العودة إلى المخبر وإكمال العمل، وقلت في نفسي: محقٌّ هو آدم، موعدٌ مع الله، كيف سأذهب وأنا لم أتهيَّأ له، هو ليس كأيّ موعدٍ؟!

حزنت لسوء حظِّي وبينما أنا عائدة إلى المخبر رأيت آدم في الساحة الخارجية للكلية من خلال النافذة، يقف مع فتاةٍ لا تبدو بأنَّها من الكلية. كانت الفتاة تبكي ويحاول آدم تهدئتها، وحين أمعنت النظر إليها، استطعت تذكُّرها، هي الفتاة نفسها التي رأيتها معه سابقاً في المركز التجاري الكبير في مركز المدينة.

ماذا بينهما حتَّى تبكي أمامه هكذا؟ وماذا يقول لها؟

بدأت الأفكار تأخذني يميناً وشمالاً، وبعد عشر دقائق اتّصلت به وقلت له بنبرةٍ غاضبة:

- آدم! هلَّا توقفنا اليوم عن العمل، ونكمل في الغد؟

أجابني بكلِّ برودٍ:

- حسناً كما تشائين.

ازداد غضبي من ردّه، فغادرت بسرعةٍ، أردت الانسحاب وعدم رؤيتهما، لكنِّي تعمَّدت حين خرجت من الكلية أن أمرَّ أمامهما، وكما هو متوقَّع، لم ينتبها إطلاقاً!

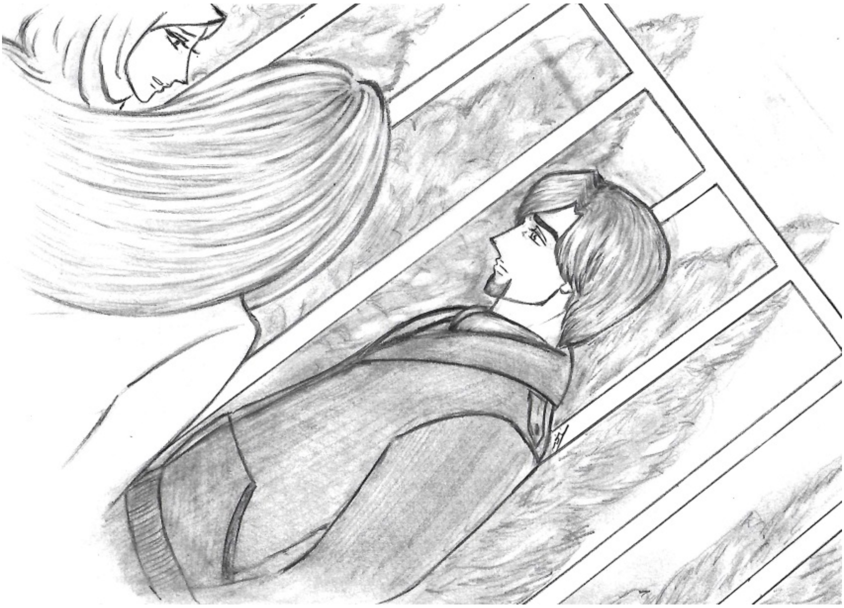

آدم ديسمبر 2007– السنة الخامسة

كنت متّكئاً على الأريكة في غرفة الجلوس، أحتسي كوباً ساخناً من السحلب، حضّرته لي والدتي وجلست بجانبي تراقبني كي أدرس للمادة التي لم أنجح بها العام الماضي، لم أعلّق على ما يجري حولي، وعلى معاملتها لي كطفلٍ، ورحت أقلّب في دفتر عمر الذي أعارني إيّاه لعلّي أستفيد من ملاحظاته، وبينما أنا على وشك النوم من شدَّة الملل، وجدت بضعة أبياتٍ لنزار، كتبها عمر على إحدى صفحات الدفتر بخطٍ مرتَّبٍ:

يا أحلى امرأة بين نساء الكون أحبّيني..

يا من أحببتك حتّى أحترق الحبّ أحبّيني..

وعلى غير العادة، لم أسخر منه ولم أنعته بالمسكين، بل توقّفت عند تلك الأبيات لبرهة، وتأمّلتها. لطالما أحببت سماع الأغاني، لكنّي لا أعير انتباهاً لكلماتها، بل يلفتني صخبها، وضجيجها، وحماستها. سألت نفسي: كيف يحترق الحب؟ أهو سحلب؟!

ضحكت ووجّهت حينها سؤالاً لوالدتي، فقلت لها:

- أمّي، هل يحترق السحلب؟

لتجيبني والدتي وهي تملأ كوبي للمرَّة الثانية:

- نعم يحترق، وبتعبيرٍ أدق يُصبح لاذعاً بعض الشيء، والبعض يفضِّلون ذلك المذاق الخاص، فيتعمَّدون إحراقه.
- أمِّي هذا كثير، أرجوك لقد شبعت.
- العقل السليم في الجسم السليم، تغذَّ جيداً، يجب أن تتخرَّج هذه السنة مع أصدقائك، أرجوك لا تتكاسل، وركِّز في دراستك.

تنهَّدت وقلت في نفسي: كيف سأركِّز مع هذا الدفتر؟! لطالما استعرت دفاتره المليئة بالعبارات المنمَّقة، والأبيات المختارة بعنايةٍ، فعمر خطّاط من الطراز الرفيع، لكن ما بالي تلفتني تلك الأشياء الآن على غير العادة!

- جُمان، كيف حالك؟
- أهلاً جود، أنا بخيرٍ الحمد لله.
- لقد جلبت لكِ الخبر اليقين.
- ماذا تقصدين؟
- الفتاة التي كانت مع آدم.
- هل عرفتِ اسمها؟
- عرفت اسمها، وأصلها، وقصتها وطبيعة علاقتها مع آدم.

ارتجف قلبي، فسألتها حالاً:

- أهيَ حبيبته؟
- لا لا، اطمئنِّي.
- هل أنتِ متأكِّدة؟
- أقسم لكِ إنَّها ليست حبيبته.
- وكيف عرفتِ؟
- دعيني أخبرك بالقصة كاملة.
- أنا أسمعك، هاتي ما عندك.

- عندما أخبرتِني عن زيارتها للكلية، وعن مدى قلقك حيال الأمر، لم أستطع أن أقف مكتوفة الأيدي، وعزمت أن أبحث حول الموضوع.
- حقّاً؟ ما أروعك يا جود!
- هل تظنِّين أنِّي سأتركك تعانين دون مساعدتك؟ ألستُ صديقتكِ؟ كيف أراكِ حزينة ومهمومة ولا أتحرَّك؟
- لكنِّي لم أساعدك بشأن أُسَيد على مدى السنوات الماضية!
- يكفي أنَّك كنتِ تسمعين شكواي، على أي حال لا تشغلي بالك بتلك القصة الآن، ألا تريدين معرفة اسمها؟
- بلى.
- اسمها رشا.
- كيف عرفتِ، أخبريني؟
- قابلت آدم في إحدى المرَّات يقف مع ليلى، فألقيت عليهما السلام، وفي سياق الحديث معهما، سألتُ ليلى عن مدرستها الثانوية، ومن ثمَّ سألته عن الفتاة بشكلٍ غير مباشر، فقلت له: هناك فتاة ليست من كليتنا، رأيتها تقف معك، أشعر كما لو أنَّ وجهها مألوف، يا تُرى هل كانت معي المدرسة؟! هل تعلم أي مدرسة ارتادت في الثانوية؟

- يا لكِ من ماكرة.
- أنا لم أكذب!
- أعلم، وماذا قال؟
- قال لي إنَّ اسمها رشا وهي ابنة عمَّته، تدرس في كلية الآداب، وهي بنفس عمرنا تقريباً، وذكر لي اسم مدرستها، التي بطبيعة الحال ليست مدرستي، فأخبرته بذلك وأنهيت حديثي معه بجملة "يخلق من الشبه أربعين".
- لكن قد تكون ابنة عمَّته وحبيبته في الوقت ذاته؟ ما الذي يمنع الأمر؟
- انتظري لم تنتهِ القصة بعد.
- ماذا فعلتِ؟
- صديقتي تدرس في كلية الآداب، التقيت بها اليوم، وخلال حديثنا، سألتها عن رشا، ولحسن الحظِّ أنَّها فعلاً بالدفعة ذاتها، فقلتُ لصديقتي إنَّ رشا قريبة زميلٍ لنا في الكلية، وشيئاً فشيئاً فهمت الوضع بدقَّةٍ.
- وما هو؟
- الفتاة تحبُّ شخصاً آخر، خمِّني من هو؟
- لا أعلم، قولي فقط.

- تحبُّ يمان.
- ومن هو يمان؟
- أخو آدم، ألا تذكريه؟ أتى أكثر من مرَّة إلى الكلية مع آدم بعد الحادث.
- تذكَّرته. لكن مهلاً، كيف استطعتِ الوصول إلى هذه المعلومة؟ كيف سألتِ صديقتك عن تلك التفاصيل؟!
- لم يكن الأمر هيناً، تتطلَّب الأمر كثيراً من اللف والدوران، والأخذ والرد.
- لِمَ لم تخبريني بهذه الخطَّة؟
- خشيت ألا أصل إلى أي معلومةٍ واضحةٍ، فأردت أن أتأكَّد أولاً، لا أريد أن أشغل بالك.
- كم أنتِ رائعة يا جود، لكن أودُّ أن أسألك سؤالاً.
- تفضَّلي!
- لا أجد أنَّ ذلك الأمر نزيهاً، ألا يندرج ما نفعله الآن تحت مسمَّى الغيبة والنميمة وإفشاء الأسرار والتلصص؟ أنتِ تتحرِّين الحلال والحرام جيِّداً، وبسببي أوقعت نفسك في هذا السياق.
- لكنَّني واللهِ ما فعلت ذلك إلا لكي تطمئنِّي.

- وهذا ما يزعجني، وأشعر بتأنيب الضمير.
- حسناً، دعينا نردِّد دعاء المجلس، ولن نكرِّرها ثانيةً.
- وما هو دعاء المجلس؟
- سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألّا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

كرَّرته خلفها ومن ثمَّ ودَّعتها وأغلقت الهاتف، وقلبي يخفق سعادةً.

نعم، كنت متأكِّدةً أنَّها ليست حبيبته.

آدم! لا تنظر إلى فتاةٍ سواي، لا تفعل ذلك مهما حدث.

حضَّرت العشاء وانطلقت إلى غرفته، طرقت الباب بهدوء فأجابني:

- تفضَّل!

مددت رأسي وسألته:

- هل نأكل؟

أومأ إلي بالإيجاب، وأغلق حاسبه المحمول بهدوء ثمَّ تبعني إلى المطبخ، رفعت إبريق الشاي من على النار ووضعته على الطاولة، بينما راح هو يتفقَّد الخبز داخل الفرن، يحبُّ يمان الخبز ساخناً وطريَّاً كما لو أنَّه قد خبز لتوِّه، لهذا كنت قد أشعلت الفرن ووضعت فيه الخبز لأجله، أخذ يقلِّب الخبز يميناً ويساراً بدقَّةٍ واهتمامٍ وسألني:

- أين أبي؟
- في غرفة الجلوس مع صحنٍ كبيرٍ من المكسرات.
- ألا يودُّ مشاركتنا العشاء؟
- ينتظر هناء، لا يستطيع أن يأكل من دونها، أخبرته أنَّ هناءه ستعود متأخِّرة من سهرتها، لكنَّه لم يكترث لما قلت.

ابتسم، ثمَّ سألني:

- هل انتهيت من تقطيع الطماطم؟
- نعم ووفق المعايير القياسية، واحد سنتيمتر مكعب لكلِّ قطعة يا حضرة المهندس.

ضحك وبالكاد أصدر صوتاً، ثمَّ أخرج الخبز من الفرن ووضعه على الطاولة، وجلس يعاين المنتج: صحنٌ كبيرٌ من الزبادي كامل الدسم، تغطيه قطع الطماطم الوفيرة ونهر من زيت الزيتون، مع رشَّة نعناعٍ مجفَّف، إنَّه عشاؤنا المفضَّل، اعتدنا أنا ويمان منذ صغرنا أن نحضِّر العشاء عندما لا تكون والدتنا في المنزل، فأمِّي اجتماعية وبرنامجها مزدحمٌ دوماً بالزيارات التي لا بدَّ منها. سألني وهو يصبُّ الشاي:

- كيف هي امتحاناتك؟
- الحمد لله، مادتان وأرتاح من هذا الفصل.

لم يعقِّب، وبدأ بطعامه، وبعدما التهمنا ثلاثة أرغفة، أشار إليّ بيده كي أسخِّن المزيد. وضعت الخبز في الفرن وجلست أمامه القرفصاء أنتظره أن يسخِّن، فشعرت أنَّ الفرصة مناسبة لفتح الموضوع معه، تنهَّدت وقلت له:

- بالمناسبة، لقد قابلت رشا منذ فترة.

لم يرد، كنتُ مواجهاً للفرن وغير قادرٍ على رؤية وجهه، لكنِّي سمعته وهو يدقُّ الطاولة بكوب الشاي متعمِّداً بذلك إصدار صوتٍ حادٍّ ومفزعٍ، كما لو أنَّه يستعدُّ لمواجهةٍ عنيفةٍ. يعلم يمان أنِّي أشعل بقولي ذلك فتيل الجدال بيننا. انتظرت بضع دقائق ومن ثمَّ أخرجت الخبز من الفرن، وجلست قبالة يمان مجدَّداً، وبعد دقيقة صمتٍ سألني:

- أهيَ التي طلبت مقابلتك؟ أم التقيتها بالصدفة؟
- اتَّصلتْ بي والتقينا في ساحة الكلية.
- ممم، فهمت.

وحين لم يكمل كلامه، قلت له:

- ماذا فهمت؟! ألن تسألني عمَّا دار بيننا؟
- لا، لن أفعل.

استشاطت أعصابي غضباً، ولم أتمالك نفسي، فرفعت صوتي وأنا أقول له:

- يمان! لم تعد الفتاة تعلم كيف تتصرَّف، يتقدَّم الشبَّان لخطبتها بينما تضطَّر هي إلى رفض الجميع، بات موقفها صعباً للغاية، لماذا لا تريد أن تفهم؟!

واصل طعامه وكأنَّ الأمر لا يعنيه وهو يجيبني ببرودٍ:

- لم يتغيَّر شيءٌ على الإطلاق، فعمَّتك تستقبل لها الخاطبات منذ أن كانت تلميذةً في المدرسة.
- لكنَّها الآن في السنة الرابعة، وعلى أبواب التخرُّج، لقد كانت تتذرَّع بدراستها في السابق، أمَّا الآن فماذا عساها أن تفعل؟ هلَّا أخبرتني!
- فلتتزوَّج، ولتفعل ما تشاء، فهي حرَّةٌ طليقةٌ.
- حرَّةٌ طليقة؟! أنا لا أفهم! لِمَ تقعون في الحبِّ إن كنتم لا تملكون الشجاعة للدفاع عنه؟!

توقَّف عن تناول الطعام ورفع وجهه ونظر لعيني مباشرة:

- وكيف سأدافع عنه إن كان أبوها قد رفضني؟! ألا ترى كيف وضعني في موقف المنهزم ولم يترك لي المجال لفعل شيء؟! هل تظنني سعيداً بما أنا فيه؟ ها أنا ذا أنتظر بلا جدوى عاجزاً عن الإتيان بأي حلٍّ، أخبرني! ماذا علي أن أفعل إن كان أبوها يرفض زواج الأقارب رفضاً قاطعاً؟ ألا تسمعه وهو يكرِّر كلامه ذاك في كلِّ مرَّةٍ نجتمع بها؟ ماذا تتوقَّعون منِّي أن أفعل؟ هل أجبره على أن يغيِّر مبادئَه؟ أم أختطف ابنته وأهرب بها؟ آدم، لا فرصة لي مع رشا، افهم هذا جيِّداً! لقد أغلق أبوها كلَّ الأبواب في وجهي، وعليها هي أيضاً أن تدرك ألّا أمل في

ارتباطنا، أنا لا أتخلَّى عنها بمحض إرادتي ورغبتي، ليتها تتزوَّج وتنهي هذه المهزلة.

- ولِمَ لا تتزوج أنتَ؟

- لا يوجد ما يدفعني لفعل ذلك.

عاد يستكمل طعامه وقد قطب حاجبيه واكتست ملامحه بالحزن، ثمَّ استدرك حديثه وهو يتحاشى النظر إليّ

- إن أصبح الانتظار مرهقاً للغاية، فأخبرها ألّا تكترث بي، ولتلتفت لمستقبلها وحياتها، فتختار شريكاً مناسباً لها، وصدِّقني سأكون أوَّل من يدعمها...

قاطعته وأنا أدقُّ الطاولة براحتي وأجيبه باستهزاءٍ:

- وستزفها إلى عريسها وتبارك لهما زواجهما... هلَّا توقَّفت عن هذا الهراء حالاً!

رفع يمان عينيه ولم يرد على استهزائي بعصبيةٍ وإنَّما بهدوءٍ مشوبٍ بالحزن:

- آدم، أريد أن أراها سعيدةً، أنا جادٌّ فيما أقوله، إنَّني أتألَّم كثيراً حين أفكِّر بما تعانيه رشا، وأخشى عليها من الناس، نحن في مجتمعٍ لا يرحم، ماذا إن شاع عنها أنَّها مغرمةٌ بابن خالها، وأنَّ

أباها يعارض زواجهما، ألا تدرك ماذا سيترتَّب على ذلك؟ آدم! أنت لا تعلم ماذا تعني لي رشا.

قالها ورفع كفيه يمسك بصدغيه ويعتصرهما بقوَّةٍ بعدما فاجأني بكلامه، لم أتوقَّع أن يبوح لي يمان بما في قلبه إلى هذا الحد، آلمني وضعه، فقلت له بنبرةٍ هادئةٍ:

- لكنَّك لم تطلب يدها إلا مرَّةً واحدة.

أنزل يديه ورفع رأسه مجدَّداً وأجابني بانهزامٍ:

- وما الذي سيفيد؟ سأبقى ابن خالها، حتَّى لو طلبتها مئة مرَّة.
- والحل إذن؟
- آدم، دعني وشأني أرجوك.
- ليتني أعلم لماذا هي متمسِّكة بك إلى هذا الحد؟ لا يليق بك الحبُّ، هل تعلم ذلك؟

وكما توقَّعت، لم يعجبه الكلام ووصلنا إلى طريقٍ مسدودٍ. رمى يمان ما كان في يده من خبزٍ ونهض دون أن يكمل عشاءه وهو يقول:

- لقد أحرقتَ الخبز على فكرة، لا تفعل شيئاً لا تجيده.

وعاد إلى غرفته. أعلم أنَّ يمان ليس بحالٍ أفضل من رشا، إنَّه مكسور القلب، ويشعر بالعجز حيال حبّه لها، وللأسف هو يتهرَّب من المواجهة وهذا طبعه، فالتهرُّب باعتقاده أسهل الحلول. لطالما طلبت من أبي أن يحلَّ الموضوع مع عمَّتي بشكلٍ مباشر لكنَّه لا يرغب بأن يُرَد خائباً، وتعتبر أمِّي الموضوع خارجاً عن سيطرتها، أمَّا رشا المسكينة فليس لديها متنفسٌ لما تعانيه سواي، تتقصَّى منِّي عن أخباره، وتخبرني بأنَّها ما تزال تنتظره، لأقف ككلِّ مرَّة عاجزاً عن مساعدتها!

نظّفت الطاولة وغسلت الصحون، ومن ثمَّ جمعت الخبز بعدما يبس ووضعته على حافَّة نافذة المطبخ كي تجده العصافير صباحاً.

تبّاً لتلك الجملة التي يكرِّرها دوماً: "حرَّة طليقة"، هل يظنُّها عصفوراً؟

- ماذا قال لكَ أيضاً؟
- هذا ما قاله فقط.

توقفتْ عن الكتابة، ثمَّ أردفت:

- حسناً شكراً لك آدم، أعلم أنِّي أزعجك دوماً وأقحمك في المتاعب.
- كفِّي عن تمثيل دور الفتاة اللطيفة الآن، وقولي لي: ماذا أنتِ فاعلة؟
- لا شيء آدم، لا شيء، ربَّما سأحاول نسيانه، لا أعلم، تُرى هل سأنجح في ذلك؟ ماذا تعتقد؟
- وما أدراني أنا؟!
- يحتاج الأمر إلى أن أقتلع فؤادي من مكانه.
- ما هذه التراجيديا!
- آدم، لا تسخر منِّي أرجوك.
- آسف!
- لا بأس، والآن أخبرني ماذا كنت تريد؟ قلت لي لديك ما تودُّ الحديث عنه.

- لا أجد الوقت مناسباً الآن، فأنتِ محبطةٌ للغاية، وعلى وشك اقتلاع فؤادك من مكانه.
- آدم، أنا أحذرك، كفاك سخرية، وقل ما عندك.
- تناديني زوجة خالك الآن، سأعود إليك لاحقاً.
- إنَّك تتهرَّب يا لكَ من جبان.
- ههههه.

جُمان

فبراير 2008– السنة الخامسة

انتهت فترة الامتحانات، وأسبوع واحد فقط يفصلنا عن بداية الدوام في الفصل الأخير، ورغم أنَّنا لم نعد نرتبك كما كنَّا سابقاً، وأصبح لدينا خبرة كافية للتعامل مع المواد وتعقيداتها، إلا أنَّنا أصبنا بالإرهاق خلال أيام الامتحانات، لذا قرَّرنا ألّا نستأنف العمل في المشروع على الفور، ونحظى باستراحةٍ قصيرةٍ، وعلى إثر ذلك فأنا لم ألتقِ بآدم منذ وقتٍ طويل، كما لم أتَّصل به، فما نزال نتعامل مع بعضنا البعض بشكلٍ رسميٍ، فلا أنا أعلم أخباره ولا هو يسأل عن أخباري.

كنت أبحث عن بعض المراجع عبر الإنترنت، وإذ برسالة تصلني منه عبر الماسنجر.

- جُمانا، لديّ سؤال.
- أهلاً آدم، تفضَّل!
- أبحث عن ملفَّاتٍ ضرورية لمادة معالجة الصور الطبيَّة، ولا أجدها على جهاز الحاسب، كنت متأكِّداً أنِّي حصلت عليها من يزن، لكنَّها مفقودة.

- لم تصدر نتائج الامتحان بعد، لماذا تودُّ البدء بدراستها منذ الآن؟
- أنا لم أذهب إلى امتحانها أساساً.

قلت في نفسي: كيف ذلك، أذكر أنِّي رأيته في يوم الامتحان، هل يذهب آدم إلى الكلية ليتسلَّى؟! توقَّفت عن أفكاري وأجبته:

- آه فهمت، لا عليك، أكتب لي ما تحتاج إليه بالضبط.

وأرسل أسماء الملفات المطلوبة، فقلت له:

- ستجد هذه الملفات جميعها مرفوعةً على موقع منتدى الكلية.

أرسلتُ إليه الرابط، فأجابني بعد دقيقتين:

- لا أستطيع تحميل الملفات لأنِّي لست عضواً في المنتدى.
- ألم تنشئ حساباً بعد؟!
- أظنني أنشأت واحداً خلال السنوات الأولى لنا في الكلية، لكنِّي نسيت كلمة المرور واسم المستخدم.
- ألا تذكر اسمك؟
- هو اسمٌ مستعارٌ كما تعلمين، لم يكن من الشائع أن نستخدم أسماءنا الحقيقية.

- هذا صحيح، على أي حال، تستطيع أن تنشئ حساباً جديداً، أو اسأل عمر عن حسابك القديم إن كنت تذكر عنوان البريد الإلكتروني، فهو أحد المشرفين.
- فكرة جيدة، شكراً لكِ.

وبعد مرور نصف ساعة، أرسل إلي وجهاً باسماً وكتب:

- "فارس الظلام".

ثمَّ وضع وجوهاً ضاحكة، أمَّا أنا فأسرعت كي أبحث عن ملفه الشخصي، وهنا كانت الصدمة، آدم لم يخفِ عمره في المعلومات الشخصيَّة التي تظهر على الملف، توقَّعت مسبقاً أنَّه قد يصغرني بأشهر، لكن لم يخطر ببالي أنَّ الفارق بيننا كبير. بعد عشر دقائق، وبينما كنت غارقةً في صدمتي، كتب لي:

- حمَّلت الملفات، شكراً لكِ جُمانا!

في العادة حين يناديني بجُمانا أشعر أنَّني مميَّزة عنده، ولكنِّي وللمرَّة الأولى أفكِّر ماذا لو كان بالأصل لا يعرف اسمي الحقيقي؟ اغتظت فكتبت:

- على فكرة، اسمي جُمان، وليس جُمانا!

- حقَّاً! اسمك جُمان؟ يا لهذه الصدفة، فاسم أخي الأكبر يمان، وهو رزين تماماً مثلك، كأنَّ جميع من يملك اسماً على هذا الوزن يملك شخصيَّةً رزينةً ورصينةً، ماذا فعلت لكما النون في آخر الاسم؟

تجاهلت سؤاله الذي زاد غيظي، ثمَّ تنبَّهت أنَّه لم يأخذ من وقته ثانيةً ليتحقَّق من صحَّة اسمي في قوائم العلامات على مدار السنوات السابقة، وفي نفسي تذكَّرت كم أتلهَّف دوماً لرؤية علاماته ومعرفة إن تجاوز مرحلة الخطر أم لا! أمَّا هو فيبدو أنَّه لم ينظر إلى علاماتي قط، ولا يعتريه الفضول إن حافظت على مركزي بين الثلاثة الأوائل أم لا! وإلا لكان أعار انتباهاً لاسمي، وحتَّى الآن هو لم يعثر على ملفِّي في المنتدى ولا يهتمُّ بأن يجده. أكمل كلامه فقال:

- آسف، تبدين مستعجلةً، لا أودُّ أن أعطِّلك، ولا تنسي موعد الغد، لاستئناف العمل في المشروع.

أجبته:

- نعم هذا صحيح، شكراً للتذكير.
- العفو! في أمان الله.
- مع السلامة.

وما إن أنهيت المحادثة حتَّى اتَّصلت بي جود، وحين رددت على الهاتف، قالت جود باندفاعٍ:

- جُمانتي، عندي لكِ خبر جميل جدَّاً.

أجبتها بحزنٍ:

- أمَّا أنا فعندي خبرٌ سيءٌ للغاية.
- ما الأمر؟
- أخبريني أنتِ أولاً.
- حسناً، كنتُ في الكلية منذ قليل، فقابلت آدم، توجَّه نحوي كما لو أنَّه يبحث عن شيء، وبعدما ألقى السلام علي، وتحدَّث عن بعض الأمور المتفرِّقة، سألني سؤالاً رائعاً.
- وما هو ذاك السؤال؟
- قال لي بالحرف الواحد "هل جُمانا في الكلية؟"

ضحكتُ باستهزاءٍ وقلت لها:

- وما الرائع في الأمر؟
- كان يبحث عنك ليراكِ.
- لا بل كان يحتاج إلى ملفَّاتٍ لمادة معالجة الصور.

- إنَّها حجَّة صدِّقيني، لقد لمعت عيناه حين ذكر اسمك.

تنهَّدت ولم أجبها، فقالت لي:

- ما الأمر جُمان؟ أخبريني ما هو الخبر السيء؟
- هذا الذي لمعت عيناه على حسب تعبيرك، يصغرني بسنتين يا جود!

صمتت قليلاً ثمَّ قالت:

- وما المشكلة؟
- جود أرجوك، لستُ بمزاجٍ جيِّدٍ.
- لا تبتئسي أرجوك.

صمتُ ولم أرد، ففهمت جود بألّا رغبة لي بمتابعة الحديث، وقالت برفقٍ:

- عندما تشعرين أنَّك بحاجةٍ إلى الحديث، فأنا موجودة دائماً.
- حسناً، إلى اللقاء.
- إلى اللقاء، أراكِ غداً.

وأغلقتُ الهاتف، وأنا منزعجة للغاية. يا للبؤس!

آدم

فبراير 2008 – السنة الخامسة

كنتُ أجلس في الكافيتريا التابعة للكلية أكمل مهمَّاتي في المشروع وبعضاً من الأمور المتعلِّقة بالمواد، اخترت مكاناً يطلُّ على مدخل الكلية ووضعت جهاز الحاسب بعد أن طلبت كأساً من الشاي، وبعدها رحت لا شعوريّاً أنتظر خروجها من الكلية، مرَّت ساعة، وساعتان، ولم تخرج بعد، قلت في نفسي: ربَّما خرجت دون أن أتنبه إليها، فطلبت كأساً ثانية، وثالثة ورابعة من الشاي.

في العادة تصبح الكافيتريا في الساعة السابعة مساءً هادئةً، وفي ذلك اليوم بالذات فرغت الكلية بسرعةٍ، فقد كانت الأمطار غزيرة والرعد والبرق لا يتوقَّفان، ومع كلِّ هذه الضجة خارجاً، إلا أنَّ الجو في الكافيتريا كان هادئاً إلى أبعد حدٍّ، وكنَّا بضعة أشخاص نجلس في مكانٍ مساحته كبيرة نسبيّاً.

كنت مستمتعاً في هذه الأجواء الشاعرية، فنزعت السمَّاعات الخاصَّة عن أذني حين لاحظت أنَّ العم إبراهيم قد وضع كلَّ الأغاني المناسبة لأجواء الليل المعتَّم وصوت المطر الغزير الذي كان يزداد غزارةً أكثر فأكثر. اتَّصلتُ بشبكة الإنترنت الخاصّة بالكلية لتحميل بعض الملفَّات

اللازمة، فرأيت بأنّ جُمانا أيضاً متّصلة ومتواجدة على تطبيق الماسنجر، فأرسلت إليها سؤالي المعتاد:

- أهلاً جُمانا، هل أنتِ في الكلية؟

لا أعلم لِمَ أسألها هذا السؤال بالأساس، أجابتني:

- نعم!
- ليس من عادتك أن تكملي مهمَّاتك في الكلية.

وضعت وجهاً مبتسماً، لكنَّها فجأة لم تعد موجودة على التطبيق، يبدو أنَّ الإنترنت قد انقطع لديها!

فانتبهت بعدها أنَّه انقطع لدي أيضاً، بالتأكيد سينقطع فنحن نستخدم الشبكة ذاتها، نظرت إلى النافذة فإذ بي أدرك سبب انقطاع الإنترنت، إنَّها العواصف والأمطار التي ازدادت حدَّتها. أمعنت النظر فوجدت الكلية وساحتها فارغتين بشكلٍ كلِّيٍّ، وحده صوت تساقط المطر كان يدوي في كلِّ مكانٍ. وبينما كنت أتأمَّل هذا المشهد المهيب وأحاول تهدئة قلبي الذي كان يخفق بسرعةٍ بعض الشيء، رأيت فتاةً تغطِّي نفسها بمعطفها وتجري مسرعةً في الظلام نحو الكافيتريا. عندما وصلت وفتحت الباب، نزعت معطفها المبلَّل، وإذ بها جُمانا!

من غير شعور منِّي ابتسمت ابتسامةً عريضةً وعاد إليّ شعور الأمان. أكملت جُمانا خطواتها نحو العمِّ إبراهيم، وبما أنَّ الكافيتريا فارغة، كنتُ واضحاً مثل الشمس، نظرت إليّ ولوَّحت لي وهي تطلب قهوتها، وبعد دقائق أخذت كوبها واتَّجهت نحوي.

- إذن أنتَ هنا أيضاً، حسبتكَ في المنزل!
- بالتأكيد هنا، لا أريد أن أترك العم إبراهيم وحده الليلة.

ابتسمتْ لي وهي تدفئ يديها بكوبها الورقي، ومن ثمَّ أخرجت منديلها القماشي من حقيبتها وراحت تمسح بعض قطرات المطر من على وجهها، فلاحظت أنَّ جُمانا لا تضع مساحيق التجميل، فأنا أعلم أنَّ ليلى تعتبر نزول المطر على وجهها مشكلة وربَّما يفسد مكياجها. وبينما كنت أفكِّر نسيت نفسي، رحت أتأمَّل ملامحها، كان وجهها نضِراً للغاية، ولأوَّل مرَّة أرى لون عينيها، فالأضواء في الكافيتريا قويَّة. لديها عينان بنِّيَّتا اللون، قريبتان للسواد، لعلِّي كنت أحدِّق بهما كثيراً، فقد ارتبكت الفتاة واحمرَّت وجنتيها وهي تقول:

- آسفة، انقطع الإنترنت، هل كنت تحتاج إلى شيءٍ ما؟
- لا بأس!

وأخرجت هاتفها من حقيبتها وكانت على وشك الاتِّصال بأحد، فسألتها:

- أتتَّصلين بوالدتك؟
- لا بل بشركة سيارات الأجرة، لن تستطيع والدتي القدوم، لديها كثير من المرضى اليوم، إنَّه موسم الشتاء كما تعلم.

وضعت كتبها على طرف الطاولة ومعطفها على الكرسي، ووقفت مستقيمةً، فلاحظت أنَّها أطول ممَّا كنت أتوقَّع، لقد اعتدت أن أحني رأسي حين أتحدَّث إلى الفتيات بالعموم، لكن تكاد جُمانا تصل إلى طول كتفي، وفي تلك اللحظة رنَّ هاتفها، فأجابت:

- أهلاً أمِّي، لا ليس بعد، أنتِ في الطريق، حسناً سأراك بعد خمس دقائق عند المدخل، وداعاً!

ولاحظت تغيُّر نبرة صوتها حين تحدَّثت مع والدتها، كانت تتحدَّث بكلماتٍ سريعةٍ ومقتضبةٍ ورسميَّةٍ جدًّاً، أغلقتْ هاتفها، فقلت لها بحزنٍ واضحٍ:

- هل ستذهبين الآن؟
- نعم، فرغت أمِّي من عملها وستقلُّني إلى المنزل بعد قليل.

أجابتني وهي مرتبكة فشعرت أنَّ خطباً ما أصاب قلبي، انتظرت خروجها لساعاتٍ وهذه الدقائق القليلة معها لا تكفيني، لماذا عليها أن تغادر فوراً؟! ليت والدتها لم تفرغ من عملها ولم تتَّصل!

رأيت طيف حمرة الخجل على خديها. جُمانا جميلة، جميلة ومهذَّبة، وراقية، وطموحة وذكية، باختصار هي مختلفة عن كلّ الفتيات اللواتي مررت بهن، لكن ثمَّة شيء مميَّز فيها لم أتبيَّنه بعد، كنت غارقاً أتأمَّلها بعمقٍ حتَّى انتبهت لجملتها:

- حسناً عليّ الذهاب.

تساءلت: تُرى هل استاءت جُمانا منِّي لهذا الحد؟ لم أملك إلا أن أبتسم لها معتذراً وأجيبها:

- في أمان الله.

أومأت برأسها وخرجتْ، أمَّا أنا فبقيت واقفاً في مكاني، لكن حينما رأيتها تغطِّي نفسها مجدَّداً بمعطفها، تذكَّرت أنِّي أضع مظلَّة في سيَّارتي، جريت وانتشلتها من السيارة وحاولت اللحاق بجُمانا، كنتُ أركض مسرعاً ونسيت أن ألبس معطفي وعندما رأيتها من بعيدٍ كانت والدتها قد وصلت وانطلقتا معاً.

وقفت في مكاني، في منتصف ساحة الكلية الفارغة والأمطار تنهال عليّ بغزارةٍ، بيدي اليمنى مظلّتَي، بينما راح قلبي يخفق بسرعةٍ شديدةٍ وتتلاحق ضرباته الواحدة تلو الأخرى. تساءلت والمطر قد بللَّ شعري بالكامل: لِمَ كلُّ هذا الاضطِّراب، هل لأنِّي جريت بسرعةٍ؟ اهدأ يا قلبي!

لم أتحرَّك من مكاني، كنتُ أراقبه، سيهدأ أم سيكمل تسارع خفقاته، شعرتُ بدوارٍ خفيفٍ بسبب قوَّة الأمطار التي تضرب رأسي، ورغم ذلك لم أود التحرُّك من مكاني، كان الظلام يعمُّ المكان، لا أضواء حولي إلا مصباح الشارع الخافت والبعيد.

منذ متى وهي مميَّزة لدي إلى هذا الحد؟ كيف بدأ الأمر ولَم ألحظه!

برقت السماء، فأضاءت كلَّ المكان كما لو أنَّها صاعقة، صعقت قلبي الذي كان ينتظر صوتاً يعطيه جواباً عن كلِّ تلك التساؤلات، والرعد ورغم علمنا بقدومه إلا أنَّ صوته يخيفنا ويرهبنا، هكذا كنتُ أنا أيضاً، خائفاً ومرتبكاً من الجواب، ارتجف قلبي حماسةً واستغراباً، فهذه هي المرَّة الأولى التي أشعر بها بهذا المزيج الغريب والمختلط من المشاعر.

وحين ارتجَّت الأرض من تحتي من صوت الرعد، صرختُ بسعادةٍ بأعلى صوتي "جُمانا"!

كنت مبَلّلاً من رأسي إلى أخمص قدميّ، نظرت إلى المظلَّة التي ما تزال بيدي، ورميتها جانباً فارتطمت ببرك الماء التي حولي. نظرت إلى السماء وابتسمت ووجهي يكاد يتجمَّد من البرد، ورحت أبحث عن القمر، الذي لم يكن له أي وجود وسط كلِّ هذا الغمام.

بقيت واقفاً في مكاني تحت هذه العاصفة التي هبَّت على حياتي، وهنا تجرَّأت وقلت لنفسي: إذن هذا هو الحب!

- هاااتشوووو

- رحمك الله وهداك يا بني.

- هاااتشوووووو

- رحمك الله وأصلح شأنك يا بني، ماذا فعلت؟

لم أستطع إجابتها فأنا لا أتوقّف عن العطاس منذ أن استيقظت. انتظرتْ أمّي إلى أن هدأ وضعي قليلاً وبدأت بجلسة الاستجواب:

- أين كنت البارحة؟ ولِمَ عدت مبلّلاً بهذا الشكل؟ وما الذي حدث بالضبط؟

- قلت لكِ لم أذهب إلى أيِّ مكانٍ، كنت في الكلية أدرس، واسألي العم إبراهيم.

- لن أسأل أحداً، ألم تكن أبريل معك؟ لِمَ وقفت تحت المطر؟ كانت حالتك سيئةً جدّاً طيلة الليل، حرارتك ارتفعت بشكلٍ كبيرٍ، لقد قلقت عليك، ارحمني يا بني!

- هل كنت أهلوس؟

- لا

- حاولي أن تتذكّري، هل ذكرت شيئاً، اسماً معيناً؟

- لا
- أمِّي، أرجوك، ركِّزي معي، هل قلت اسم فتاة، على سبيل المثال؟
- لا
- أأنتِ متأكِّدة، ألا تعتقدين أنَّك سمعتِ اسماً يبدأ بحرف الجيم، مثلاً؟
- آدم! توقَّف عن إزعاجي، لم تتحدَّث بأيّ شيءٍ، كنت نائماً ولم تتفوَّه بأي حرف!
- آه!

قلتها وأنا أتنهَّد ضاحكاً، كما لو أنِّي أنتظرها لتسألني، لكنَّها لم تفعل، واكتفت بجوابها: "سلامتك من الآه" وهي تخرج من الغرفة.

لم أستغرب كثيراً فهذا هو طبع أمي، تحبُّ مشاكستي، فحين تراني متشوِّقاً ومتلهِّفاً لإخبارها بشيءٍ ما، تُظهر لي عدم اهتمامها بالأمر، أمَّا في الأحوال العادية وحين أذكر أمامها اسم فتاةٍ ما وأمتدحها بأيِّ شيءٍ، سواءً بجمالها أو خُلقها، وحتَّى لو كانت فتاة التقيتها بالصدفة، تفتح أمِّي تحقيقاً مفصَّلاً معي وتبدأ بنسج الأحلام والأمنيات وتنهي تحقيقها بجملة: "ما رأيك أن نخطبها لك بعد التخرُّج؟". أمَّا الآن فهي تتعمَّد

التظاهر بعدم المبالاة، لأنَّها تعلم أنِّي لن أرتاح حتَّى أخبرها بمكنونات نفسي.

بعدما خرجت أمِّي من الغرفة بحثت عن هاتفي الخليوي، وبحثت في المكالمات الفائتة لأرى من سأل عنِّي، فرأيت اسم ليلى، وأُسَيد، وعمر، وحين لم أجد اسم جُمانا بينهم شعرت بالحسرة والألم، ووجدتني أتمتم من أعماق قلبي: كم أنتِ قاسية يا جُمانا! ألا تسألي عني؟

كنت متلهِّفاً لكلمةٍ منها أو لمجرد رؤية اسمها على شاشة هاتفي، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، شعرت برغبة عارمة في سماع صوتها تعويضاً عن حسرتي وكنتُ على وشك الاتِّصال بها، إلا أنِّي وفي آخر لحظة تذكَّرت أن لا شيء لديّ لأقوله، كما أنَّ موعدنا القادم بعد يومين، فتراجعت ولم أتَّصل.

جلست أفكِّر، ماذا سأفعل الآن، هل سأخبرها! أم عليّ الانتظار قليلاً؟ لكن لِمَ الانتظار؟ هل أشكُّ بما شعرت به البارحة؟

إطلاقاً! أنا متأكِّدٌ تماماً، فلم يهدأ قلبي منذ البارحة، وأشعر أنِّي في عالم آخر، ودنيا أخرى، وأشعر بسعادةٍ تخترق روحي.

- آدم، تعال يا بنيّ، تناول طعامك، الساعة الآن الثانية عشر ظهراً وأنت لم تأكل شيئاً منذ البارحة.

نادتني أمِّي وقطعت سلسلة أفكاري، فنهضت من سريري ألبِّيها، فلا فائدة من العناد معها، لكنِّي بقيت شارداً طيلة الوقت، أفكِّر ماذا سأفعل الآن، وهل سأصارح جُمانا أم لا!

- آدم! هل أنت بخيرٍ؟

سألتني أمِّي، فأجبتها:

- بخيرٍ يا أمِّي، ألا تودِّين سؤالي عن شيءٍ ما؟
- لا

ضحكتُ بأعلى صوتي، وأكملتُ الحساء الذي صنعته خصِّيصاً لي، فقبَّلت رأسها وأنا في طريقي إلى غرفتي مجدَّداً.

- سلمت يداكِ يا طبيبة قلبي.
- رضي الله عنك يا آدم، وشافاك وعافاك.
- آمين.

وبفضل الله أوَّلاً ثمّ دعواتها ثانياً لم يطل مرضي كثيراً، فعدت بعد يومين إلى قوَّتي ونشاطي وذهبت أخيراً إلى الكلية، فقد كان شوقي لرؤية جُمانا يفوق كلَّ الحدود، لكنِّي عزمت ألا أتحدَّث عن مشاعري لأيِّ أحدٍ، بما فيهم جُمانا، فأنا لا أريد تعكير صفو العمل أو إزعاج جُمانا بأيِّ شيءٍ، وأمامنا فصلٌ شاقٌّ من العمل والتحضير لمشروع التخرُّج.

آدم، ذلك المتميِّزُ في حرق أعصابي، وسرقة النوم من عينيّ، وسحب روحي بدمٍ باردٍ، منذ أسابيع وهو في عالمٍ آخر، غارقٌ في تفكيره وهمومه، منذ متى وآدم يشغله شيءٌ بهذه الجدّيَّة؟!

بدا متردِّداً طيلة جلسات العمل السابقة ولم أفهم ماذا يدور في خلده بالضبط. كنت أتساءل: أيزعجه شيءٌ ما في العمل أو في المشروع؟ إذن فليقل دون حرج، منذ متى وهو متحفِّظٌ بهذا الشكل! ماذا حدث له؟

وفي إحدى جلسات العمل النهائيَّة، كان شارداً بشكلٍ مفرطٍ، ومع أنَّنا على وشك الانتهاء من مشروع التخرُّج إلا أنَّه فقد كلَّ حماسته وتركيزه في العمل، لم أستطع إلا أن أبدي استغرابي من حالته تلك، فسألته بينما كنت أعمل وهو ينظر إلى جهازه متأمِّلاً لا يتحرَّك ولا ينجز شيئاً يُذكر:

– آدم، هل أنتَ بخير؟

انتفض كما لو أنَّه تفاجأ كثيراً.

– عفواً، لم أسمعك جيِّداً!

- سألتك هل أنتَ بخير؟
- آه، نعم.
- هل تشعر بوجود خطبٍ ما في العمل؟
- لا، إطلاقاً.. يمضي كلُّ شيءٍ على أكمل وجه.
- أما تزال غاضباً من أُسَيد بسبب ورقة البحث؟
- لا، تحدَّث إليَّ مجدَّداً ليقنعني بأهمية ترجمة العمل ونشره في مجلة علميّة، ورغم أنِّي ما أزال متحفِّظاً على الأمر، إلا أنَّني أعطيته موافقتي.
- إذن لماذا لم تعد تهتم كما كنتَ من قبل؟
- بمن أهتم؟ لم أفهمك!
- بالمشروع طبعاً، بماذا ستهتمُّ وأنتَ على أبواب التخرُّج؟

تنهَّد طويلاً، وكأنَّ هموم الدنيا فوق رأسه، مسح وجهه بيديه وقال:

- هنالك أمور كثيرة تشغل بالي، على كلِّ حال سأحاول التركيز، لكن أشكُّ في ذلك.
- عسى خيراً!

ابتسم واحمرَّ وجهه مثل الأطفال وهو يجيبني:

- هو خير، لكنَّني مرتبكٌ جدَّاً.

لم أستوعب عن ماذا يتحدَّث، لكنِّي لم أشأ أن أسأله أكثر من ذلك، فاستأنفتُ العمل مجدَّداً، لكنِّي بقيت أراقبه بطرف عيني، كان يفكِّر ويتحرَّك بشكلٍ مفرطٍ يميناً ويساراً، ويمسك شعره، ثمَّ هاتفه ثمَّ يفتح دفتره ويغلقه، وبعد عشر دقائق سألني:

- جُمانا، هل أبدو غريباً إلى هذه الدرجة؟
- ليس الأمر بهذا السوء، أنتَ كما أنت، لم تتغيَّر. أعني..

ولم أعرف كيف أكمل حديثي، تلعثمت فأكمل كلامه هو:

- لا أعلم ماذا سأفعل الآن!
- آدم، ربَّما لا يحقُّ لي أن أسألك، لكن إن كان بإمكاني المساعدة فعلى الرحب والسعة.

أغلق وجهه بيديه، مسح عينيه ومن ثمَّ نظر إليَّ مجدَّداً وهو يقول:

- حسناً، لم يعد لدي خيار آخر، بصراحة لا يتعلَّق الأمر بعملنا أو دراستنا، هو أمر خاصٌّ بي، كنت قد وعدت نفسي ألا أبوح به لأحد، لكنِّي كما ترين مشوَّش التفكير دوماً، لا أستطيع التركيز بأيِّ شيء، فلا أنا أعلم ما عليّ فعله، ولا أدري كيف سأتصرَّف!
- ما الأمر آدم؟ هلَّا شرحت لي!

- حقيقةً لا أعلم كيف ومن أين سأبدأ!

أجبته:

- ابدأ من البداية فقط.
- البداية! أنا لا أعرف ما هي البداية أساساً!

لم أفهم ما قصده بالضبط، ابتسمت وأنا أقول له:

- إذن فمن النهاية!

فزع وقال لي مسرعاً:

- لا، ليست هنالك أي نهاية.
- آدم، حيَّرتني، قل ما تشاء، أنا أسمعك.
- حسناً، بصراحة منذ فترة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة وقعت في حبِّ فتاة، أنا أراها بشكلٍ مستمرٍّ، لكنَّها لا تعلم بمشاعري تجاهها إطلاقاً، وأخشى إن أخبرتها أن أهدم العلاقة التي بيننا حاليَّاً!

سكتَ واحمرَّ وجهه كثيراً وتلعثم ولم يكمل. لم يكن هنالك أيّ مؤشِّر عن تلك الفتاة. أيْ نعم هو يتحدَّث إليّ، ولم يعد يتجاهلني كما كان في

السنة السابقة، لكن هذا لا يعني أنّي تلك الفتاة مطلقاً. ارتبكتُ وشعرت بخوفٍ يتملَّك فؤادي، بينما أكمل كلامه عن معاناته وتخبُّطه الدائم حول ما عليه فعله تجاه تلك الفتاة، كنتُ أصغي إليه وفي الوقت نفسه أفكِّر، يا ترى من تكون، أهي جود مثلاً! لكن لا يبدو عليه أي اهتمام بها! لم أستطع فهم ما كان يسرده، وكي لا يشعر بشيءٍ حول قلقي حاولت أن أتجاوب معه، فسألته:

- وما سؤالك بالضبط؟
- هل أخبرها؟ وكيف؟ ومتى؟ وماذا أقول لها؟

ارتبكتُ أكثر ثمَّ قلت له:

- أخبرها، بالطريقة التي تعبِّر بها عن نفسك.
- أأحدثها بشكلٍ مباشر؟ أخشى أن أزعجها..
- لا أعلم، يعتمد هذا على طبيعة العلاقة بينكما وعلى شخصيَّة الفتاة، ليس هنالك قاعدة في هذه الأمور، آدم!

وراح يعبث بشعره، ثمَّ قال:

- جُمانا أنتِ تعرفينها جيداً، بالأحرى ترينها كلَّ يوم.

سكت قليلاً، ثمَّ سألته:

- أهي زميلةٌ معنا في الكلية؟

أخذ نفساً عميقاً، وحاول أن يهدِّئ من حماسته وحركاته. كنت أنظر إليه وأنا أنتظر جوابه، لكنَّه أشار إلى جهازي، وإلى الصورة التي أضعها لشاشة حاسوبي، وقال:

- هي تلك التي خطفت قلبي!

توقَّف الدم في عروقي، وشعرت أنَّ قلبي ذهب إلى آخر المجرَّة وعاد. لم أصدِّق ما سمعته وما رأيته، بقيت صامتةً ولم أبدِ له أيَّ اهتمامٍ، فسألني:

- جُمانا، أخبرتك أنِّي لا أودُّ أن أخسر علاقتي بكِ، أرجوك لا تصمتي هكذا. جُمانا! هل أزعجتك؟
- لا، ليس الأمر كذلك.

- إذن؟
- لقد فاجأتني..
- أهي مفاجأة جميلة أم سيِّئة؟
- لا هذا ولا ذاك، لكن ألا ترى أنَّ الأمر غريبٌ بعض الشيء!
- ما الغريب بالضبط؟

ورحت أبدي له استغرابي واستنكاري لهذا الحب، وبطريقةٍ غير مباشرة بدأتُ باستعراض المعوّقات التي تقلقني وتؤرِّق بالي، فقلت له وأنا أختم كلامي:

- ثمَّ ألا تعلم بأنِّي أكبر منك سنّاً؟

لم يجبني، بل ابتسم فقط.

آدم

أبريل 2008– السنة الخامسة

كنتُ قد استحضرت في عقلي عشرات السيناريوهات التي سأخبرها بها عن مشاعري، ولكن لم أتوقَّع أنِّي سأخبرها في ذلك اليوم، لذا لم أنفِّذ أيَّ واحدةٍ منها، حدث كلُّ شيءٍ بشكلٍ مفاجئٍ، فاهتمامها بحالتي وبشرودي جعل قلبي يطير من الفرحة، لم أكن أعتقد أنَّها تلاحظ تقلُّباتي. أسعدني أنَّها لاحظت أنِّي لست على ما يرام، فنعم، منذ أن أدركت مشاعري تجاهها وأنا كثير التفكير وقلقٌ بسبب أمور عديدة، فأنا أعلم أنَّها لا تتوافق مع المعايير العامَّة للفتاة التي يجب أن أرتبط بها حسب تفكير أمِّي وحسب مجتمعنا، فأوَّلاً جُمانا تحلم بإكمال دراستها والاغتراب، وأنا أريد البقاء في الوطن، كما أنَّها غير محجَّبة، وهذا لا يتوافق مع بيئتنا الملتزمة، وقبل هذا وذاك ماذا عن جُمانا ذاتها؟ أنا متأكِّدٌ أنَّ لي مكانة في قلبها، لكن لا أعلم ما هي بالضبط. تُرى هل يمكن أن تبادلني المشاعر، أم أنَّها تراني زميلاً في الدراسة فقط لا غير؟! لا أستخفُّ بنفسي لكنَّني شخصٌ مفرطٌ في المرح، ولا يمكن الحد من نشاطي، لذا فأنا كثير الكلام، وبالتالي كثير التعرُّض للأخطاء، وفتاة مثل جُمانا يناسبها الارتباط بشخصٍ رزينٍ، ذي شأنٍ وهيبةٍ ووقار يحافظ على صورته لامعةً ولا يخدشها بكثرة العثرات والأخطاء.

حين أصرَّت جُمانا على معرفة ما بي وجدت نفسي وأنا أخبرتها بما في قلبي، ورغم أنِّي لم أسهب، إلا أنَّها تجمَّدتْ من شدَّة استغرابها، ثمَّ بدأتْ بسرد بعض النقاط بشكلٍ مباشر وسريعٍ وقاطع. استغربتُ من ردَّة فعلها تلك، ولم أستطع فهمها جيِّداً، لا بدَّ أنَّها اعتادت أن تجيب الشبَّان بهذا الجواب، لكن هل أنا مثل أيِّ شابٍّ اعترف لها بمشاعر لا تستحسنها؟!

مضينا دون أن أجيبها عن استفساراتها واستنكارها وتذرُّعها بعدم منطقيَّة هذا الحب، فلم أكن مستعدَّاً لهذا النقاش ولم أحسب حسابه، لكنِّي بقيت أجول بسيَّارتي مطلقاً العنان لقلقي وحبِّي ومشاعري المتضاربة.

كنت غاضباً وحانقاً لأبعد الحدود، لا لستُ صبوراً على الإطلاق حين يتعلَّق الأمر بمشاعري، وكلُّ هذه الأغاني التي تصدر من سيَّارتي تحكي عنِّي أنا. كلّها كُتبت ولُحنت وسُجِّلت خصِّيصاً لي، فأنا هو الغرقان، والعاشق الولهان الذي هجرته حبيبته، وتركته بلا جواب أو عتاب متخبِّطاً يجوب الدنيا، وأنا الذي أعدُّ الليالي من شوقي واحتراقي وحبِّي، أمَّا جُمانا فهي القمر ونور العين، والتي حلمت بها، وبضحكتها وبنظرة عينيها، وهي التي يزيد حبُّها في قلبي كل يوم، ويا ليتها تعلم ما في قلبي.

وحين وصلت أسطوانة الأغاني إلى أغنيتي المفضَّلة قرَّرت الذهاب إلى بيتها مباشرة، لأقف أمامه، وأخبرها كم أنا بحاجةٍ إليها في حياتي، أخبرها كم هي غالية على قلبي، وأنَّها دائماً في قلبي وفي بالي، ومهما بعدت عنِّي فهي قريبةٌ من روحي، هي مستقبلي وعمري الحاضر والآتي، وأنا أكثر شخص يحبُّها في هذا الكون، والذي اختارها قلبه. هممت بالانطلاق إلى بيتها لكن تذكَّرت أنِّي لا أعرف العنوان، كنت على وشك الاتِّصال بجود وطلبه منها، لكنِّي حين عاودت التفكير لم أجد ذلك صائباً، ماذا لو رآني أحد والديها أقف أمام باب المنزل! حينها سأضع نفسي في موقفٍ محرجٍ للغاية، عليّ أن أحسب أفعالي جيداً، هذه الأمور حسَّاسة ولا تحتمل أي تصرُّفٍ طائشٍ، فأنا جادٌّ وأرغب في الارتباط بها، وبالفعل تراجعت وأكملت طريقي إلى البيت، وقلبي يفيض بالحبِّ.

جُمان أبريل 2008 – السنة الخامسة

عدتُ إلى المنزل وأنا في عالمٍ آخر، كنت ما أزال واقعةً تحت تأثير الصدمة، اتَّصلتْ بي جود فتحدَّثنا بأمورٍ عامَّةٍ ولم أستطع إخبارها بما حدث وبما قاله لي آدم، قرَّرت أن أحكي لها عن الأمر حين أراها خلال موعدنا القادم للدراسة معاً في منزلها. مرَّت ساعات وأنا أدور في غرفتي، أمسك وجهي المُحمَر في كلِّ لحظةٍ أتذكَّر فيها جملته وهو يشير إليَّ: "هي تلك التي خطفت قلبي".

هل يحبُّني آدم بالفعل؟ كيف حدث ذلك؟ لم أتوقَّع أن يتحقَّق ما تمنَّاه قلبي فعلاً! كنت مضطَّربةً للغاية، أمسك بهاتفي تارةً، وأجلس على الأرض تارةً أخرى. أرفع شعري، ثمَّ أفرده، كان كلُّ شيءٍ غريباً. يخفق قلبي بشدَّة حين أتذكَّر ملامحه وهو يبوح بمشاعره، ويَلي كم كان الأمر مُحرِجاً! وفجأة وأنا في هذه الحال وصلتني رسالة من آدم كتب فيها: "ليس الأمر أنِّي سأزعجك برسائلي، لكن اسمحي لي ولهذه الليلة أن أقول لكِ: تصبحين على خير".

قرأت الرسالة وطار قلبي من السعادة، نظرت إلى المرآة وسألت نفسي: هل أنا أحلم؟!

- ويح فؤادي، أخبرتك أنَّه يحبُّك.

صرختْ بفرح وراحت تعانقني، ثمَّ باغتتني بسؤالٍ وهي تضحك، فقالت:

- والآن ما هو الوضع الحالي بينكما؟
- لا شيء، تعلمين لقد أنهينا العمل بالمشروع، وفرغنا من المحاضرات، لذا مضى أسبوعٌ كامل من غير أن أراه.
- إذن أنتما لم تلتقيا بعد ذلك اليوم؟
- للأسف لا، لم نلتقِ بعد، ولم يتَّصل أو يرسل أي شيءٍ خلال الأسبوع الماضي، أشعر بالحيرة ولا أفهم ما يحدث، لقد بدأت أسأل نفسي: تُرى هل ما حدث كان صحيحاً بالفعل أم أنَّها مجرَّد تهيُّؤاتٍ رسمها عقلي وظننت أنَّها واقع!!
- هوّني عليك الأمر.
- لكن أين هو يا جود؟ أعلم أنَّه أصغر منِّي بسنتين، لكنَّهما لا تعطيانه الحقَّ بالتصرُّف كما لو أنَّه طفلٌ لا يعلم ما يريد. سنتان

لا تسمحان له بأن يعاملني مثل دميةٍ بين يديه يرميها حين يسأم منها.

- وهل تعتقدين أنَّه سئم منك بعد اعترافه مباشرةً بمشاعره؟ أتمزحين؟
- لعلَّه ندم؟!
- ما بكِ جُمان؟ حتَّى وإن رأيتهِ أو تحدَّثتِ إليه، هل لديك الجواب الشافي له؟!
- بالطبع لا.
- ربما يختبرك ليعلم مدى حبِّك له.
- أشعر أنِّي أنا من أختبر نفسي بهذا الغياب؟!
- تحبِّينه إلى هذا الحدّ جُمان؟

ابتسمتُ، فأردفت كلامها وسألتني:

- أخبريني كيف كان شعورك لحظة اعترافه؟ أخبريني بالتفصيل أرجوك.
- لقد خبرتِ هذا الموقف مرَّاتٍ عديدة يا جود، أمَّا أنا فهذه المرَّة الأولى في حياتي التي يعترف لي فيها شابٌّ بإعجابه.
- لا يا حبيبتي! يختلف الأمر كثيراً.
- كيف ذلك؟

- أنا لم يعترف لي شابٌّ أبادله المشاعر ذاتها.
- تبدين محقَّة، بالفعل، لن أهتمَّ إن اعترف لي شابٌّ لا أكنُّ له أي مشاعر.
- بل يكون الأمر مزعجاً في بعض الأحيان.
- هذا صحيح، وربَّما هذا ما كان يقلق آدم أيضاً، ألّا أستحسن مشاعره، وأتجنَّب الحديث معه.
- إنَّه عاطفيٌّ على فكرة، كوني حذرةً في التعامل معه.
- ماذا تقصدين جود؟
- أقصد ألا تعطيه أملاً بارتباطكما ما لم تكوني واثقةً من مشاعرك.
- لا تهولي الأمر، ما نزال عند مربع البداية، وأنا لن أخبره أساساً بما أكنُّه له من مشاعر.
- هذا أفضل في الوقت الراهن، لكن لا تكوني قاسيةً معه.
- حاضر يا آنسة جود، والآن فلنبدأ الدراسة.

وبدأنا بحلِّ بعض المسائل، وبعد ساعة، فتحت جود جهاز الحاسب، فوجدنا آدم متواجداً على تطبيق الماسنجر، فقالت لي جود:

- هل رأيتِ ماذا يسمع؟
- نعم، منذ أيام وهو لا يكفُّ عن سماع أغنية "أحبِّيني بلا عقدٍ"، يضعها طيلة الوقت، فتظهر عبر الماسنجر.

- وتقولين إنَّه لا يكترث بك!
- لكن كيف لي أن أعلم من يقصد بها؟!
- أتمزحين جُمان؟ يا للكِ من طمَّاعة! سيرى آدم أيَّاماً صعبة، أنا واثقة من ذلك.

آدم | مايو 2008– السنة الخامسة

مرَّت عشرة أيامٍ مذ صارحت جُمانا بحبِّي، وما أزال متوتِّراً بشدَّةٍ، لا أعلم كيف سأتصرَّف! ورغم أنَّها لم تعطني ردَّاً واضحاً عن شعورها تجاهي، إلا أنَّه يتحتم عليَّ أن أكون واضحاً معها فيما يتعلَّق بهذا الحب، فما فائدة إخبارها بمشاعري من غير أن أعلمها بالخطوة التالية التي أنوي اتِّخاذها؟! لِمَ لا يشعر الشبَّان بمشاعر الفتيات حين يصارحونهنَّ بمشاعرهم؟ الفتيات بحاجةٍ إلى فهم ما يفكِّر به الشابُّ بعد تلك المصارحة، ولديهن كل الحقِّ في ذلك، فهنَّ رقيقاتٌ، سريعاتُ التأثُّر وعاطفيَّاتٌ، وليس من العدل تركهنَّ ينتظرن الخطوة التالية من الشاب وهو غافلٌ أو يتغافل عن إيضاح موقفه، هذه ليست رجولةً على الإطلاق.

فلطالما لمت يمان، ولمَّحت ليزن بأن تكون خطواتهما واضحة، ويكون كلامهما مدروساً، فأنا أسمع لهذه وأنصت إلى تلك، ربَّما عليَّ أن أكون ممتنَّاً لرشا، فرغم ألّا أخت لي إلا أنَّها منحتني هذا الدور، فبتُّ بذلك متفهِّماً لشعور الفتيات بشكلٍ أفضل.

وعلى إثر ذلك قرَّرتُ وكخطوةٍ أولى، إعلام والدتي بالأمر، فأخبرها بما استجدَّ معي، أعلم أنَّه لي الحق في اختيار من أرغب في زواجها، لكنِّي لن أرتاح حتى أحكي لها عمَّا يخالج قلبي، فأنا أريد الاستئناس برأيها والتأكُّد من قبولها للأمر. وبالفعل أخبرت والدتي برغبتي في الخروج معها إلى مكانٍ ما كي نتحدَّث بأمرٍ مهمٍّ، ورغم أنَّها كانت مصرَّةً على رفض دعوتي بحجَّة أنَّ الامتحانات على الأبواب، إلا أنَّها استسلمت في نهاية الأمر، واصطحبتها إلى أحد المقاهي الهادئة، وهناك بدأتُ مباشرةً بصلب الموضوع فأخبرتها أنِّي قد وقعت بحبِّ فتاةٍ. كان وقع الخبر عليها في البداية غريباً بعض الشيء، لم تتوقَّع أمِّي أنَّ آدم الطائش سيأتي مَن يأسر قلبه إلى هذا الحد! أبدت استغرابها لأنّها كانت تتوقَّع أنِّي سأرهقها لتقنعني بالزواج، ولكن أن أكون أنا من أبادرها بهذا الموضوع فقد سُرَّت بهذا سروراً عظيماً، ممَّا سهَّل عليَّ الموضوع. سألتني بعدها:

- ومن سعيدة الحظِّ تلك؟
- زميلتي في الكلية.
- أهيَ الفتاة جود؟ جميلةٌ تلك الفتاة، وتبدو لطيفةً ومهذَّبةً جدَّاً.
- ولِمَ اعتقدت أنَّها جود؟ وكيف عرفتِ شكلها؟

- لأنَّ اسمها يبدأ بحرف الجيم، الاسم الذي انتظرتَ أن تهلوس به حينما كنت طريح الفراش، ألا تذكر؟ وعرفت شكلها من صوركم التي كنت تريني إيَّاها خلال سنواتك السابقة.

ضحكتُ حتَّى اهتزَّت الجدران من صوت ضحكتي، ثمَّ أجبتها:

- لا ليست جود، وتذكَّري أنَّها ليست وحدها من يبدأ اسمها بحرف الجيم.

صمتت أمِّي للحظاتٍ وهي تفكِّر، ثمَّ عبست وسألتني بحزمٍ:

- الفتاة الطويلة والمجتهدة؟ ماذا كان اسمها؟

عدَّلت جلستي وأنا أجيبها بهدوءٍ شديدٍ:

- جُمانا.
- آدم، أهيَ تلك الفتاة؟
- نعم.

تغيَّرت ملامحها وسكتت قليلاً كي لا تجرح شعوري، أمسكتُ بيدها وأنا أسألها:

- ما بكِ يا أمي؟ ألن تكملي حديثك معي؟

- حبيبي آدم، اتركني قليلاً ما أزال أحاول فهم الموضوع، هذه الفتاة غير محجَّبة، أتعتقد أنَّها مناسبة لك؟
- أمِّي، ألم أكن أنا مدخِّناً ثمَّ أعانني الله على الإقلاع عن التدخين؟! ويوماً ما سأحاول إقناعها به بعد أن تقتنع بي بالأصل.
- فأنتَ لا تعرف جوابها بعد!

ورأيتُ ابتسامةً بسيطةً ترتسم على محيَّاها، أيقنت أنَّ سعادة أمِّي نابعة من أنِّي استشرتها قبل أن أتَّخذ أيَّ خطوةٍ أخرى، وأنِّي اعتبرت موافقتها أولويَّةً. تابعتُ قائلاً:

- أمِّي تعلمين أنَّ لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصان، وأنت ترين معي الآن أن كنَّتك المستقبليَّة كاملةٌ تقريباً.
- خذ موافقة الفتاة أوَّلاً ثمَّ سمِّها كنَّتي!
- ألن تسأليني أين يكمن هذا النقصان؟
- هات ما عندك! أخبرني ما النقصان ولا تطِل، أشغلت بالي بالفعل.
- هو ليس نقصاناً فيما يتعلَّق بالفتاة، فلا يوجد ما يعيبها أو يعيب عائلتها والحمد لله، ولكن هو نقصانٌ في مجتمعنا وعاداتنا وتقاليدنا، فجُمانا تكبرني بسنتين.

صمتت أمِّي مجدَّداً، وتجمَّدت عيناها، لم أحتمل ذاك الصمت، فبادرت بالحديث مجدَّداً:

- أخبريني ما المشكلة في الزواج ممَّن تكبرني فقط بسنتين لا غير؟
- آدم يا حبيبي! إن كانت الفتاة ذات شخصيَّة قويَّة وتفوقك عمراً فهي حتماً ستتعبك ولن تنقاد إليك، كما أنَّ علامات تقدُّم السن تظهر أسرع عند النساء يا آدم.
- أوَّلاً، لا أحبُّ التفكير بهذا المنطق إطلاقاً، سواء بدت السنوات عليها واضحةً أو لم تبدُ، فجميعنا سنكبر، وستتغيَّر ملامحنا وسنهرم، ثمَّ إنَّ قوَّة شخصيتها هو أكثر ما يعجبني بها، هي من أجمل ميزاتها وليست عيباً، لِمَ يعتبر مجتمعنا قوَّة شخصية الفتاة عبئاً على شريكها؟ ما هذا القانون الذي لم أسمع به ولم أقرأ عنه لا بشرعٍ ولا دستور والذي ينصُّ على ضرورة أن يكبر الزوج زوجته؟! ما هذا المجتمع المتحكِّم!
- لا تلم المجتمع بهذه الطريقة، ولا تطلق أحكاماً ليست في سياقها المناسب، افهم الكلام وأصغِ إلي، يا بني تميل المجتمعات لضرورة تقدُّم الزوج في السن عن زوجته نظراً لنضج الفتيات السريع مقارنة بالرجال، فما بالك أن تكبره بالسن؟ لا تستهن بفرق السنتين يا آدم!

- دعينا نكون أكثر دقَّة، هي سنة وعشرة شهور فقط لا غير، ثمَّ أنت الملامة في ذلك.
- كيف؟
- السبب الرئيس في وجود هذا الفارق بيني وبين جُمان هو أنَّني التحقت بالمدرسة مبكراً، لولا ذلك لكنَّا في نفس العمر.

نظرت إلي ولم تستوعب في بادئ الأمر ما عنيته، ثمَّ أدركت أنَّها نكتة ويبدو أنَّها لم تعجبها، فصمتت قليلاً ثمَّ قالت:

- وماذا عن الأطفال؟ متى ستتزوَّجان ومتى ستنجبان؟
- على فكرة، هي في الأربعة وعشرين من عمرها الآن وليست في الأربعة والأربعين، أرجوك دعي عنك هذه الأمور، ولمعلوماتك أنا مستعجلٌ جدَّاً على الارتباط ولن أطيل كثيراً، أودُّ التقدُّم لخطبتها بعد التخرُّج إن شاء الله.

صمتت ولكن لم يكن صمتاً طويلاً كما في المرَّات السابقة، كان صمتاً يدلُّ على الموافقة المبدئيَّة، تنهَّدت قليلاً ثمَّ قالت:

- سأدعو الله أن يختار لك الخير يا بني.

آدم

مايو 2008– السنة الخامسة

أرسلت إلي وجوهاً متفاجئة، وقلوباً كثيرة، ثمَّ كتبت:

- إذن فهذا هو الموضوع الذي أردت استشارتي به ولم تفعل، أريد أن أراها آدم، كيف تبدو؟ أرسل إلي صورة حالاً.
- ليس لدي صورة الآن، اهدئي وسترينها قريباً.
- يا إلهي، لا أصدِّق.
- لماذا؟
- لم نعتد أن تأخذ الأمور على محمل الجديَّة، ولطالما سخرتَ من الحبِّ وأهله، يبدو أنِّي سأستردُّ حقِّي من الآن فصاعداً.
- إذن لن أحكي لك عن شيء.
- لا تكن سخيفاً، وقل لي، ما اسمها؟
- جُمانا.
- اسم جميل، أخبرني ما صفاتها العامَّة؟ شخصيتها؟ من تشبه؟ ما الذي أعجبك بها؟ كيف أحببتها؟ هيَّا أخبرني.
- على رسلك، سأخبرك بالتفاصيل، لا تكوني عجولة.
- هيَّا أسرع!

- هي فتاةٌ هادئةٌ، تتحلَّى بطباعٍ مميزةٍ، وتلتزم بقواعد الإتيكيت في كلامها، وسلامها، وتعاملاتها، وتتحدَّث بوضوحٍ، وذكيَّة ومجتهدة جدَّاً، وهي الثانية على دفعتنا.
- نعم وماذا أيضاً؟

رحت أفكِّر فلم أجد ما أضيفه، فصمت ولم أجبها، فوضعت لي علامات استفهام، ثمَّ كتبت:

- أهذا ما تعرفه عن الفتاة فقط؟
- نعم، نحن لم نتعامل مع بعضنا البعض سوى منذ بضعة أشهر.

لم تجبني، فشعرت كما لو أنَّها تستنكر شيئاً ما، فسألتها:

- وما الخطب في ذلك؟

راحت تكتب لأكثر من دقيقة، فاعتقدت أن تصلني منها جريدة، لكن يبدو أنَّها كانت متردِّدة فيما ستقوله فما وصلني منها هو سطر واحد فقط، سألتْ فيه:

- قل لي بربِّك، فتاةٌ بتلك المواصفات كيف تتطلَّعُ بأن تبادلك المشاعر؟

فسارعت وكتبت لها:

- وما المانع؟ ألا يبادلك يمان المشاعر؟ وهو الشاب الهادئ الرزين، والذكي، والمتفوق.
- ماذا تقصد؟
- قصدي واضح.
- إنَّك لئيم!
- كابنة عمَّتي رشا!
- أخبرني، هل تنتظر منها جواباً؟ أو إشارة؟ أو أي شيء؟
- في الحقيقة لا، هناك عقبات أمامنا.
- وهل بدأت قصَّتكما كي تبدأ العقبات؟
- أنا متعبٌ يا رشا، أفكِّر بها طيلة الوقت، وأراقبها كيفما تحرَّكت، وأشعر بالقلق حيال ردّها، ماذا عليَّ أن أفعل؟
- ركِّز الآن في دراستك، ولا تشتِّت الفتاة، ألم تقل إنَّها الثانية على الدفعة؟ إذن دعها تحافظ على مركزها ذاك على الأقل ولا تكن سبباً في تدهورها الدراسي.
- كلامك منطقي جدَّاً.
- لا تتهوَّر، ولا تنجرف، أنا أعرفك جيِّداً.
- أنا منجرف يا رشا.
- مجنون!

جُمان
مايو 2008– السنة الخامسة

وصلت إلى القاعة قبل ربع ساعة من موعد الامتحان، إنَّه الفصل الدراسي الأخير، أكاد لا أصدِّق أنَّ ما تبقى هو ست موادٍ فقط، بحثت عن مكان جلوسي ورحت أرتِّب أقلامي وأدواتي، وإذ بأحدهم يقف أمامي، رفعت رأسي، فألقى السلام:

- صباح الخير جُمانا.

دهشت لرؤيته، فهذه المرَّة الأولى التي أراه فيها يصل إلى قاعة الامتحان باكراً، اعتدنا أن يصل مع المراقبين أو حتَّى بعدهم. أجبته بلطفٍ مصطنعٍ:

- صباح النور! أهلاً آدم.
- جُمانا! هل من الممكن أن أتكلَّم معك بعد امتحان اليوم؟
- حسناً لا بأس.
- والآن أتمنَّى لكِ التوفيق.
- وأنا أيضاً أتمنَّى لك كلَّ التوفيق.

ومضى إلى مكان جلوسه، ووصلت جود في تلك اللحظة، فجلست في مكانها وأشارت إليَّ بالسلام، فهي تعلم أنِّي لا أفضِّل تبادل الأحاديث

قبل الامتحان، وتحترم ذلك، أمَّا آدم ففعل عكس ذلك، شوَّش عليّ بطلبه ذاك، بل ظلَّ ينظر نحوي بين الفينة والأخرى إلى أن وصل المراقبون ووزَّعوا الأوراق، وللأسف بدأت الأفكار تدور في رأسي خلال الامتحان فرحت أسأل نفسي: تُرى ماذا يريد؟ وماذا سيقول لي؟ هل تراجع؟ أم أنَّه سيسألني عن رأيي مجدَّداً؟ لعلَّه يحتاج إلى مساعدةٍ في مادةٍ ما، ولن يتطرَّق إلى ذاك الشأن أصلاً! تبّاً لماذا شتَّتني هكذا؟! ترى هل يعلم آدم أهميَّة تلك الامتحانات عندي؟ أم أنَّه غير مدركٍ لفعلته تلك؟!

وحين تبقَّى من الوقت نصف ساعة، أبعدت تلك الأفكار عنِّي وحاولت جاهدةً أن أستعيد تركيزي، وأمسك بزمام الأمور، فلا وقت أضيعه، وبفضلٍ من الله خرجت من الامتحان بأقلِّ الخسائر.

آدم　　　　　　　　　　　　　　　　　　مايو 2008– السنة الخامسة

انتظرتها إلى أن خرجت من الامتحان، وأنهت حديثها مع بعض الفتيات اللواتي كنَّ يراجعن الإجابات معها، فهي إحدى المرجعيات الأساسية لدفعتنا. توجَّهت نحوها، فاستأذنت جود ومضت قبل أن أصل، يبدو أنَّ جود تعلم بكلِّ المجريات، ولا عجب! فهما صديقتان مقرَّبتان جدَّاً، سألتها وأنا أتصنَّع الجدِّية:

- كيف كان الامتحان؟
- جيِّد، ماذا عنك؟
- لا بأس.

نظرتُ حولي ثمَّ قلت لها:

- هل نجلس في المكتبة؟
- ليس من المناسب الجلوس هناك، الطلاب يدرسون بجدٍّ، أخبرني ما الأمر؟
- هل أنتِ مستعجلة؟
- لست كذلك، لكنَّك أثرت قلقي.

"أثرت قلقها"؟! نظرت إليها وأنا أخفي سعادتي بما سمعت للتوِّ، ثمَّ قلت:

- في الحقيقة، أريد أن أفهم بعض الأشياء.
- هل تحتاج إلى مساعدةٍ بمادةٍ ما؟
- لا، لا! أنا لا أعني المواد.
- إذن؟
- جُمانا، أنا لم أسمع أي ردٍّ حول ما دار بيننا الشهر الماضي.

ارتبكتْ، وفهمتْ ما أرمي إليه ثمَّ قالت:

- آدم، أنت عبَّرت عمّا تشعر به، وانتهى كلامنا عند هذا الحد، أي ردٍّ تتوقَّعه منِّي؟ أنا لا أفهمك.
- إذن هل تسمحين لي بطرح بعض الأسئلة؟
- ألا نستطيع تأجيل ذلك لبعد الامتحانات؟

شعرت بالأسف عندما سمعت اقتراحها ذاك، صمت قليلاً ثمَّ أجبتها:

- لا!
- إذن قل لي، ما بك آدم؟
- جُمانا، هل يزعجك أنِّي أكنُّ لكِ مشاعر خاصَّة؟

تنهَّدت ثمَّ قالت:

- ما دام أنَّك تلتزم حدودك، فهذه مشاعرك ولا أملك سلطةً عليها.
- جُمانا، أنا سألتك سؤالاً واضحاً، هل يزعجك أنِّي أكنُّ لكِ مشاعر خاصَّة؟ أجيبيني بنعم أو لا، أرجوك.

نظرت إلى عينيها كي أستقرئ الإجابة، فالتفتت للجهة المقابلة ثمَّ قالت:

- لا.

خفق قلبي بشدَّةٍ، واستجمعت شجاعتي وقلت لها:

- جُمانا، أتسمحين لي بأن أخبرك أكثر عمَّا أشعر به؟

وهنا شعرت بأنَّها قد تضايقت بالفعل، فتراجعتُ وقلت لها:

- انسي الأمر، لن أزعجك الآن، لكن أريد أن تجيبيني عن سؤالٍ أخير.
- تفضَّل آدم.
- هل تصلك مشاعري؟ هل تشعرين بي؟ أم أنِّي غير مرئي؟

احمرَّ وجهها، وشعرت بأنَّها على وشك البوح بشيءٍ تخفيه، إلا أنَّها أجابت بحذرٍ قائلةً:

- بالله عليك كيف ستكون غير مرئي ونحن نعمل معاً منذ سنة تقريباً؟ أنت مرئيٌ آدم، لكنَّ تطور مشاعرك في هذا الاتجاه هو حالة جديدة، لذا امنحني متَّسعاً من الوقت لاستيعاب الأمر.

ورغم أنَّ جوابها كان مقتضباً، إلا أنَّه يخفي كثيراً من المشاعر بين سطوره. ودَّعتها وعدت إلى المنزل، وقلبي يحدِّثني بأنَّ جُمانا تبادلني مشاعر خاصَّة بلا أدنى شك.

جُمان

يوليو 2008– مشروع التخرّج

انتهينا من الامتحانات، لكن لم تتح لنا الفرصة للحصول على استراحة، فقد كان علينا التحضير لمناقشة مشروع التخرُّج بعد الامتحان بأسبوع واحد. كنَّا في اجتماعنا الأخير بعدما تدرَّب كلُّ شخص منَّا على قسمه، فأعطى أُسَيد ملاحظاته النهائية حول العرض التقديمي، وعدَّل عمر الملف النهائي للعرض وأرسله إلينا، وقبل أن ننهي جلستنا تلك، قال يزن موجِّهاً حديثه لنا جميعاً:

- أشكركم يا رفاق، لقد أبلينا حسناً في هذا المشروع، وأنا فخورٌ بما أنجزناه.

فأردفت:

- بالفعل، كانت تجربةً رائعةً، وأتمنَّى أن تتكلَّل بالنجاح.

نظر حينها أُسَيد وابتسم ثمَّ قال:

- أعتذر لما بدر منِّي خلال العمل، أعلم أنِّي كنتُ وفي بعض الأحيان أضيف التعديلات دون الرجوع إليكم، لكن صدِّقوني لم أتقصَّد تخطيكم إطلاقاً، إنَّما هو ضيق الوقت، كما أعلم أنَّ

إصراري حول نشر العمل ليكون ورقة بحث لم يكن محلَّ ترحيب لدى الجميع، لكنَّها ستصبُّ في مصلحتنا جميعاً، وهذا ما اتَّفقنا عليه في بداية العمل كما تذكرون، كما أعتذر بشدَّة عن تأخري في بعض الأحيان عن المواعيد لأسباب خارجة عن سيطرتي.

أجابه آدم وهو يربِّت على كتفه:

- لا عليك، هذه أمورٌ طبيعية ومتوقَّعة، المهم أنَّنا أنجزنا المشروع.

فأردف أُسَيد كلامه:

- هذا بفضل الله ثمَّ بفضل تعاونكم، ودعوني هنا أشكر عمر بشكلٍ خاصٍّ، فقد كان يسدُّ الثغرات كلّها بتفانيه وإخلاصه، عمر، جزاك الله كلَّ الخير!

احمرَّ عمر خجلاً، ثمَّ قال:

- من الجميل أنِّي حظيت بفرصة العمل معكم جميعاً، أنا ممتنٌّ للغاية، لقد كان الأمر يسعدني كثيراً.

وتبادلنا كلمات الشكر والتقدير على العمل الجادِّ والمهني، والتعامل الراقي والمحترم بين الجميع. بعدها نظر عمر إلى أوراقه مجدَّداً وقال:

- حسناً، سيكون موعدنا غداً عند الساعة الثامنة صباحاً، سنلتقي في القاعة رقم خمسة، هناك حيث سنعرض مشروع التخرُّج أمام بعض الأساتذة، والمهندسين، وسأكون المسؤول عن التجهيزات الأساسية، أمَّا أُسَيد فسيجلب معه التجهيزات البديلة، لتفادي حدوث أي خطأ تقنيٍّ أو فنِّي.

أومأ أُسَيد بالإيجاب، وبينما راح عمر يكمل قائمة المهمَّات والملاحظات الأساسية، نكزتني جود وهمست في أذني قائلة:

- لماذا لا نتَّفق غداً على أن نرتدي لوناً موحَّداً.

ضحكت وأجبتها:

- وهل نحن فريق كرة قدم؟!

وفي تلك الأثناء نظرت بطرف عيني إلى آدم الذي كان يجلس بمحاذاتي، فوجدته ممسكاً بنسخةٍ من أطروحة المشروع، يتأمَّل أسماءنا التي كُتبت على غلافها، بعدها أمسك ورقةً وغطَّى جزءاً من الغلاف تاركاً اسمه واسمي ظاهرين، ثمَّ نظر نحوي، لكنِّي تظاهرت بأنِّي لم أنتبه إلى ما يفعل.

آدم

يوليو 2008– مشروع التخّرج

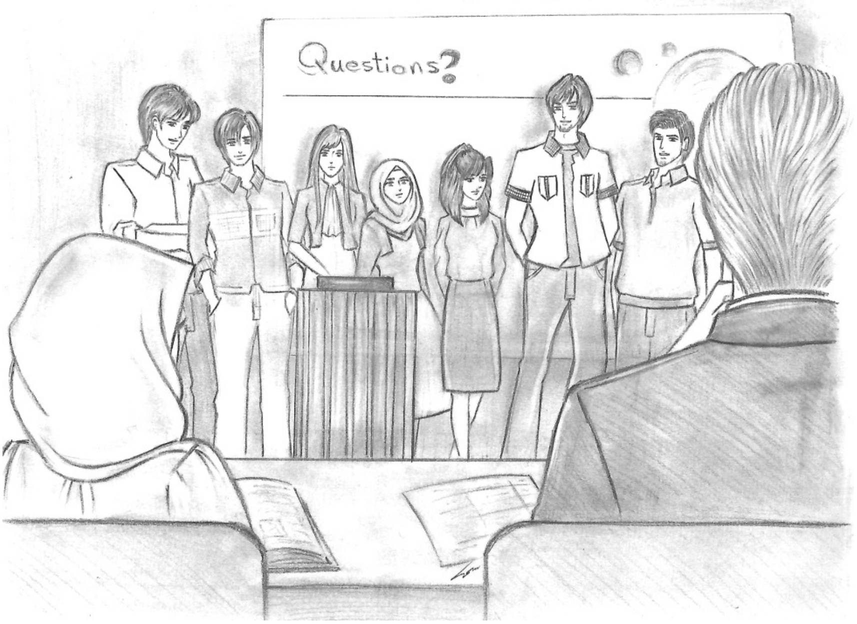

أنهينا مناقشة المشروع وأخيراً، وبعد المباركات والتهنئات من الجميع لحقت بجُمانا، وقلت لها:

– ألف مبارك، كنتِ رائعةً!

– شكراً لك، مباركٌ لكَ أنت أيضاً.

– أنا لن تكتمل فرحتي إلا إذا تحقَّق ما أتمنَّاه.

نظرتْ إليَّ بارتباك ثمَّ ابتسمت، وكانت على وشك إنهاء الحديث معي إلا أنِّي حاولت متابعة كلامي، فقلت لها:

- بالمناسبة، أنا أنتظر لحظة التخرُّج، لسببٍ واحدٍ فقط.

لم ترد، فقلت لها:

- ألن تسأليني ما هو؟
- وما هو؟
- أريد أن أتَّخذ خطواتٍ جدِّيةً في علاقتنا جُمانا.

فأجابتني:

- أهذا ما كان يشغل بالك أثناء المناقشة؟

ضحكت وأنا أجيبها:

- نعم، كيف عرفتِ؟
- لقد كنت شارداً بينما كان الدكتور قيصر يوجِّه الأسئلة لنا، ألم تستطع التركيز لعشرين دقيقة! آدم، لا تتعجَّل الأمور بهذه الطريقة أرجوك، تمهَّل قليلاً!
- لِمَ جُمانا؟ ها قد انتهينا من المواد والدراسة، أودُّ أن أتعرَّف رسميَّاً إلى والديك.
- آدم، لا تتعجَّل!

- أخبريني ماذا عليَّ أن أفعل؟! هل أنا مرفوض من قبلك؟ أم لدي فرصة؟ أنا لا أفهمك جُمانا!

احمرَّ وجهها، لكنَّها تظاهرت بعدم ارتباكها ثمَّ قالت:

- على أي حال، سأسافر بعد أسبوع مع والدي إلى إيطاليا، لذا لا تقلق إن وجدتَ هاتفي خارج الخدمة.
- لِمَ لم تخبريني بذلك؟
- لم أكن أعلم بالأمر حتَّى وقتٍ قريبٍ.
- حسناً، وكم ستمكثين هناك؟
- أسبوعين.
- سأكون بانتظارك، هناك كلامٌ كثير يجب أن نناقشه.
- لا تقلق آدم، لدينا الوقت الكافي، اعتنِ بنفسك.

خفق قلبي بشدَّةٍ من طلبها الرقيق ذاك: "اعتنِ بنفسك!"، ثمَّ ودَّعتها ومضيت.

هل تريدني أن أعتني بنفسي؟ هل يهمّها الأمر بالفعل؟!

جُمان أغسطس 2008

خلال إجازتي في إيطاليا، كانت نتائج الامتحانات تصدر تباعاً، نجحنا في كلِّ المواد، وتخرَّجنا رسميَّاً أنا وجود، وكثير من الطلاب، أمَّا آدم فقد كان ينتظر صدور نتائج لبعض المواد المتراكمة من الفصول السابقة.

لم يكن من الصعب توقُّع بأنَّ يزن سيحصل على المعدَّل الأعلى في دفعتنا، وبالفعل، استطاع أن يحافظ على مركزه حتَّى لحظة التخرُّج، وحظي بلقب الأوَّل على الدفعة، لآتي أنا بعده في المركز الثاني.

حين اتَّصلت بي جود تبارك لي بتخرُّجنا كنتُ في مدينة فينيسيا، سألتني عن تاريخ عودتي بدقَّةٍ كي تحدِّد موعداً لحفلة تخرُّجها التي ستقيمها لصديقاتها، وبما أنَّني أهم صديقة لديها، فهي لن تقيم الحفلة إلا بعد عودتي. لم أعتد أن أكون في حفلاتٍ نسائية، لذا كنت متحمِّسة لحضور حفلتها والتعرُّف إلى صديقاتها القدامى. وبالفعل، أقامت جود حفلتها بعد عودتي من إيطاليا بيومين.

في يوم الحفلة، جهَّزت نفسي وانطلقت بسيارة والدتي إلى منزل جود عند الساعة السادسة مساءً، وأنا أحمل لها هديتها التي اخترتها لها بعناية من إيطاليا، ألا وهي حقيبة فاخرة من العلامة التجارية التي تحبُّها. كنت

مشتاقةً لجود، فقد مضى أكثر من ثلاثة أسابيع لم نتقابل فيها، عندما فتحت لي الباب شعرت كما لو أنَّني في حفلة خطوبة أو زفاف. تهتمُّ جود بالتفاصيل، كان البيت مزيناً ومضاءً بالكامل، أمَّا هي فبدت كعروسٍ بتسريحةٍ جميلةٍ وفستانٍ أنيقٍ للغاية، كنتُ سعيدةً وفخورةً بها.

استمتعتُ بالحفلة كثيراً، فأغلب صديقاتها يغلب عليهن طابع المرح والحماسة، ومن الواضح أنَّ لجود شعبية كبيرة بينهن، وما أدهشني أنَّهن على درايةٍ باسمي وبأنِّي صديقة جود المقرَّبة، فنلت بذلك كثيراً من العناية والاهتمام، كرامةً لجود وخاطر جود.

وعند الساعة العاشرة مساءً كان الجميع قد انصرف، فطلبت منِّي جود البقاء معها لوقتٍ أطول، ولا سيما أنَّ أهلها قد أفرغوا لها البيت، وسيقضون السهرة في بيت جدِّها لوقتٍ متأخِّرٍ من الليل. اتَّصلت بوالدتي لأعلمها بأنِّي سأتأخَّر في عودتي، ومن ثمَّ حاولنا أن نرتِّب البيت بعض الشيء وبعد نصف ساعة تمركزنا في المطبخ، أصرَّت جود على أن أجلس وأتبادل معها أطراف الحديث، بينما راحت هي تنظِّف بعض الأواني والأطباق، قلت لها وهي تعمل بجدٍّ:

- دعيني أساعدك جود!
- لا عليك، لن أنجز كلَّ شيء اليوم، وغداً ستأتي عاملة التنظيف لنكمل المهمَّات معاً.

- حسناً كما ترغبين.
- أتشوَّق لمعرفة ماذا حصل معكما.
- من تقصدين؟
- أنتِ وآدم بالطبع.
- لا شيء جود، لا شيء.
- لماذا؟ لقد مرَّت أسابيع، ألن تتحدَّثا معاً؟
- بلى، هو يحاول الاتِّصال ويرسل إلي دوماً، لكنِّي أتحاشاه.
- لماذا جُمان؟ أين المشكلة؟
- المشكلة أنِّي لم أعد قادرة على إخفاء مشاعري أكثر، وفي الوقت ذاته لا أريد أن تتطوَّر علاقتنا بهذه السرعة، لا رغبة لي بأن أعيش قصَّة حبٍّ بطريقةٍ فجَّةٍ، أخشى أن يتمادى، أنا محتارة جود.
- لكن كيف سيفهم أنَّك تبادلينه المشاعر ذاتها؟
- لا أعلم.
- جُمان، هل تحبِّين آدم بالفعل؟
- نعم!

- إذن، دعيه يعلم بالأمر بطريقةٍ غير مباشرة، لست مضطَّرة إلى الإفصاح عن مشاعرك، إن بقيتِ هكذا قد يصاب باليأس ويظنُّ ألّا فرصة له معك.
- هل تعتقدين ذلك بالفعل؟
- كلُّ شيءٍ وارد. جُمان، بعد أسبوعين ستقام -كما تعلمين- حفلة التخرج لدفعتنا، وستكون حينها الفرصة مناسبة، عليك أن تفعلي شيئاً.
- شيئاً مثل ماذا جود؟
- إن كنتِ تكنين له المشاعر بالفعل، فأنتِ لا تحتاجين إلى من يدلك على طريقة لإيصالها.
- لكنَّ الأمر محرج ومربك.
- أعلم، لكن إن بقيت كذلك ستصله فكرة خاطئة عن حقيقة الأمر، افعلي شيئاً جُمان، ولا تسأليني ما هو، لا تتبنّي أسلوباً مخالفاً لطبيعتك، عبِّري عن نفسك بطريقتك الفريدة.
- حسناً، سأحاول جود، لا أريد أن أخسره، لا أستطيع تخيُّل الفكرة.
- هل اشتقتِ إليه؟

- فوق التصوُّر، لقد كنت شاردة الذهن في إجازتنا، كما تعلمين، فمدينة فينيسيا من أكثر المدن رومانسية، هناك كنت أفكِّر فيه طيلة الوقت، أرى وجهه، وأسمع كلماته، وحين يرسل إلي رسالة أنسى ما حولي وأنا أقرؤها مرَّة واثنتين وعشر مرات.

- إذن؟ لماذا لا ترتبطان بسرعةٍ؟

- ولكن كيف سأطلب منه ذلك؟

- بكلِّ بساطة، دعيه يفهم أنَّك تفضِّلين الارتباط الرسمي.

- حسناً سأحاول، أعدك بذلك.

آدم

سبتمبر 2008

مرَّت الأسابيع السابقة بصعوبةٍ، فرغم أنِّي كنت أراسلها وأتَّصل بها يوميَّاً، لكن في أغلب الأحيان لم تكن تجيبني، أو كانت تجيب باقتضابٍ في أحسن الأحوال. كنت أكرِّر عليها أسئلتي حول مشاعرها تجاهي، لكنَّها ظلَّت تتعمَّد عدم الإجابة بصراحةٍ، لذا عزمت ألا أضغط عليها وأعطيها مزيداً من الوقت، فمن الواضح أنَّها لا تمانع ارتباطنا، فكلماتها معي تَشي بمشاعرها تجاهي، وحتَّى صوتها، وطريقتها أيضاً، لكن ثمَّة ما يجعلها تتروى قليلاً.

وقبل حفلة تخرُّجنا بأسبوع، اجتمعنا نحن طلاب الدفعات كي نستلم ملابس التخرج وننسِّق بعض أمور الحفل، وهناك التقيت جُمانا أخيراً. حين رأيتها أسرعت نحوها، فألقيت عليها السلام، وباركت لها بالتخرُّج، فردَّت:

- وأنت أيضاً، مبارك لك التخرُّج.
- اشتقتِ إليك كثيراً! حمداً لله على سلامتك.

ابتسمت وقالت لي:

- لقد فرحتُ كثيراً بتخرُّجك آدم.
- توقعت أن يردني منك اتِّصالٌ أو رسالةٌ لتباركي لي.
- أنت محق، كان عليَّ أن أتَّصل بك.
- سأبقى عاتباً عليك، حتَّى ولو اعترفتِ بالأمر.

نظرت إليَّ وقالت:

- هل ستفسد فرحتنا بالتخرج؟
- لا تهمني فرحة التخرُّج ما لم تكملها الفرحة الأهم بالنسبة لي.
- وما هي الفرحة الأهم؟
- تسألينني وكأنَّك لا تعلمين.
- أنا بالفعل لا أعلم.

باغتتني بسؤالها، فتجرَّأت وأجبتها بكلِّ وضوحٍ:

- أن تصبحي شريكة حياتي.

أدارت وجهها وابتسمت، فهمست لها بصوتٍ منخفضٍ قائلاً:

- جُمانا، هلَّا نظرتِ إلي!

وبالفعل طاوعتني ونظرت إليّ مجدداً، فقلت لها:

- يجب أن أتحدَّث معك جُمانا.
- للأسف علي أن أنطلق لدي موعدٌ بعد ساعة.
- إذن دعينا نلتقي غداً أو بعد غدٍ.
- سنتحدَّث بالأمر، والآن اعذرني يجب أن أغادر.
- كما تشائين، اعتني بنفسك، وردِّي على رسائلي، أرجوك!
- سأفعل آدم، بالمناسبة هذه لك.

وأعطتني علبة صغيرة، فتحتها مباشرة وأنا مذهول مما أراه، وقلت لها بحماسة:

- شكراً لك جُمانا، محفظة أنيقة جدَّاً، أحبُّ اللون البني كثيراً.
- العفو! يسعدني أنَّها نالت إعجابك.
- وكيف لا تنال إعجابي وهي منكِ! لكنِّي لم أجلب لكِ هدية التخرُّج بعد.
- هذه ليست هدية التخرُّج، إنَّما تذكار من إيطاليا.
- إذن سأتوقَّع هديةً أخرى منكِ؟
- لا أظنُّ ذلك، لا تكن طمَّاعاً.

صمتُ قليلاً، ومن ثمَّ قلت:

- جُمانا، الهدية الأجمل حصلت عليها بالفعل، هدية لا تقدَّر بثمنٍ.

آدم سبتمبر 2008

أتى يوم الحفل، انتهيت من تحضير نفسي ومن ثمَّ انطلقنا جميعاً إلى الحفل؛ أبي وأمي ورشا التي أتت خصِّيصاً لتفرح بتخرُّجي، أمَّا يمان فاتَّصل بي وأخبرني بأنَّه سيلحق بنا حالما ينهي بعض أعماله. وبينما كنتُ أقود السيارة بابتهاجٍ، قلت لهم:

– ستتعرَّفون بعد قليل إلى سعيدة الحظِّ.

ابتسمت أمِّي، ونظرت إليّ وهي تقول:

– طبعاً هي سعيدة الحظ، تلك التي ستحظى بهذا الشابِّ الرائع.

امتلأ قلبي سعادة، بعدها توقَّفت عند محلٍّ للزهور، فسألتني أمِّي:

– لِمَ توقَّفت هنا؟

– لشراء باقة ورد.

– لا ضرورة لذلك، ستحرج الفتاة.

هنا تدخَّلت رشا وهي تدافع عنِّي:

- لا بأس يا خالة، صدقِّيني، فجُمانا هي الثانية على الدفعة وستُكرَّم، لن يبدو الأمر سيِّئاً كما تتخيَّلين.

ضربت أمي كفَّاً بكفٍّ وهي تقول:

- جيل آخر زمان، افعلا ما يحلو لكما!

ضحك والدي ولم يعلِّق، فسألتُ رشا:

- أأجلبها حمراء؟

أجابتني:

- لا تبالغ لهذه الدرجة، اختر ألواناً زاهية، ومع الأصفر بالذات، ليناسب ملابس التخرُّج.
- شكراً لكِ يا أغلى أخت في الدنيا.

وبالفعل اخترتُ الباقة ملوَّنةً كما أشارت إلي رشا، وحين نزلنا من السيارة التقطت وردةً منها ووضعتها على طرف سترة أمِّي، قبَّلتها وقلت لها:

- أنتِ أجمل وردة في حياتي!

ابتسمت والدتي وهي تدعو لي بالتوفيق والسعادة، وعندما دخلت قاعة الحفل، بحثت عن جُمانا، فإذ بي أراها كالأميرة بوقارها وهدوئها واتِّزانها وجمالها، كنت أراقبها طيلة الوقت بإعجابٍ وانبهارٍ، وفي نهاية الحفل كُرِّمَ الأوائل على دفعتنا، ومن ثمَّ حصل فريقنا في مشروع التخرُّج على تكريمٍ خاصٍّ من الدكتور قيصر كأفضل مشروع للعام الدراسيِّ في قسم الهندسة الطبيَّة.

بعد التكريم أُتيحت لي الفرصة للتحدُّث مع جُمانا، فقدَّمت لها باقة الورد وأنا أبارك لها. احمرَّت خجلاً وراحت تلتفت يميناً ويساراً كما لو أنَّها ترتكب جريمةً، ومن ثمَّ سألتها:

- أين والداكِ؟ أودُّ التعرف إليهما.

أجابتني:

- هما في المقاعد الأمامية لكن أرجوك ليس الآن، لم أخبرهما عنك بعد.
- أودُّ أن ألقي السلام فقط، بصفتي زميلك!
- أرجوك آدم، ليس الآن.

نظرت إليها وقد انفطر قلبي، لكن سرعان ما حاولت تناسي الموضوع، فلا أريد إفساد فرحتها عليها، وقلت لها:

- حسناً، تعالي معي كي أعرِّفك إلى أهلي.
- لكنِّي لست مستعدَّةً!
- جُمانا! ما الأمر؟

ونظرتُ إليها مستنكراً جدَّاً ما تفعله، وقفت صامتاً لا أتكلَّم، فوافقت أن تأتي معي بعد أن رأت ردَّة فعلي المستاءة، حينها عاد نشاطي إليَّ مجدَّداً وانطلقنا إلى حيث يجلس أهلي، قدَّمتُ جُمانتي لهم، فقالت لها والدتي:

- لطالما حلمت بأن يكون آدم متفوِّقاً مثلك في دراسته، مبارك يا ابنتي.
- شكراً جزيلاً لك، على أي حال آدم متفوق في أشياء كثيرة!

لم تنهِ إجابتها تلك حتى اعتذرت بأنَّ عليها الانطلاق فمشيت معها بضع خطواتٍ ولم أزعجها أكثر، ومن ثمّ ودَّعتها، وما إن ابتعدت جُمانا، حتى نظرت إليّ رشا وهي تقول ساخرةً منِّي:

- "آدم متفوق في أشياء كثيرة" ليتني أعلم بماذا أنتَ متفوق؟!

وضحكت هي وأمِّي، فسألتهما:

- ما رأيكما بهذه الملاك؟

أجابت والدتي:

- فتاةٌ مهذبةٌ ولطيفةٌ.

فأردفت رشا:

- هي كذلك بالفعل، أسأل الله أن يختار لكَ الخير دوماً يا آدم.

الفصل الثالث

جُمان 	أكتوبر 2008

- سيأتي جاد خلال عطلة آخر السنة إلى هنا.
- هل ما يزال يعيش في أمريكا؟
- نعم، أنهى اختصاصه العام الماضي ويعمل حالياً في مستشفى كبير في لوس أنجلوس.

أجبتها وقد فهمت ما ترمي إليه:

- هذا جميل، أتمنَّى له التوفيق.

استدارت نحوي، وقالت:

- لمَّح والداه أكثر من مرَّة عن رغبتهما في طلب يدك له.
- متى وكيف؟
- خلال السنة الماضية حين كنَّا نلتقي أنا ووالدك معهما، لم أشأ إخبارك بالأمر إذ كنتِ مشغولةً بالدراسة ومشروع التخرج. تعلمين نحن وعائلته أصدقاء منذ زمن طويل، ونحن على توافقٍ تامٍّ معهم، تعجبني أخلاق جاد وطريقة تربيته، ووالداه من أكثر الناس التزاماً بالأصول، أراه عريساً مناسباً لكِ جُمان.

تنهَّدت ولم أجبها على الفور، ولم أشأ أن أتجادل معها، فأمِّي في العادة لا تحبُّ النقاش أثناء قيادة السيارة، فانتظرت إلى أن وصلنا إلى النادي، وهناك وقبل أن نبدأ بجلسة الرياضة، قلت لها:

- أمِّي، هناك شابٌّ ينوي التقدُّم لخطبتي، منذ أشهر وهو يطلب التقدُّم الرسمي.
- ولماذا لم تخبريني؟
- كنتُ منشغلةً بالتخرُّج وتبعاته.
- من هو؟ ومن أي عائلةٍ ينحدر؟
- سأخبرك بالتفاصيل كلها حالما نعود إلى المنزل.
- وجاد؟
- فليبحث عن عروس.
- ماذا تقصدين؟
- لا أرغب بالارتباط به.
- حسناً، ستبدأ الجلسة، هيَّا بنا.

كانت ردَّة فعل والدتي طبيعية للغاية، لم تبالغ في استغرابها كما لم تبدِ ترحيبها بالفكرة، وفي طريق عودتنا لم تسألني عن أي تفاصيل عن آدم، اكتفت بسؤالٍ واحدٍ فقط:

- أهوَ الشاب الذي أهداكِ باقة الورد يوم حفلة التخرُّج؟ تلك التي طلبتِ من سامية أن تجفِّفها وتنسِّقها وتضعها في غرفتك.

نظرت إليها باستغرابٍ مفتعلٍ وأجبتها:

- نعم هو.

وحالما وصلنا إلى المنزل حكيت لها باقتضابٍ وحذرٍ عن آدم، لكنِّي لم أجرؤ أن أخبرها بأنَّه يصغرني سنّاً، كانت تصغي إليَّ بهدوءٍ ولم تقاطعني، وعندما انتهيت من كلامي قالت لي:

- إذن فهو يرغب في زيارتنا.
- نعم، ويلحُّ كثيراً.
- إذن فليأتِ.
- هل يأتي وحده في زيارته الأولى أم مع عائلته؟

فكَّرتْ قليلاً، ثمَّ قالت:

- مع عائلته.

- أرجوك آدم كن دقيقاً جدّاً بالموعد، هذه كلّها نقاط محسوبة بالنسبة لأهلي.
- جُمانتي! سأكون عند الموعد، كيف سأتأخَّر؟ أنا أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر.
- بالمناسبة، أخبرتهما بمواليدك، فلا داعي لتكرار المعلومة.
- حسناً حسناً، كما تشائين.
- تذكَّرت، لا تبالغ بمدحي أمامهما أرجوك، لا ترمي أي نكتة أو غزل مفاجئٍ.
- لا تقلقي سيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام. ثقي بي جُمانا، ودعيني الآن أطلق العنان لسعادتي التي لا مثيل لها على وجه الكرة الأرضية.

لم ترد، فأصابني القلق، سألتها:

- ما بكِ جُمانا؟
- لا تطلق العنان لأي سعادةٍ في الوقت الراهن، أنا لا أعلم موقفهما إطلاقاً، لا ترفع سقف توقعاتك.
- تفاءلي، وابتهجي، لا داعي للقلق.

- ماذا إن رفضوك مباشرة؟

فاجأني كلامها، كان قاسياً نوعاً ما، يبدو أنَّ لوالديها بعض المعايير الخاصَّة والصعبة لذا فهي متوترة، حاولت ألا أظهر لها انزعاجي وسألتها برفقٍ:

- ولِمَ سيرفضونني مباشرة؟

صمتت مجدَّداً ولم تجب، فلم أشأ أن أحرجها وقلت لها بحزمٍ:

- جُمانا، سأفعل المستحيل كي نكون معاً.

تنهَّدتْ، فأردفتُ كلامي قائلاً:

- لدي مفاجأة لكِ.
- ما هي؟
- سأباشر الأسبوع القادم بالعمل في شركةٍ مرموقةٍ لاستيراد وتصدير الأجهزة الطبيَّة.
- بالفعل؟
- طبعاً، أخبرتك مسبقاً أنِّي أبحث بجديَّةٍ عن وظيفة، فمن المستبعد أن أتقدَّم لخطبتك وأنا عاطلٌ على العمل، لا أريد أن يكون موقفي ضعيفاً، ألم أقل لكِ اعتمدي علي؟
- متى حدث ذلك؟

- تعلمين أنَّ دائرة معارفي واسعة للغاية، لم يكن الأمر بتلك الصعوبة، وبما أني شخص اجتماعي يتمتَّع بذكاءٍ اجتماعيٍّ فذٍّ، فقد اجتزت مقابلات عديدة وقُبِلت للعمل في نهاية المطاف في تلك الشركة المرموقة.
- مباركٌ لك آدم.
- بل قولي مباركٌ لنا، هذه أوَّل خطواتِ ارتباطنا، إن شاء الله.

جُمان ديسمبر 2008

أرسلتُ رسالةً قصيرة إلى جود، كتبت لها:

- وصلوا وصلوا يا جود، أراه الآن من نافذة غرفتي وهو يركن السيارة.

أجابتني:

- بالتوفيق، قلبي معكِ. أرسلي إلي الأخبار أوَّلاً بأوَّل.
- بالتأكيد!

وضعت هاتفي جانباً، ومن ثمَّ نظرت مجدَّداً إلى المرآة لأتأكَّد من مظهري وتوجَّهت نحو المدخل، قُرِع جرس الباب، ففتحت سامية واستقبناهم، تبادل الجميع التحية، ومن ثمَّ جلسنا في صالة الضيوف الكبيرة. كانت الجلسة بيننا مريحةً جدَّاً، رفعت سقف آمالي وتوقُّعاتي خلال الجلسة ولمت نفسي على المماطلة إذ سار الموضوع بيسرٍ وسهولةٍ أكثر ممَّا كنت أعتقد. نحن دوماً هكذا نخشى أشياء ربَّما لا تحصل، بل نحاكيها في عقولنا ونعيش تفاصيلها أيضاً. كنت أتوقَّع بعد تلك الجلسة أنَّ كلَّ شيءٍ سيسير على ما يرام وفقاً لما رأيته من ابتسامة والدتي ورضاها، وحين مضوا، عاودت الجلوس مع والديّ، ورحت أنتظر سماع رأيهما،

وبعد عشر دقائق من الصمت غير المبرَّر، بادرت أنا بالحديث وسألت والدتي:

- أمِّي، ما رأيكِ به؟

أخذت والدتي نفساً عميقاً ثمّ قالت:

- الشابُّ رائعٌ ولا يعيبه شيء ولكنَّه ليس مناسباً لك.

انتفضت من مكاني وقلت لها بانفعالٍ:

- لا أفهم أرجو التوضيح.

نظرت إليّ والدتي بحدَّةٍ وهي مستنكرة لأسلوب كلامي معها، أطالت النظرة لبضع ثوانٍ ثمَّ قالت:

- ماذا عليَّ أن أوضِّح بالضبط؟

وجهت نظري نحو والدي كي أرصد ردَّة فعله، إلا أنّه لم يبدِ أي إشارة أو علامة تدلني على موقفه، فعلمت أنِّي وحدي هنا في المعركة، فسألتها:

- كيف عرفتِ أنَّه غير مناسب؟

- يكفي أنَّكِ تكبرينه بعامين، ستسمعين كلاماً مزعجاً ولن تسلمي من التعليقات السخيفة.

- لا يهمني كلام الناس، ولا أقتنع بمعظم عادات هذا المجتمع.

- جُمان! لا تجرِّدي المجتمع من أهميَّته، أنتِ جزءٌ منه ويتوجَّب عليكِ التأقلم معه، ثمَّ لا تنسي أنَّه مدخِّنٌ سابقٌ وقد اعترف

بلسانه، ومن الممكن أن يعود إلى التدخين في أيِّ وقتٍ، علاوةً على ذلك فلا تستهيني بموضوع الحجاب، يبدو أنَّ بيئته ملتزمة وأمّه محجَّبة، ماذا إن طلب منكِ ارتداءه هل ستفعلين؟

- لن يُلزمني بشيء، إن أقدمت يوماً على هذه الخطوة فستكون نابعةً من قرارة نفسي، وليس بطلبٍ من أحدٍ، حتَّى لو كان آدم.

لم ترد والدتي، كما لم يعقِّب والدي ولا بكلمةٍ واحدةٍ. نهضت من مكاني متوجِّهةً نحو غرفتي وقلت لهما:

- حسناً، أنا متعبة، تصبحان على خير.

لم أشأ أن أستكمل الحديث بهذا الجو المشحون، كما أنَّ طاقتي نفدت بالكامل، حملت باقة الورد التي جلبها آدم اليوم وصعدت نحو غرفتي، وحالما أغلقت الباب اتَّصلتُ بجود، فردَّتْ بحماسة وقالتْ:

- بشِّري!
- لا يبدو أنَّ الموافقة ستأتي بسهولةٍ يا جود.
- هل رفضاه؟
- لم يعطيا إجابةً واضحةً بعد، لكن يبدو أنَّهما غير موافقين.
- لا تقلقي، ستقنعينهما بالتأكيد.
- سنرى إن كنتُ سأنجح في ذلك أم لا.

- والآن احكي لي أرجوك. من أتى برفقته؟ ماذا كان يرتدي؟ وماذا جلب معه؟

حاولت أن أبتهج وأتناسى موقف والديّ، وقرَّرت أن أعيش تلك اللحظات بسعادةٍ، فجلست على الأرض بطريقةٍ مريحةٍ، وبدأت أحكي لجود تفاصيل الزيارة:

- أتى مع والده ووالدته، والدته لطيفة جدًّاً، وجميلة وأنيقة، اسمها هناء، أعتقد أنَّها درست الأدب العربي، طولها متوسِّط، دمها خفيف للغاية وتبدو ذكيَّة جدًّاً، أمَّا والده، فهو طويل وأسمر كآدم، يبدو مسالماً جدًّاً.
- جميل جميل، وماذا كان يعمل والده؟
- مهندس ديكور.
- آه صحيح تذكَّرت، تحدَّث عن ذلك في إحدى المرَّات. والآن احكي لي عن حبيب القلب، ماذا فعل وماذا قال؟

أمسكت قلبي وأجبتها:

- آهٍ يا جود، وسيم، وسيمٌ لدرجة لا يمكن وصفها، وأنا متأكِّدة أنَّ والدتي لاحظت ذلك أيضاً، بل وتفاجأت، فقد تعمَّدت ألا أصفه لها قبل الموعد، ولم أعطها أي انطباعٍ عن شكله.
- كيف بدا؟

- تعلمين كم تليق به الملابس الشتوية، عندما دخل، كان يرتدي معطفاً أسود طويلاً مثل نجوم السينما، أمَّا ملابسه، فقد اعتمد مظهراً جديداً لم نعتده عليه! كان يرتدي قميصاً أبيض اللون، وكنزة صوفية ذات فتحة أمامية وربطة عنق، وبنطالاً قماشياً وحذاءً جلديَّاً لونه بني، لا يمكن أن تتخيلي مدى أناقته.
- أيَّاً كان فهو لن يفوق أناقتك، كنت جميلة جدَّاً، بقيت أتأمَّل صورتك التي أرسلتها إلي طيلة الوقت وأنا أدعو الله أن تمضي الأمور على خير.
- شكراً لكِ يا جود، أنتِ الوحيدة التي تقف بجانبي، أشعر أنَّ الجميع سيكون ضدِّي، ادعي لي أرجوك، أنا بحاجةٍ ماسَّة إلى دعائك. سأرسل إليكِ الآن صورة لباقة الورد التي جلبها اليوم.

بحثت عن الكاميرا والتقطت صورة ومن ثمَّ نقلتها إلى جهاز الحاسب وأرسلتها إلى جود عبر الماسنجر، وما إن وصلتها حتى قالت لي:

- ما أجملها! إنَّها متناسبة مع لون ملابسك، أهي صدفة أم متعمَّدة؟
- أعتقد أنَّه تعمَّد الأمر، لكنَّه لم يخبرني، فقد تحايل عليّ خلال آخر محادثة لمعرفة ما سأرتدي، فأخبرته أنِّي أفضِّل اللون السكري أو

الوردي الفاتح في هذا النوع من اللقاءات الرسميَّة، لذا فجلب الباقة مزيجاً من اللون السكري والوردي، يا إلهي، كم هو رائع! أنا سعيدة يا جود، لأنِّي أحظى بهذا النوع من المشاعر، لا أعلم إن كان والديّ سيوافقان على ارتباطنا، لكنِّي أعيش الآن مواقف لم أكن أتوقَّع أن تحدث معي.

- تستحقين الحبَّ والسعادة وكلَّ الخير يا عزيزتي، تفاءلي، سيوافقان إن شاء الله، أدعو الله أن يكتب لكِ الخير دوماً، وأن يجمعك بمن تحبِّين.
- آمين جود، آمين، فأنا...

لم أكمل جملتي حتَّى تنبَّهت بأنَّ اتِّصالاً آخر يردني، فقلت لجود:

- إنَّه هو يتَّصل بي الآن.
- ردِّي وسنتحدَّث فيما بعد، مع السلامة.

جُمان ديسمبر 2008

مضى يوم واثنان وثلاثة، وأربعة بعد زيارة آدم لنا، وأنا أنتظر أن تفتح والدتي موضوع آدم مجدَّداً لنتناقش، لكنَّها لم تفعل ذلك. كان آدم خلال تلك الأيام يتَّصل ويرسل ويستفسر عن الأوضاع، وهو لا يعلم أنَّنا نعيش حالة صمتٍ دائم في المنزل.

لحسن الحظ، فقد تغيَّر الأمر بعد ذلك، وبدأنا بسلسلة نقاشاتٍ مطولة، كرَّر فيها والداي الذرائع ذاتها: فارق السن، واختلاف البيئة، والحجاب، وكون آدم قد تخرَّج حديثاً وما يزال في بداية الطريق، وأنَّه لا يبدو طموحاً للغاية، وبدوري كنت أنا أكرِّر إجابتي بأنَّه يعجبني كما هو، ببيئته، واختلافه عنِّي، ولن أرتبط بغيره، ولا رغبة لدي بالبحث عن شريكٍ مطابقٍ لي في كلِّ مواصفاتي.

مضى أسبوع على هذه الحال وفي نهايته طلب أبي الاجتماع بي، وحين دخلت إلى غرفة المكتب ألقيت التحية وجلست أمامه، هزَّ رأسه ثمَّ قال لي:

- جُمان، ما نزال أنا ووالدتك نرى أنَّكما غير مناسبين لبعضكما البعض، لكن مع ذلك فقد تقصَّيت عن عائلة آدم خلال الأيام

السابقة، وأجد أنَّكِ معجبةٌ به وترغبين في الارتباط به، لذا سأسألك سؤالاً واحداً: هل أنتِ مستعدَّة لتحمُّل نتائج قرارك؟

أجبته بحزمٍ:

- **نعم!**
- إذن فليعاود الاتِّصال بنا.

آدم يناير 2009

سألته بغضبٍ شديدٍ:

- هل تمازحني يمان؟

فأجابني:

- لا تنفعل بهذا الشكل.
- كيف تطلب منِّي ألا أنفعل؟
- لقد تلقيت الجواب اليوم، ما بك؟ أنتَ تعلم أنِّي قرَّرت السفر.
- ظننتك تتهكَّم حين أخبرتني بأنَّك تبحث عن عملٍ في الإمارات، ولم آخذ الموضوع على محمل الجدية.
- أنتَ تعلم أنِّي جاد.

صمت قليلاً وأنا منزعج للغاية ثمَّ سألته بهدوء:

- هل أخبرت رشا بالأمر؟
- ليس بعد، سأعلمها قريباً.

وساد الصمت مجدَّداً، فقلت له:

- لماذا عليك أن تسافر؟ ما هذا المصير الذي اخترته لنفسك ولنا؟ لماذا ستزرع فراغاً في حياتنا وتمضي؟ أنتَ تعلم مقدار أهميتك، أليس كذلك؟
- لا تكن عاطفيَّاً آدم، ولا تقلق ستملأ لكَ خطيبتك كلَّ الفراغات، أمَّا عن والدتك ووالدك، فتركتُ معهما صانع البسمة والسعادة، ومنبع الطاقة الإيجابية، الصاخب الذي لا يهدأ، والمشاغب الذي لا يسكن. آدم! ابقَ كما أنت، ولا تكترث بما كنتُ أزعجك به من تعليماتٍ ومحاضراتٍ وملاحظات، فأنتَ إشراقة البيت وبهجتها، كن كما أنت دوماً، أنا أعتمد عليك.

نظرت إليه والدموع تملأ عيني، يأمرني بألا أكون عاطفياً ثمَّ يتفوَّه بهذه الكلمات. ضممته إلى صدري وأنا أقول:

- هذا ليس عدلاً، ليس عدلاً.

قبَّلت كتفه ومن ثمَّ قبضت على عضديه، ونظرت إليه بتوسلٍ وأنا أقول:

- إن كان ولا بد فأرجوك لا تسافر قبل خطبتي، حتَّى لو لم نقم حفلاً للرجال، إلا أنَّني أحتاج إليك بقربي كي تشاركني فرحتي، أرجوك يمان!

- متى تحدَّد الموعد؟
- بعد ثلاثة أسابيع.
- اطمئن، لن أسافر قبل هذا الموعد.

نظرت في عينيه مجدَّداً، وتمتمت بصوتٍ منخفضٍ:

- تبَّاً للغربة والسفر.

جُمان فبراير 2009

نشترك نحن الفتيات جميعاً بهذا الحلم على اختلاف ثقافاتنا وطموحاتنا وأعراقنا. ذلك المشهد الجميل والرقيق، أميرة متوَّجة في ليلتها يراقصها أميرها على أنغام الموسيقى السعيدة وتتعالى أصوات الجماهير بالتصفيق وكلمات الإعجاب. هذا الحلم هو الحلم المشترك وكلُّ من تدَّعي عكس ذلك فهي تخدع نفسها قبل الناس، هكذا جُبلنا وهكذا ستسري سُنَّة الكون فينا. بالطبع لدينا أحلام وطموحات أخرى، ولكن يبقى هذا الحلم هو العامل المشترك بيننا جميعاً، وها أنا ذا في هذه الليلة سأحيا هذا الحلم وليس مع أيِّ أمير، مع أميرٍ يدخل السعادة إلى قلبي، مع آدم أمير قلبي.

أقمنا الحفلة في منزلنا، فالصالات كبيرة وواسعة. كان قلب آدم يرقص سعادةً فانعكست تلك السعادة على عينيه كما انعكست على عينيِّ. كانت قريبات آدم نشيطات وصاخبات مثله، بإشارةٍ منه يفهمن ما يريده، فتارةً يبدِّلن الأغنية، وتارةً يلتففن حولنا، وفجأةً يصفِّقن معاً وبعدها يزغردن. لقد أضفن أجواء احتفاليَّة لم يسبق لي وشهدتها، ومن بينهنَّ رشا بالطبع، ابنة عمته، انتابني الفضول لأتعرَّف إلى والدتها فسألت آدم:

- أين هي عمَّتك، والدة رشا؟

أجابني وهو يشير نحو امرأةٍ ترتدي فستاناً سماوياً:

- هي تلك الجميلة التي ترتدي فستاناً أزرق، كعروستي الجميلة.
- عن أيّ أزرقٍ تتحدث آدم؟ فستان عمّتك سماوي، وفستاني نيلي!

ضحك ثمّ نظر إليَّ وقال:

- نيلي، وفراتي، وسمائي، ومائي، وحياتي كلّها.

أدرت وجهي ولم أجبه، هكذا هو آدم، سريع في كلِّ شيءٍ، يباغتني بأجوبته وغزله، ويتحرَّك بسرعةٍ، يتحدَّث معي، ويشرب الماء، ويلوِّح لقريباته، وينسِّق الأغاني، ويتفاعل معها ويغنِّي، ويفعل كلَّ ذلك في الآن ذاته، كان كتلةً من النشاط الهائل. في الوقت الذي كانت والدتي وبقيَّة قريباتنا ممتعضات بعض الشيء من كون الحفلة للنساء فقط، فلم تجرِ العادة في عائلتنا أن نفصل الرجال عن النساء في الحفلات. لم أرغب بأن أزعج نفسي بالتفكير بهن، استمتَعن أم لم يستمتعن، هذا لا يهمّ حقّاً.

على أي حال، هنَّ كذلك، لا يتحرَّكن كثيراً ولا يتكلَّمن في الأجواء الصاخبة، لكن لم يمنعني هذا من سماع بعض التعليقات منهنَّ بالذات حين لاحظن أنَّ آدم لم يقترب منِّي كثيراً وهو يراقصني كما يفعل بقيَّة

العرسان في العائلة. كان حذراً، رغم أنَّه ألبسني خاتم الخطوبة بيده، إلا أنَّه ظلَّ حذراً، كذلك الأمر حين قطَّعنا قالب الحلوى.

كيف لي أن أشرح لهنَّ أنَّ الخطبة لا تعطي أي ميزات للعرسان، إن كنت أنا شخصيَّاً غير مدركةٍ لهذا الأمر، لولا أنِّي سألت جود وأعطتني جواباً واضحاً ألا نتجاوز حدودنا، فما نزال غرباء عن بعضنا البعض ما دام أنَّ عقد القران لم يتم بعد، وحينها استنتجت لماذا كان آدم مع فكرة أن نعقد قراننا قبل الخطوبة، الأمر الذي لم يوافق عليه والداي البتة. لا أذكر ماذا كانت حجَّتهما لكن كرَّروا لي مراراً جملة: "دعينا نرى أوَّلاً ماذا سيحدث معك، ولا تستعجلي الأمور".

آدم مارس 2009

- ورد مجدَّداً؟ لا ترهق نفسك دوماً.
- الورد للورد.
- شكراً لك آدم، إنَّه جميل للغاية.
- والآن هل ننطلق؟
- هيَّا بنا.

إنَّها المرَّة الأولى التي نمرُّ بها على الكلية بعد خطوبتنا، فقد جهَّزت جُمانا أوراقها للتقدُّم إلى برنامج الماجستير في قسم الهندسة الطبيَّة، ركنت السيارة ونزلنا، سألتني وهي تراجع ملفَّها قبل تسليمه:

- ألن تقدِّم طلباً لك آدم؟

أجبتها وأنا أضحك:

- أنا بالكاد انتهيت من البكالوريوس، لا رغبة لي باستكمال الدراسة، ثمَّ إنَّ الأعداد محدودة، وسيفاضلون حسب المعدَّل، هل تجدين أنَّ لي فرصة الحصول على مقعد؟ أشكُّ في الأمر.
- جرِّب، لن تخسر شيئاً.

- أحتاج إلى شهر لتجهيز الأوراق والمستندات المطلوبة، ما الفائدة إن كنتُ لا أرغب بذلك بالفعل؟
- حسناً كما تشاء.

وصلنا إلى مكتب تسليم الطلبات، وسلَّمت جُمانا الأوراق للموظفة المسؤولة، ولكن قبل أن نخرج من الكلية دعوتها إلى مقهى الكلية، لطالما جلسنا هناك ونحن نعمل وندرس وبصفتنا زملاء، كنت أرغب في تجربة الأمر ونحن مرتبطان.

- قهوة أم شاي؟
- قهوة.
- من عيوني.

وجلبت كوبين من القهوة وجلسنا، إلا أنَّنا لم نحظَ بهدوءٍ مطلقاً، فقد مرَّ علينا طلاب من السنوات اللاحقة، والذين اعتدنا الحديث معهم خلال السنوات الماضية، فألقوا السلام وباركوا لنا على خطوبتنا، كنتُ سعيداً للغاية، سعيداً بوجودي مع جُمانا، وسعيداً بأنِّي لم أعد طالباً بعد الآن وتخرَّجت أخيراً.

ماجستير! ما لي وما للماجستير!

جُمان أبريل 2009

- يبدو أنَّ آدم قد أخذك منِّي أيضاً، هل يُعقل ألا تسألي عنِّي إطلاقاً؟
- لا يا جود، صدِّقيني لا يمكن لأحدٍ أن يأخذني منك، لكنِّي كنتُ منشغلةً بأوراق الماجستير، كما أنَّ آدم منشغلٍ في عمله أغلب الوقت، نحن لا نلتقي كثيراً، فعليه أن يثبت جدارته في وظيفته، لذا فهو يصبُّ كامل تركيزه بالأمر.
- لا عليك أنا أمزح معك فقط، لقد اشتقت إليكِ كثيراً.
- أخبريني عنكِ؟ هل من جديد؟
- دعيك منِّي الآن، واحكي لي عن الحبّ.

تنهَّدت ثمَّ أجبتها:

- ماذا سأحكي لكِ يا جود؟! لا شيء يضاهي الحبَّ، تكتشفين فيه لذَّة كل شيء للمرَّة الأولى، جميلٌ هو وجود شريك في الحياة، يجد المرء نفسه متحمِّساً لبدء نهاره معه. آدم رائع يا جود، يبتكر ويبدع في إسعادي، رغم أنَّه مقيَّدٌ بالقوانين والمحظورات، فأنتِ تعلمين طبع والدتي وقواعدها الكثيرة.
- هل من جديد؟

- تزعجني والدتي بتعليقاتها المستمرَّة حول شخصية آدم وأسلوبه في العموم، فهي لا تستسيغ تعليقاته ولا نكاته ولا تصرُّفاته. أراها وهي تراقبه حين نلتقي، وتبالغ في إظهار تعاليم الإتكيت في وجوده لتريه كم هو بعيدٌ عن هذه الأجواء، ومع أنَّ تصرفات آدم جيِّدة ومرتَّبة بالمجمل، إلا أنَّه لا يتقيَّد بتلك الطقوس التي لا أظنُّ أنَّ أحداً يطيق العمل بها إلا والدتي!
- يا للبؤس!
- حين نأكل، تكره أمِّي أن يتحدَّث المرء، لم يكن آدم مدركاً لذلك على سبيل المثال، لكنَّه ذكيٌّ جدَّاً، وأدرك مع الوقت أنَّها لا تحبِّذ هذا التصرُّف، وراح يتحاشاه، هو يحاول قدر الإمكان إرضاءها لأجلي. لا يبدي انزعاجه أو استياءه إطلاقاً، فهدفه الأوَّل والأخير أن نبقى معاً، وألا يفرقنا شيءٌ في هذه الحياة. أشعر معه بالأمان، فهو مسالمٌ جدَّاً وحبُّه لي يفوق الحدود.
- ما شاء الله! أنا سعيدة جدَّاً لسماع ذلك.
- في المقابل وعليّ أن أكون صريحة، أنا لا أملك تلك المهارات الاجتماعية التي لديه.
- ماذا تقصدين؟

- سافر أخوه يمان منذ فترة، وكان آدم حزيناً للغاية، لم أستطع مواساته كما ينبغي.
- يكفيه أنَّك كنتِ بقربه.
- أتصدقين؟ لقد قال لي الجملة ذاتها حين شعر بارتباكي وعجزي عن مواساته.
- أرأيتِ؟
- هل تعتقدين ذلك بالفعل؟
- نعم، هو ممتنٌ جدَّاً لوجودك معه، ويقدِّرك ويحترمك كثيراً، ولا يسعى لتصيُّد النواقص، أو افتعال المشكلات، فآدم طبعه هيِّن، والتعامل معه سهل ولين، أتمنَّى لكما كلَّ التوفيق يا عزيزتي.
- شكراً لك يا صديقتي الرائعة.

آدم　　　　أبريل 2009

انطلقنا إلى معرض الكتب الذي أرادت جُمانا أن تزوره للاطلاع على أحدث إصدارات دور النشر العالمية والعربية ولحضور حفل توقيع أحد الكتّاب المفضَّلين لها، أمضينا في المعرض بضع ساعاتٍ، كانت خلالها جُمانا تجمع كتباً وتسأل وتستفسر وتناقش. غادرنا المعرض حين انتهينا أو بالأحرى انتهت طاقتنا، كانت أكياس الكتب التي نحملها ثقيلة، فوضعناها في السيارة وسألت جُمانا:

- هل نستطيع التنزُّه قليلاً؟ الطقس جميل.
- ظننتك متعباً من المشي داخل المعرض.
- يختلف الأمر، فنحن سنمشي في الهواء الطلق.
- كم الساعة الآن؟

نظرت إلى هاتفي وأجبتها:

- إنَّها الثانية ظهراً.
- حسناً سيكون لدينا الوقت الكافي.
- هل لديكِ موعد اليوم؟
- نعم، في الساعة الرابعة مع الدكتور قيصر.

- وماذا يريد؟
- لا أعلم بالضبط.
- لعلَّه سيعرض عليك وظيفة في قسمنا؟
- ربَّما، لم يكتب أي تفاصيل في رسالته.
- إذن فلننطلق الآن.

مشينا بضع خطوات وأنا أتلفَّتُ يميناً ويساراً، فسألتني جُمانا:

- عَمَّ تبحث؟
- عن مسجدٍ.

سألتُ أحد المارَّة، فدلني على مسجدٍ قريبٍ، وحين وجدناه، قلت لجُمانا:

- حسناً، سأصلي الفرض ولن أتأخَّر.
- لا بأس، خذ وقتك، أنا أيضاً سأصلي في قسم النساء.

أومأت إليها وافترقنا، وحين فرغت من الصلاة انتظرتها في رواق المسجد، وبعد عشر دقائق رأيتها مقبلةً نحوي وهي تضع شالاً في حقيبتها، فقلت لها:

- إذن فأنتِ دوماً مستعدَّة.
- نعم.

- هل أصبحن خمس؟
- ليس بعد، في معظم الأحيان هنّ أربع، وفي الحالات الخاصَّة خمس، لكنِّي أحاول الاجتهاد، ماذا عنك آدم؟ هل ما تزال ثلاثاً؟

هززت رأسي ثمَّ أجبتها بخجلٍ:

- لا!
- لا تقل إنَّها باتت أقل؟
- لعلَّ دعوات أمي قد استُجيبت، وأصبحت بحمد لله خمساً!
- هذا رائع، ما هذا التقدُّم!
- هو كذلك بالفعل، أتعلمين؟ لطالما اعتمدت مبدأ أنَّ الإيمان في القلب، والله أعلم بما في صدورنا، كي أتهرَّب من الفرائض لدرجة أنِّي وصلت إلى مرحلةٍ بتُّ أعتمد فيها بشكلٍ كاملٍ على الرجاء والدعاء فقط! أحبُّ الله وأحبُّ رحمته، لكن مع الوقت أدركت ألَّا أتذرَّع بتلك المحبَّة كي أتنصَّل من فرائضي، نعم هو يعلم ما في القلوب لكنَّ على الجوارح أن تصدق ما في القلوب وتطابقها.

أطرقت رأسها وهي تصغي إليّ بهدوء، ثمَّ قالت:

- أحسنتَ آدم، أنت شجاع بالفعل.

- ألأنِّي صريح؟

- شيءٌ من هذا القبيل، صادق جدّاً.

- إذن حدِّثيني كيف تجاهدين نفسك؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد كيف تتغلبين على التلكؤ عن الفرائض؟

- آه فهمت. المشكلة ليست بالتلكؤ يا آدم، إنَّما بعدم استشعار الأهمية وتعظيم الأمر. بمعنى أنَّ نقطة التحوُّل لدي كانت "الفهم" وليس "المجاهدة".

- ومن ساعدك؟ أظنُّها جود، أليس كذلك؟

- نعم، أصبت. أجمل ما في جود أنَّها لم ترني فرصة ذهبية لكسب الحسنات، فالبعض يحاولون نصحك ووعظك لا لأجلك أنت، بل كي تهتدي ومن ثمَّ يكسبون الحسنات التي فعلتها بسبب تأثُّرك بكلامهم. لم تنظر إليّ جود على أنِّي بنك حسنات سيوفِّر لها رصيداً دائماً، كنت واثقةً أنَّ أولويَّة جود إذا نصحتني بأيِّ شيء هو أنا وليس هي، كما أنَّها لا تُظهر ردَّة فعل مبالغة حين أطبِّق ما أتعلَّم، فأحياناً يزعجك بعضهم بسبب ردَّة فعله، بالذات فيما يتعلَّق بالأمور الدينيَّة.

ضحكت وقلت لها:

- نعم، كما لو أنَّكِ أعلنت إسلامك بعد أعوامٍ من الوثنيَّة.
- بالضبط!

تنهَّدت، ثمَّ قلت لها:

- جود فتاة خلوقة ومميَّزة، أتمنى أن تكون من نصيب ذلك الجبان.

نظرت إليَّ، وقد فهمت ما أعني، وقالت:

- ليس جباناً، دعه يأخذ وقته.
- أتظنِّين ذلك بالفعل؟

أومأت إلي بالإيجاب وابتسمت ثمَّ قالت:

- نعم.

وحينها غيرنا الموضوع، فأنا لم أفشِ أي سرٍّ عن عمر لجُمانا، وهي فعلت الأمر ذاته بالنسبة لجود، كنَّا فقط نلمِّح في بعض الأحيان، ولا نتوغَّل بالحديث أكثر، فأنا أشفق على حال عمر وأتمنَّى أن يكون أكثر شجاعةً فيما يتعلَّق بمشاعره. انتهينا من نزهتنا وركبنا السيارة وعند الساعة

الرابعة إلا عشر دقائق وصلنا إلى الكلية، فقالت لي وأنا أبحث عن مكانٍ لركن السيارة:

- لا ترهق نفسك آدم، سأقابل الدكتور قيصر وأعود إلى المنزل.
- سأنتظرك لا بأس!
- لا داعي لانتظاري، أنا حقّاً لا أعلم كم سيطول موعدنا.
- حسناً، لا تحملي الكتب واتركيها في أبريل، فهي ثقيلة.
- أما تزال تسمّي سيارتك أبريل؟ أُيعقل أن تعطيها اسماً؟!
- بالطبع! أُيعقل ألا أعطيها اسماً؟!

ضحكت وقالت:

- حسناً كما تشاء، وداعاً آدم.

ودّعتها وأنا ألوّح لها بحبٍّ:

- في أمان الله.

جُمان أبريل 2009

- مساء الخير دكتور.
- أهلاً جُمان، تفضَّلي.

وجلست على الكرسي المقابل لمكتبه، وبعد تبادل السلام والتحية، قال:

- جُمان! كنتُ أراجع طلبات الماجستير لهذا العام، فوجدت اسمك من بين المتقدِّمين.
- نعم أرغب في استكمال دراستي.
- هذا جميل بالطبع، لكن دعيني يا جُمان أخبرك أنَّ الخيارات أمامك مفتوحة، أقصد مع معدَّلك وتفوقك، فأنتِ مرشَّحةٌ لخيار المنح والدراسة في الخارج، إن كنت ترغبين في ذلك.

خفق قلبي، فضممت أصابع يدي اليمنى ودسستها في جيب سترتي، وأجبته:

- هل هنالك منح محدَّدة؟
- نعم لديّ قائمة بتفاصيلها وشروطها، تستطيعين الاطلاع عليها.

وأعطاني قائمة لتلك المنح وأسماء الجامعات وبرامج الدراسات العليا المناسبة، وقال:

- وإذا لم تجدي ما هو مناسب فما يزال لديك خيار السفر واستكمال الدراسة على حسابك الخاصّ، حينها تستطيعين اختيار الجامعة التي ترغبين فيها.

وراح الدكتور قيصر يشرح لي بعض الأمور، كنت أسمعه وأنا مندهشة باهتمامه. أعلم أنَّني تحدَّثت معه عن استكمال دراستي سابقاً وأخبرته أنَّ هذا حلمي وهو الخيار الأفضل لمستقبلي، ولكن لم أعتقد أنَّه أعطى بالاً لذلك، في نهاية حديثه قال لي:

- جُمان، أنت فتاةٌ مجتهدةٌ ونشيطةٌ وطموحةٌ، وعليك تحمُّل مسؤوليَّة هذه الصفات، وإنَّ السير في الطريق الأكاديميّ هو الأفضل لكِ من بين جميع الخيارات المهنيَّة، وإن كنتِ ترغبين في استكمال دراستك هنا، فهذا شيءٌ ممتازٌ أيضاً، ويتوقَّف الأمر على خططك وظروفك. هل لديك أي ارتباطات هنا؟ هل يوافق والداك على مبدأ السفر بالأساس؟ أنتِ أعلم بكل هذه الأمور، لكن من واجبي بصفتي أستاذك ومشرفك، توجيهك واطلاعك على الخيارات المتاحة.

استنتجت من كلامه بأنَّه لم يعلم بأمر خطوبتي بالأساس، فأبقيت يدي اليمنى في جيبي وأمعنت النظر والفكر بكلامه وحديثه الذي كان يشبه حديث والديّ اللذين لم يفتآ يكرِّرانه على مسامعي ليلاً ونهاراً، إلا أنَّ

لحديثه نكهة خاصَّة، نكهة الثقة، ونكهة العزةَّ، أن يطلب منك أستاذك في الجامعة متابعة دراستك، وألا تضيع مقدراتك فأيّ أملٍ يراه فيك وأيّ ثقة يضعها بك؟! ذكَّرني حديثه بحلمي الأساسي الذي دخلت الجامعة لأجله، استكمال تعليمي والحصول على شهاداتٍ عُليا.

ودَّعته وعدت إلى المنزل والأفكار تكاد أن تأكل رأسي، كان خيار المنح هو الخيار الأنسب لي، تمعَّنت بالقائمة التي أعطاني إيَّاها وقضيت الليلة وأنا أبحث وأطَّلع على برامج الماجستير في الجامعات واحدةً تلو الأخرى، وبعد ساعات اختُصرت القائمة إلى ثلاث خيارات مناسبة. كنتُ مرهقةً للغاية، أمسكت هاتفي لأضعه على وضيعة الصامت قبل أن أنام، فتنبَّهت أنَّه ما يزال على تلك الوضعية منذ أن دخلت إلى مكتب الدكتور قيصر، ووجدت ست مكالماتٍ فائتة ورسالتين من آدم.

"جُمانا، هل عدتِ إلى المنزل؟ أودُّ الاطمئنان عليك" 19:43

"تحدَّثت مع والدتك، وأخبرتني أنَّك بخير، يبدو أنَّك نائمة، تصبحين على خير جُمانتي" 20:55

جُمان يونيو 2009

كنت منشغلةً طوال الشهر الماضي بتحضير أوراقي، وترجمتها وتصديقها وتلك الأمور الروتينيَّة، وفي نهاية الأمر أرسلت الأوراق لطلب منحة دراسيَّة لاستكمال دراستي في فرنسا، لم أخبر آدم بما أفعل، فلا ضرورة لحديثٍ كهذا قبل حدوثه، فاحتمال قبولهم يبدو منخفضاً لأنِّي اخترت الجامعة الأفضل من بين المنح المتاحة، وأردت أن أتحدَّى نفسي بذلك.

كان آدم منشغلاً أيضاً بعمله، ويحدِّثني دوماً عن خيارات المنزل الذي سنعيش فيه بعد زواجنا؛ إيجار، وشقة جاهزة، وبناء جديد، أخبرته أنِّي أفضِّل البناء الجديد، فانغمس في البحث لأسابيع، لكن في يوم ميلادي، أخبرني آدم أن أتفرَّغ لبرنامجٍ طويل. كنت أعلم أنَّه سيحضِّر شيئاً خاصَّاً، لكن أن يكون هذا الشيء الخاص "زيارة مدينة الملاهي" هذا ما لم أتوقَّعه البتة!

وصلنا إلى هناك، وأنا أتساءل: ما الذي جعله يظنُّ أنَّ الأمر سيسعدني؟! لم أطلعه على استيائي، فقد كان يحاول بذل جهده لجعل يوم ميلادي مميزاً، إلا أنَّه لم يفلح للأسف!

وهناك، راح يختار اللعبة تلو الأخرى، بينما كنت أعارضه، فأنا لا أحبُّ تلك الألعاب بالأساس، بقينا على هذه الحال إلى أن مضت ساعتان، بعدها شعرت بالاختناق، وقلت له صراحةً إنِّي لا أرغب بالمكوث أكثر، فاستجاب لرغبتي وغادرنا المكان، حينها انتقلنا إلى الخطوة التالية في برنامجه، وهي تناول طعام الغداء معاً في أحد المطاعم الفاخرة، كانت تلك الخطوة -ولحسن الحظ-أكثر توفيقاً من سابقتها، لكنِّي تمنَّيت لو ينتهي البرنامج عندها، إلا أنَّ ذلك لم يحدث!

خرجنا من المطعم وتوجَّهنا نحو السينما، هناك حيث سيعرض فلماً كوميدياً، مجدَّداً من أخبره أنِّي أحبُّ الأفلام الكوميدية؟

وقفت أمام ملصق الفيلم وقلت له:

- لا آدم، لا أستطيع الجلوس لمدَّة ساعتين لمشاهدة هذا الفلم! دعنا نفعل شيئاً آخر أرجوك.

نظر إليَّ بدهشةٍ وقال لي:

- ما الأمر جُمانا؟ لستِ على ما يرام اليوم.
- لا إطلاقاً!
- أخبريني، هل هناك ما يشغل بالك؟ هل أزعجتكِ بشيء؟
- لا آدم، لكنِّي تعبت.

- هل أوصلك إلى المنزل؟

حزنت لحاله، فلم أشأ أن أكسر بخاطره، فقلت له:

- دعنا نحتسي القهوة في مكانٍ ما، ومن ثمَّ أعود إلى المنزل، ما رأيك؟
- حسناً، لننطلق.

بدا ليس راضياً عن هذا الاقتراح، إلا أنَّه وافقني. ركبنا في السيارة فسألني:

- أتفضلين مكاناً محدَّداً؟
- لا آدم، لا فرق! هو مقهىً فقط.
- خشيت أن أختار مقهىً لا يعجبك، لِمَ غضبتِ؟
- أتقصد أنِّي مزاجية؟
- لم أقل ذلك، جُمانا!

تمالكت أعصابي ولم أرفع وتيرة الجدال معه، فقلت له:

- لا بأس، ربما أحتاج إلى القهوة فعلاً.

ابتسم ابتسامة لطيفةً وقال لي بهدوء:

- من عيوني.

أمضينا في المقهى نحو ساعةٍ واحدةٍ حاول خلالها آدم أن يعود إلى بهجته وحماسته، وأعطاني هدية عيد ميلادي، سوار ذهبيّ لطيف، ورغم أنِّي لا أحبِّذ اللون الأصفر للذهب، إلا أنِّي شكرته وأكَّدت له أنَّ السوار أعجبني.

جُمان يوليو 2009

قرأت الرسالة مرّة واثنتين وعشر مرّات، وأنا لا أصدِّق! الجامعة -والتي أسميتها الحلم المستحيل- تراسلني وتطلب منِّي توصيةً من أساتذتي، ورغم أنِّي لم أحصل على الموافقة النهائية بعد، إلا أنَّ طلبهم لمزيدٍ من الأوراق أشعرني بجديَّة الموضوع أكثر.

جمعت الأوراق المطلوبة وأرسلتها خلال أيامٍ قليلة، ورحت أنتظر، لم يكن شعوري جيداً في تلك الأيام، كنت قلقةً جدَّاً وأرغب في إعطاء المساحة لنفسي للتفكير في الخطوة القادمة: هل سأخبر آدم؟ وهل سيتفاجأ! وكيف ستكون ردَّة فعله؟

بدأت أفكِّر بالدراسة، اللغة، الجامعة، الرحيل، وكلّ شيء! هل سيكون آدم مستعداً للسفر؟! لغة جديدة واستكمال للدراسة! حين أكون معه في السيارة ويبدأ بتشغيل الموسيقى بصوتٍ مرتفع، أشعر أنَّ لدي الرغبة في إسكات هذا المذياع أو تحطيمه كي يتسنى لنا التكلُّم معاً بموضوعٍ أكثر جديَّة. كلامه المبالغ عن الأطفال وعن عشقه لهم بات يزعجني ويضايقني، ففي حال قُبلت حقَّاً هذا يعني استحالة التفكير بطفلٍ إلى أن

أنتهي من الدراسة. بات يخنقني إلحاحه لاختيار المفروشات. أيُّ بيت ذلك الذي سنؤسّسه إن كان احتمال السفر كبيراً!

مضى أسبوعان على هذه الحال، أنا أنتظر جواب الجامعة النهائيّ وهو يضايقني بكلِّ تصرُّفاته دون أن يشعر بذلك حتَّى! لم يكلِّف نفسه عناء النظر إليّ، أو السؤال عمّا يزعجني.

آدم سبتمبر 2009

تحدَّثت مع متعهِّد المنزل الذي سيشتريه لي والدي وبدا لي أنَّ الأمر برمَّته سيستغرق وقتاً أكثر ممَّا كنَّا نتوقَّع، ويحتاج العاملون إلى سنتين كحدٍّ أدنى لينتهوا من البناء. كنت أرغب في شراء منزلٍ جاهزٍ، ولكن فضَّلت جُمان أن يكون منزلنا على الطراز الحديث في المناطق الجديدة، لذا وافقتها، وبعد حديثي مع المتعهِّد قرَّرت ألا أنتظر كلَّ هذا الوقت، وأن أقترح على جُمانا حلَّاً، وهو أن نستأجر منزلاً نقيم فيه ريثما ينتهي بناء وكسوة منزلنا.

حصلت على موافقة أهلي مع علمي علم اليقين أنِّي سأرهقهم بالمصاريف، لكنَّهم تفهَّموا حالتي وأنِّي لن أستطيع الانتظار لمدَّة سنتين.

أردت أن أزفَّ تلك البشرى لجُمانتي وأخبرها أنَّنا سنجتمع قريباً تحت سقفٍ واحدٍ. كانت حماستي تفوق الوصف، تخيَّلت فرحتها، أو ربَّما خجلها، لا أعلم كيف تكون ردَّة فعل الفتاة على هذا الموضوع، لكن ما أعلمه أنَّ شوقها للاجتماع بي يوازي شوقي لها من غير أيّ شكٍّ.

دعوتها إلى الغداء في مطعمها المفضِّل، فقد بتُّ أحفظ تفاصيل جُمان أكثر من تفاصيلي، لم أنتبه إلى نفسي سابقاً إن كنت أفضِّل السلطة بتقطيعٍ

خشنٍ أو ناعمٍ، ولكن أعلم أنَّ جُمانا تفضِّل الخشن. لا أعلم إن كنتُ أحبُّ الطعام بكثيرٍ من البهارات أم لا، ولكن لاحظت وعرفت أنَّ جُمانا تفضِّل الطعام من دون بهارات كثيرة كي تستمتع بالطعم الطبيعي والطازج للخضار. لا يهمُّني إن طغت القهوة على الحليب أم الحليب على القهوة حين أحتسي كوب قهوتي اليوميّ، لكنِّي أعلم تماماً أنَّ جُمانا تفضِّل أن يطغى الحليب على قهوتها. أنا أستمتع بجمع تفاصيلها وأحفظها في عقلي وذاكرتي، بل وفي قلبي. كلُّ ما يخصُّها يحفر بكياني.

وصلت إلى منزلها، وبينما كنت أنتظرها في السيارة، خرجت جُمانا من باب المنزل بابتسامتها الجميلة ووجهها المشرق، وضعت لها ألبومها المفضَّل من الموسيقى الكلاسيكية، ومضينا. كانت جُمانا في الطريق متحمِّسة للتحدُّث في مواضيع مختلفة، ممَّا زاد حماستي وفرحتي بإخبارها بموضوع المنزل وتسريع حفل زفافنا، وقبل أن ندخل إلى المطعم، قلت لها:

- جُمانا، هنالك خبرٌ سارٌّ سأزفُّه إليكِ اليوم يا جميلتي.

فأجابتني:

- وأنا أيضاً.
- يا سلام!

كنت متحمِّساً لسماع خبرها. تُرى هل اشترت فستان الزفاف مثلاً؟ أم أنَّها تضع مخطَّطاً لبرنامج زفافنا، أو مكانه. بقيت أتساءل وأنا في قمَّة سعادتي، فها أنا ذا أعيش أحلامي، من هو أشد حظّاً وتوفيقاً منِّي؟!

جلسنا وطلبنا الطعام ومن ثمَّ سألتني جُمانا:

- آدم، من منَّا سيبدأ بزفِّ خبره السار أوَّلاً؟

رأيت الحماسة تتَّقد من عينيها فلم أشأ أن أردَّها خائبةً، فأجبتها:

- أنتِ بالطبع!

وفي تلك اللحظة، ابتسمتْ ابتسامةً مصطنعةً، وعدَّلت الكرسي وهي تستعدُّ لتخبرني بما لديها، لسببٍ ما شعرتُ بتوترٍ تخفيه، فانقبض قلبي بعض الشيء، ثمَّ قالت وهي تستعيد بهجتها:

- آدم، أخيراً أصبح حلمي حقيقة، سأسافر لأكمل الماجستير، لقد قُبلتُ في منحةٍ دراسيَّةٍ في فرنسا.

لم أفهم ما سمعته! هل هو حقيقي أم خانني سمعي؟

سأسافر! هل قالتْ سأسافر؟! هل سمعتُ فرنسا أم أنَّني أهذي؟!

قطبتُ حاجبيَّ محاولاً أن أركِّز ولم أنبس ببنت شفة، فما أزال أشكُّ بما سمعت. فاستغربتْ جُمانا عدم ردِّي وقالت:

- آدم! هل تسمعني؟

لم أجبها، بقيت جامداً في مكاني، لا أعلم، أأطلب منها أن تكرِّر ما قالته أم أنتظرها لتكرِّره وحدها، علَّها كانت تمزح! لكنَّها سألتني:

- هل من خَطبٍ؟

أجبتها بهدوءٍ وأنا أحاول لملمة نفسي وابتلاع ريقي بصعوبةٍ شديدةٍ:

- جُمانا! ماذا قلتِ للتوِّ، ستسافرين؟
- سأسافر، نعم، ما بالك آدم؟

قلت لها ببرودٍ شديدٍ:

- وماذا تريدين منِّي الآن؟

حدّقت بعينيها وأجابتني كما لو أنِّي أسأل عن أمرٍ بديهيٍّ:

- أن تبارك لي، وتفرح لفرحي، ما بك آدم؟ أنا لا أفهم ماذا حدث لك؟

أبارك لها! أهنِّئها! ماذا عنِّي أنا؟ ماذا عن ارتباطنا! ما بالُها تنسف كلَّ شيءٍ بغمضة عينٍ؟ هل جُنَّت؟ أكملتْ كلامها وأنا أنظر إليها دون أن أحرِّك حتَّى جفوني:

- لِمَ تتعامل مع الأمر كما لو أنَّ الخبر غير متوقَّع، ألا تعلم أنَّني الثانية على الدفعة، وأنَّ حلمي هو إكمال دراستي؟

الآن تذكَّرتْ أنَّها الثانية على الدفعة؟ ومن منعها بالأصل من مُتابعة مسيرها في المجال الأكاديمي، فلتتابع ولكن هنا! سألتها:

- متى حدث كلُّ هذا؟ وأين كنتُ أنا؟ كلّ ما أعلمه أنَّك تنتظرين صدور نتائج القبول للماجستير في كليتنا.
- صدرت النتائج منذ فترة طويلة، وقد سحبت اسمي.
- كيف ولماذا ومتى؟

نظرتُ إليها بغضبٍ شديدٍ، فقالت لي:

- آدم، لا تُظهر لي وجهك العابس، أنتَ تربكني!
- أجيبني: من أين أتت تلك المنحة؟
- لم أتوقَّع قبولي بهذه المنحة، لذا لم أشأ أن أتحدَّث كثيراً عن أشياء لا طائل منها، لا تجعلني مثل المتَّهم.
- أنا! أنا لم أفعل شيئاً، أسألك فقط.
- انظر إلى طريقتك ولهجتك وأسلوبك، لم أتوقَّع أن تكون ردَّة فعلك هكذا! خابت كلُّ آمالي بك! لو أنَّك ترى فرحة أبي وأمي بي. تمنَّيت أن يكون وقع الخبر عليك يشبه وقعه على والديّ.

عمَّ تتحدَّث؟ وما الذي يشغل بالها بالضبط لم أفهم ولم أجبها ولم أدافع عن نفسي، فهذا كلُّه لا يهمُّ الآن، ما يهمُّ هو هذه المصيبة التي تتحدَّث بها، فسألتها بلهجةٍ حازمةٍ:

- ماذا عنِّي أنا؟

أخفضتْ صوتها وراحت تعبث بطرف حقيبتها وهي تجيبني على استحياء:

- عندما يحين موعد سفري وتوضع التأشيرة على جواز السفر، ويندرج اسمي رسميّاً في قائمة طلاب تلك الجامعة، حينها نبدأ بالتفكير ماذا سنفعل، أمَّا الآن فما يزال كلُّ شيء نظريّاً، حتَّى وإن حصلت على القبول والمنحة.

أبدتْ انزعاجها ونظرتْ إليّ منتظرةً أيّ ردٍّ، لكنِّي لم أستطع التحدُّث بشيءٍ، وكان قلبي يخفق بشدَّةٍ، وددت لو أسألها:

لِمَ تفعل بي ذلك؟ لِمَ سمحت لي أن أعيش فرحة ليست من حقِّي؟! هل كنتُ مجرَّد نزوةٍ في حياتها! أم اعتقدت أنَّ لا شخصية لي ولا قرار وأنِّي سأرحل معها ولا بدّ! ماذا عن عائلتي ألا يكفيهم فراق يمان حتَّى أغادر أنا أيضاً، ماذا عن عملي؟ ماذا عن أصدقائي؟ ماذا عن كلِّ شيءٍ؟ أملك كلَّ شيءٍ هنا ولا أملك شيئاً هناك، وهل سأستطيع المتابعة هناك

والعودة من جديد إلى الدراسة هذا إن فرضنا أنَّ هنالك جامعة قبلت بي مع هذا المعدَّل؟!

لا لن أستطيع، فوحده الله يعلم كيف أنهيت السنوات الخمس السابقة. أتى النادل في تلك الأثناء ووضع الطعام أمامنا، ونحن نحدِّق ببعضنا البعض دون أن نتحدَّث، فكسرت الصمت وقلت لها:

- تفضَّلي!

أجابتني وهي في قمَّة انزعاجها:

- لا شكراً، أعتذر، لم تعد لديّ شهيَّة، سأذهب إلى المنزل، وحين تعود إلى رشدك نكمل حديثنا.

ومضتْ دون أن أنتبه إلى ذلك، ودون أن أصرَّ عليها بالبقاء، ودون أن أقول لها وداعاً. تأمَّلت وضعي البائس هذا، بقيت لمدَّة ساعة في مكاني لا أتحرَّك، ومن ثمَّ ناديت النادل، وأعطيته الحساب ومضيت.

خرجت من المطعم متَّجهاً صوب سيارتي، أدرت المحرك فصدح صوت الأغاني من المذياع تلقائيَّاً، لكنِّي لم أتحمَّله، فصفعت زر التشغيل بعنفٍ لأخرسه بالقوة وكأنِّي أحاول إخراس ذلك الألم بداخلي، صرخت بحنق: تبّاً للحبّ، جُمانا ماذا فعلتِ للتوّ؟ ماذا فعلتِ؟

ضغطت على دواسة البنزين بقوَّةٍ فانطلقت السيارة بسرعةٍ جنونيَّةٍ. بقيت ساعتين أنتقل من شارعٍ لشارعٍ بلا هدىً ودون أن أخفف من سرعتي، كان جسدي يرتعش من الغضب، وكنتُ أدرك خطورة ما أفعل لكن لم أتمكَّن من التوقُّف أو السيطرة على نفسي، حتَّى جاءت اللحظة التي شعرت فيها بالعجز التام، ضغطت الفرامل وأوقفت السيارة على جانب الطريق قليلاً لأستعيد توازني وألتقط أنفاسي، جعلت أدق مقود السيارة بعصبيةٍ وأنا أهتف: لماذا؟ لماذا؟

أمسكت صدغيّ بقوَّةٍ وشعرت بأنَّ الدم يكاد أن ينفجر منهما، كان الصداع يأكل رأسي، وضربات قلبي متلاحقة بشكلٍ مرعب، هذا ضغطي اللعين ولا شك، لا ليس ضغطي بل هي، هي من فعلت بي

ذلك، ما الذنب الذي ارتكبته بحقِّها لتفعل ما فعلت؟ تبّاً جُمانا، أنتِ لا تستحقِّين حبي، أنتِ لا تساوين فرحتي بك، يا للبرود الذي خاطبتني به! "سأسافر" وكأنَّ القرار بيدكِ وحدكِ، "أن تباركَ لي وتفرح لفرحي" وماذا عنِّي أنا أيّتها القاسية؟ ماذا عن حبِّي ومشاعري ولهفتي ومستقبلي معكِ؟ ماذا؟ منذ ساعاتٍ فقط كنت أعتقد أنَّني أملك الدنيا لأنَّها معي، والآن ترغبين في التخلِّي عنِّي! هل مشاعري بالنسبة لكِ هي مجرَّد لعبة؟ أين كانت تلك الأحلام حين أخبرتك بحبِّي لكِ وبادلتني المشاعر؟ أين كانت تلك الأحلام حين استمتِ في إقناع أهلك بارتباطنا؟

كاد رأسي أن ينفجر ولا إجابة تشفي صدري، فبعد كلّ هذا الحبّ أنا بالنسبة لها خَيَارٌ لا غير، ورقة إضافيَّة! إن خسرت الورقة الأوفر حظّاً ستستخدمني وإن ربحت فلا حاجة إلي.

لا حاجة إليّ!

كنتُ أصرخ بانفعالٍ داخل السيارة وحدي حتَّى تعبتُ وانهارت قواي، عدتُ أدير المحرك من جديد، وبقيتُ أربع ساعاتٍ وأنا على هذه الحال أجول في سيارتي تارةً، وأوقفها تارةً أخرى لأمشي في الطرقات إلى أن تذكَّرت أمِّي، قلت في نفسي لا بدَّ أنَّها قلقةٌ الآن، بحثت عن جهازي الخليوي، فوجدت أنَّ بطاريته قد فرغ شحنها، فتوجَّهت إلى منزلي

مباشرةً، فتحت الباب فرأيت أمِّي واقفةً عنده ودموعها تنهمر قلقاً علي، حضنتني وحمدت الله على سلامتي ثمَّ بدأت بتوبيخي.

آهٍ يا أمِّي لو تعلمين ما بي لأشفقتِ عليّ، ارحميني اليوم وكفى توبيخاً. اعتذرت منها وقبَّلت يدها ثمَّ توجَّهت نحو سريري مباشرةً.

جُمان — سبتمبر 2009

ماذا يتوقَّع مثلاً؟ أن أرفض منحةً كتلك! أو أرفض جامعةً هي حلمٌ لكلِّ عاقلٍ في هذه الدنيا! كلُّ شيء ينتظر المنزل؛ الزفاف، والأطفال... إلا تلك المنحة، فهي لن تنتظرني وستعثر على آخرين إنْ رفضتها.

حين أخبرت آدم بالمنحة، بدأ مباشرةً باتِّهامي بتدمير أحلامنا ومستقبلنا المشرق، ووضع الحمل على كتفي. قرأت يوماً في رواية ألف شمس مشرقة جملةً حُفرت في ذاكرتي "كما إبرة البوصلة تشير إلى الشمال، فإنَّ أصبع الرجل يجد دائماً امرأة ليتَّهمها". كانت تلك الجملة تحفر في رأسي أكثر وأكثر أثناء حديثي مع آدم فقد رأيتها تتجسَّد أمامي.

منذ أن أخبرته بالمنحة لم تخرج من فمه كلمة "مُبارك" كان مصدوماً فقط. من وقتها حصل نفور في عقلي تجاه آدم، وبدأت أشكُّ في حقيقة حبِّه لي. أن تحبَّ الآخر أن تكون أحلامك هي أحلامه، وأن تسعد لسعادته، هكذا أفهم الحبَّ، ولكن حصل مع آدم العكس.

بعد أربعة أيامٍ من تلك المواجهة بيننا، اتَّصل آدم أخيراً، وطلب مقابلتي، أردت أنا مقابلته أيضاً وتوضيح الأمور بيننا. ذهبت وأنا

مشحونةٌ بكلِّ غيظ العالم لأنَّه وأثناء حديثنا على الهاتف لم يعتذر كما لم يبارك.

جلسنا في السيارة وانتظرت منه المباركة لكنَّه لم يلفظها. بدأتْ النيران توقَد في عقلي أكثر فأكثر، غريبٌ كيف لأمورٍ صغيرةٍ كهذه أن تُبنى عليها قرارات مصيريَّة، ولكن هذه هي الحياة، تراكمات من الأمور الصغيرة تتحوَّل فيما بعد إلى مواضيع مصيريَّة بالنسبة لنا. أردت الحديث في الموضوع، أردت سؤاله عمَّا استجدَّ معه، معاتبته، إخباره بغيظي، ولكن كنت كلما أهمّ بالكلام يطلب منِّي الهدوء لأنَّه يقود، ويقول لي:

- سنتكَّلم حين نصل، أريد أن أركِّز الآن.

الآن فقط أصبحت القيادة بالنسبة له أمراً يحتاج إلى التركيز؟ لم تكن كذلك مسبقاً! كانت القيادة تعني الأغاني وصوته يصدح معها، كانت تعني الهاتف الخليوي في يده. كانت القيادة تحتاج إلى كلِّ شيءٍ منه ما عدا التركيز.

وللمرَّة الثانية، امتصصت غضبي وصمت. كنت أنتظر المرَّة الثالثة فقط لأنفجر. أكملنا طريقنا ووصلنا إلى مطعمه المفضَّل، لا أعلم لماذا يختار أماكنَ غريبة كتلك لنتحدَّث فيها عن مستقبلنا. بدأنا الحديث وأخرج من يده ورقةً، وقال لي:

- لقد نظَّمت أفكاري في هذه الورقة كي لا أنسى ما أودُّ التحدُّث عنه.

هل أصبح الآن يحتاج إلى أقلامٍ وأوراق ليحادثني؟! أعتقد أنَّ هذه الورقة كانت هي المرَّة الثالثة وكنت بعدها مثل القنبلة الموقوتة، بدأ بحديثه بسؤالين:

- جُمان، أخبريني هل ستبقين في ألمانيا مدَّة أطول من السنتين؟ هل ستبقين هناك بعد إنهائك للماجستير؟

أغاظني نداؤه لي بجُمان وليس جُمانا، منذ متى وأنا جُمان! ثمَّ إنِّي سأسافر إلى فرنسا وليس إلى المانيا، هل يودُّ إغاظتي بأنَّه غير مكترثٍ إطلاقاً لأيِّ وجهةٍ سأتوجَّه إليها، أم أنَّه حقَّاً لا يعلم! حتَّى ومع مُساعِدَته تلك الورقة المزعجة لم يكن باستطاعته إدراك تفاصيل الحديث القائم بيننا.

حاولت أن أتجاهل تلك الأمور كي أجيبه، وللحظة مرَّ بي طيفٌ من المستقبل، آدم ينتظرني أو هو معي ويترقَّب انتهائي من الماجستير والعودة إلى الوطن بأقصى سرعة وآتي أنا لأخبره بقبولي بالدكتوراة. سيحصل مثلما يحصل الآن، بل وأكثر. تكرَّر السيناريو في عقلي لما بعد الدكتوراة حتَّى. هل أرغب في إبقاء آدم على أمل أن أعود في يومٍ ما، أخبرته الحقيقة، فقلت له:

- لا أعلم ولكن على الأغلب إن أتتني فرصة لاستكمال دراستي للحصول على درجة الدكتوراة، فلن أتردَّد بالطبع.

ساد بعدها صمتٌ مرعبٌ، شعرت أنَّ الكلمات تأبى الصعود من حنجرته، وفجأةً، بدأ آدم باللوم رشّاً ودراكاً! لستُ لعبةً بين يديك، ولِمَ تتلاعبين بمشاعري؟ وكيف خدعتني؟ أهذه هي مشاعركِ تجاهي؟ وفيضٌ من الاتهامات التي لم أتوقّع أن أسمعها منه إطلاقاً.

أجبته حينها بحزمٍ وأنا في قمَّة غضبي بكلماتٍ لم أكن قد خطَّطت لها البتَّة:

- آدم، إن كنت ترغب في اللوم والعتب من الآن، فمن الأفضل لنا أن ننفصل ولا يحمِّل بعضنا البعض مسؤولية ضياع أحلامه والمستقبل الذي يرغب في بنائه.

أجابني بهدوءٍ قاتلٍ:

- كما تشائين!

حين سمعت كلماته تلك، وقفت من دون تفكيرٍ، ونزعت خاتمي وسلَّمته إيَّاه، ولكن ليس قبل أن أشفي غليلي من تلك الورقة التي وضعها وكأنَّه مدَّعٍ عام وأنا متَّهم، سحبتها من الطاولة مزَّقتها وجعلت القصاصات تتطاير في الهواء، ثمَّ أخبرته:

- انظر، هذا مصير مستقبلنا معاً!

ورحلت. تماسكت حتَّى خرجت من المطعم فقط، بعدها بدأت الدموع بالانهمار. في طريق العودة لم أرغب إطلاقاً بتذكُّر أيامنا السعيدة معاً، رغبتُ في تذكُّر آدم كما كنت أراه منذ أسبوعٍ فقط. أردت مسح كلَّ الماضي الذي بيننا وتذكُّر هذا الأسبوع التعيس. كان شريط الذكريات الجميلة يدور في عقلي؛ أيام المخبر معاً، والمشروع المشترك، وحفلة التخرج، وحفلة الخطوبة، وهمساته لي، وضحكاتنا معاً، ولكن مع هذا لم أستمع إلى تلك الذكريات، وأكملت الطريق.

وصلت إلى البيت منهارة القوى، كانت أمِّي وعلى غير عادتها في المنزل. سألتها عن سبب مجيئها مبكرةً، أخبرتني أنَّها من الآن لن تقضي الوقت

بعد الظهر في العيادة، بل ستقضيه معي في المنزل لتودعني قبل سفري. مرَّة أخرى تجلَّى لي الاختلاف بين الأهل وغيرهم من الناس مهما كانت العلاقة التي تربطنا بهم. اعتذرت لأمِّي عن قضاء هذا اليوم معها، وقبل أن أغلق باب غرفتي قلت واللامبالاة المصطنعة ظاهرةً عليّ:

- بالمناسبة لقد انفصلنا.

لم تعلِّق أمّي، وبنفس اللامبالاة المصطنعة ردَّت:

- الدنيا قسمة ونصيب.

فعلاً، الدنيا قسمة ونصيب، ويبدو ألّا نصيب لنا معاً، أنا متأكِّدة أنَّ لا شيء سيتغيَّر ولا أمل من انتظار أي قرار من آدم يتوافق مع مخطَّطاتي، أعلم كم هو متردِّد فيما يتعلَّق بالأمور العمليَّة والتي لا تخصُّ مشاعره العارمة، فإن بدأ من الآن بالتردُّد، فهذه الدوَّامة لن تنتهي إطلاقاً. تماماً مثل تردُّده يوم اختار مشروع التخرُّج، وكما حكى لي عن تردُّده في أيام دراسته واختياره لمدرسته وكلّ ما هو بعيد عمَّا يحبُّه هو، يتردَّد ويتردَّد ولا يتجاوب مع أحدٍ كما أنَّه يبدو غير متمسِّكٍ بي، فحين أخبرته عن رغبتي لم يتوسَّل أو يحاول.

"كما تشائين"! أهذا هو الجواب الأمثل؟!

يبدو أنَّ الفراق سهلٌ بالنسبة إليه، لم أتَّصل بجود لأبثَّ لها خبر انفصالنا لأنِّي أعلم ردَّة فعلها مسبقاً ولم أكن على استعدادٍ لمواجهة كلماتها. أريد أن أطرد كلَّ الذكريات والأحلام السابقة، وكلَّ العوالم الأخرى وأستعد إلى عالمي الجديد. وضعت رأسي على وسادتي وشعرت أنَّ هموم الدنيا كلّها فوقه، كان هذا هو اليوم السادس الذي لم أحدِّث فيه آدم قبل أن أنام. يبدو أنِّي لن أحتاج إلى عدِّ الأيام بعد الآن، ولكنَّه قراري ويجب أن أكون قادرةً على حمله، لا لأنصاف القرارات من الآن فصاعداً، لا أريد أن يظلم أحدنا الآخر، فليركّز كلٌّ منّا على مستقبله إن كان لكلٍّ منَّا طريقه الخاص.

أمضيت ساعات وأنا أتقلَّب في سريري، وفجأة لاح لي وجه آدم الذي أحبّ، وابتسامته العذبة وروحه الطيبة، فبكيت باختناق، ولسببٍ ما خطر ببالي أن ألقي نظرةً من الشرفة، وكما توقَّعت رأيت آدم جالساً على سيارته، تراجعت بسرعةٍ ودخلت بهدوء، ولا أعلم إن كان قد لمحني أم لا. اضطَّرب قلبي، فجلست على الأرض، وبعد دقائق، نظرت مجدَّداً من الشرفة فلم أجده، يبدو أنَّه قد غادر بهدوء، وحينها تذكَّرت أمراً، وتساءلت: يا ترى ماذا كانت مفاجأته لي؟!

ابتسمت ابتسامةً خائبةً وأنا أرددُّ: لم تعد هنالك أي حاجة إلى معرفتها، للأسف! وداعاً آدم، سأشتاق إليك!

حرقت دمعتي خدي، أغمضت عيني واستسلمت بعدها للنوم.

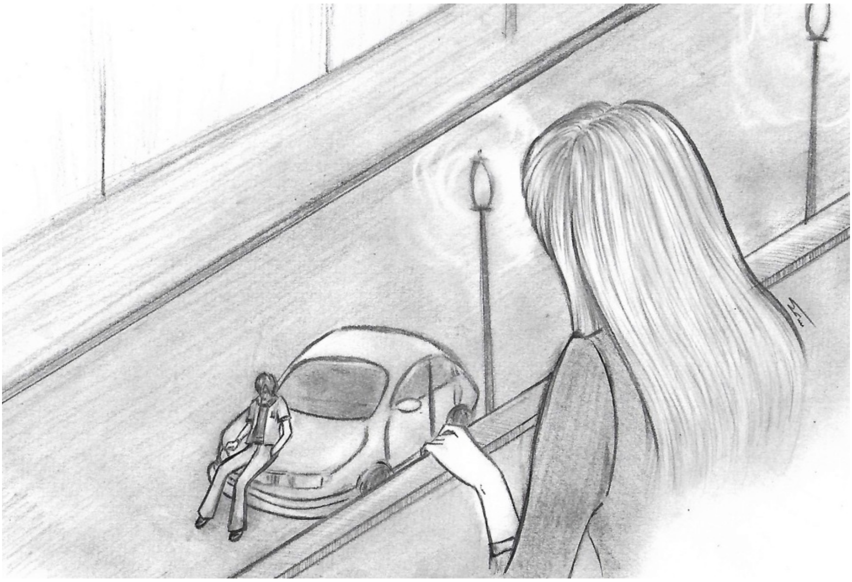

جُمان سبتمبر 2009

مرَّت ثلاثة أيام وأنا أتجاهل مكالمات جود ورسائلها قدر الإمكان، لم تكن لديّ الطاقة لإخبارها بما حدث، لكن حين تمكَّن الألم منِّي لم أجد مهرباً من مواجهتها، فقد كنت في أمسِّ الحاجة إليها، اتَّصلت بها وطلبت مقابلتها، شعرت جود من مكالمتي بأنَّني لستُ على ما يرام، فاختصرتْ الكلام واقترحتْ أن نلتقي في منزلها، وافقتُ وانطلقتُ مباشرةً، حين فتحت لي الباب ذُهِلتْ لما رأته، كان وجهي متعباً والأسى يكتسي ملامحي، ضمَّتني إليها فانفجرتُ من البكاء، وبالطبع بدت جود قلقةً للغاية فتعجَّلتُ بسرد ما حدث كي أرحمها من التخمين. في بادئ الأمر نظرت إليّ باستغرابٍ وسألتني بجديَّةٍ:

- ويحي! هل تمزحين جُمان؟

أجبتها وأنا ابتسم ابتسامةً ساخرة:

- أهذا موضوع أمزح فيه؟ ألا ترين حالي؟

ابتلعت ريقها وقالت:

- جُمان، من منكما ترك الآخر؟

- صدِّقيني لا أعلم، هذا لا يهمّ.
- بل يهم، دعينا نفكِّر كيف سنصلح الأمر.
- ومن قال لكِ أنِّي أرغب في ذلك؟

صرخت غاضبةً:

- إذن ماذا تريدين بالضبط؟

فأجبتها باستغرابٍ:

- ما بكِ جود؟
- ما بي؟ اسألي نفسك هذا السؤال.
- ماذا تقصدين؟
- كيف طاوعتك نفسك لدفع الأمور إلى هذه النهاية؟
- لا أفهمك جود.
- ماذا تتوقَّعين منِّي أن أقول لكِ بالضبط؟ أنتِ مخطئة بما فعلت جُمان.
- جود! هل أنا المخطئة برأيك؟
- طبعاً، كيف تخطِّطين وترسلين أوراقك وأنتِ مرتبطة ولديك شريك.
- أخبرتك لم أعتقد أنِّي سأحصل على القبول.

- لنفرض جدلاً أنَّ حجَّتك تلك مقبولة، مع أنَّها ليست كذلك، لكن دعينا نتجاوزها للحظة، ماذا عن طريقتك بإخباره؟ كيف تتوقَّعين منه أن يذعن وهو قد أكَّد لكِ مراراً بعدم رغبته بالسفر واستكمال الدراسة منذ اللحظة الأولى.
- هل أنتِ ضدِّي أيضاً؟
- لستُ كذلك، لكنَّه ليس لعبةً بين يديك!
- تكرِّرين كلامه، وتتحدَّثين بمنطقه، أكلكم هكذا؟
- ماذا تقصدين بـ "كلكم"؟
- لا أقصد شيئاً.
- بل تقصدين، وأنا أعلم قصدك، "كلكّم" يا ذوي الأحلام التافهة والتطلُّعات السخيفة.
- لا تؤولي كلامي كما تشائين.

ونظرت إليها بحدَّةٍ، فأخفضت نبرة صوتها وحاولت أن تهدأ، ثمَّ قالت لي:

- لماذا ارتبطتِ به إن كان طموحك هو السفر؟ أجيبيني.
- حتى أنتِ يا جود لا تفهميني، ظننتك أقرب الناس إليّ.

أمسكت يدي، وأمالت رأسها ونظرت إليّ بحزنٍ، ثمَّ قالت:

- أنا كذلك جُمان، أنا كذلك، لكن هذا لا يعني أن أجاريك، دعينا نفكِّر بحلٍّ.
- تعقَّدت الأمور ولا فائدة من الحلول.
- أنتِ لم تحبِّي آدم يا جُمان.
- وهل تعلمين ما في قلبي؟
- لو أحببته، لتمسَّكت به!
- حسب منطقك هذا، فهو لا يحبني أيضاً، لو أحبَّني لتمسَّك بي!
- لا يا جُمان يختلف الأمر.
- ألأنَّه الرجل؟ وأنا المرأة، ويحقُّ له ما لا يحقُّ لي؟ لم عليّ أن أتنازل كي أثبت صدق مشاعري؟ ماذا عنه هو؟
- لا تسحبي الجدال إلى تلك المنطقة وتحتمي بها، هو لم يفعل ما فعلتِ.

وحين سمعت جملتها تلك، نهضت من مكاني وقلت لها:

- حسناً، يبدو أنِّي أتيت إلى المكان الخاطئ، كما تشائين.. أنا المذنبة والتي تلاعبت بمشاعر ذاك الفتى البريء، ماذا أيضاً؟ هل أخرجتِ كلَّ ما في جعبتك؟ أم ما يزال هناك المزيد؟
- جُمان اهدئي.

- كيف أهدأ وأنتِ تقفين ضدِّي؟ جئت لأحكي لكِ ما في قلبي لتكوني سنداً لي، وتفهمي مشاعري، فوجدتك تلقين اللوم كلّه عليّ.
- جُمان اجلسي قليلاً.
- لا داعي لذلك.
- افهميني جُمان، لا يمكن أن أجاملك أو ألقي على مسامعك ما تحبِّين، فأنتِ تعلمين طبعي. ما فعلتهِ بآدم ليس تصرفاً نبيلاً إطلاقاً، أخبرتك منذ البداية أنَّ هذا الشابّ عاطفيٌّ لدرجةٍ كبيرةٍ، وقلتُ لكِ تمهَّلي ولا تنجرفي وراء مشاعرك ما لم تكوني متأكِّدة منها.
- تشكِّكين مجدَّداً بمشاعري تجاهه، كما لو أنَّك تعلمين ما في قلبي! ثمَّ ماذا عنكِ أنتِ؟
- ماذا تقصدين؟

وهنا أتتني الفرصة لأنال منها:

- هل تصرفاتك نبيلة دوماً؟ ألم تستقبلي الخاطبات وأنتِ تحبِّين شابَّاً ولا ترغبين بالارتباط إلا به؟ هل كان هذا تصرُّفاً نبيلاً؟ يأتيك الشبَّان واحداً تلو الآخر ليعترفوا بحبِّهم لكِ، فترفضيهم برقَّةٍ ودون حزمٍ ليقعوا في حبِّك أكثر فأكثر، هل هذا تصرُّفٌ

نبيل؟ يلمِّح لكِ عمر مراراً بمشاعره تجاهك فلا تعطينه أيّ جواب، لكي يبقى معلّقاً بكِ، هل هذا تصرفٌ نبيل؟

كنتُ أرغب في متابعة هجومي إلا أنَّها أظهرت وجهاً حزيناً للغاية، ابتعدت عنِّي قليلاً ثمَّ قالت:

- أهذا رأيك بي من البداية؟

امتلأت عيناها بالدموع، وبدأت بالانهيار بغزارةٍ، أعلم أنَّ كلماتي لها قاسية جدَّاً، ولعلّ هذا ما أردته أن أجرح شعورها لتكفّ عن الدفاع عن آدم، فأُسكِتَها وأنهي النقاش لصالحي، لكن يبدو أنِّي بالغت، فأنا أعلم أنَّ اتهاماتي لها ليست صحيحة، وبأنَّها تتصرَّف بعفويّةٍ ولا رغبة لها بإيقاعٍ أحد في مصيدتها، شعرت بالخزي ممَّا قلته لها، كما لو أنَّني طعنتها بظهرها بأسرارٍ كانت تستأمنها لديّ. وضعت يدي على ظهرها وقلت لها:

- جود؟ أنا آسفة!

إلا أنَّها استمرَّت بالبكاء وغرست وجهها بين يديها، وبعد دقيقتين، رفعت رأسها، فقلت لها:

- لم أقصد ما قلته للتوِّ، صدِّقيني.

لم تردّ، فوجدت نفسي في موقفٍ حرجٍ للغاية، وقلت لها حينها:

- حسناً، سأذهب الآن.

لم تردّ ولم تلحّ عليّ بالبقاء، فودَّعتها ومضيت. في طريقي شعرت بأسىً لا يمكن وصفه.

هل سأخسرك أنتِ أيضاً يا جود؟ لا هذا كثير!

جُمان أكتوبر 2009

مضى أسبوعان، تغيَّر كلُّ شيءٍ، لم تعد السماء هي السماء، ولا الصباح هو الصباح ولا الدنيا هي الدنيا ذاتها التي عشتها في السنوات الماضية، حين كان قلبي ينبض لرؤيته، لصوته، لكلامه، لآدم! لكن لم يكن ذلك ليثنيني أو يضعف من عزيمتي، فأنا لن أتراجع إطلاقاً. لم تكن تلك الأشواق التي تهزُّ كياني شيئاً مفاجئاً لي، فقد تهيَّأت نفسيَّاً لما سأعانيه بسبب بعده عنِّي خاصةً بعد أن اعتاد قلبي وجوده حولي. لم أكن أعلم أنَّه عنيدٌ إلى هذه الدرجة!

انقطعت شهيَّتي عن الطعام بشكلٍ جزئيٍّ، ولم أعد أستمتع بالأمور التي أمارسها، لكنَّها فترة وستمرُّ وسأستطيع التحكُّم مجدَّداً بحياتي، ففقدان قليلٍ من السيطرة الآن لن يفتك بي، لكن الأهم هو أن أتفهَّم نفسي وألا أدفعها إلى التظاهر بعدم المبالاة. يرى الجميع تماسكي وقوَّة إصراري، لكن حينما أختلي بنفسي في غرفتي، كنت أفتح العنان لدموعي ولقلبي.

تكره أمِّي البكاء، أذكر تماماً في كلِّ مرَّةٍ آتي بها إلى أمِّي باكيةً كيف كانت تقول لي "لن أستمع إليك وأنت تبكين، توقَّفي عن البكاء وحينها سأسمعك"، كانت تتحدَّث معي وكأنِّي فتاةٌ كبيرةٌ وناضجةٌ، لذا ومن

الطبيعيِّ أن أختفي عن أنظارها في لحظات ضعفي، ولا سيَّما أنَّها من أشدِّ مؤيدي انفصالي عن آدم، أمَّا جود؛ فقد راسلتني أكثر من مرَّة، إلا أنَّني كنت أردُّ ببرودٍ شديدٍ رغم شوقي للحديث معها، وإصلاح ما كُسِر، لكن كنتُ أخشى أن تعاود كلامها وملامها ذاته.

في تلك الليلة، تناولت وجبة عشائي مع والديّ ثمَّ ذهبت إلى غرفتي، وإذ بهاتفي الخليوي يرنُّ، كان هو، آدم! تردَّدت كثيراً وسألت نفسي: هل أردُّ أم لا؟ لا يوجد أي سبب لعدم ردِّي عليه، فآدم لم يخطئ بحقِّي، ولديه حريَّة الاختيار كما أنا.

أمسكت قلبي وأجبت. كان صوته حزيناً للغاية، ومتعباً لأبعد حدٍّ.

- جُمانا!
- أهلاً آدم، كيف حالك؟
- أنا لست بخيرٍ إطلاقاً، جُمانا أرجوك، دعينا نتحدَّث ثانيةً.
- عمَّ سنتحدث؟ آدم، لا حاجة إلى الكلام ما لم تغير رأيك.
- جُمانا، لا بدَّ من وجود حلول أخرى، ما أزال لا أصدِّق ما حدث. صدِّقيني لن ألومك، أرجوكِ فقط دعينا نناقش الأمور برويَّةٍ.

- آدم، لقد حصلت على التأشيرة وسفري بعد أسابيع قليلة، وما أزال ماضيةً في قراري، لا أريد أن أضيِّع وقتك. يجب أن تعلم أنَّ إلحاحك على حلِّ المشكلة يسعدني بلا شك، لكن حين يترافق ذلك الإصرار مع عنادك، فهذا لن يجدي نفعاً. لذا، أكرِّر لك آدم، أنا لا أريد أن أضيِّع وقتك. ستكون أيّ فتاة سعيدةً حين ترى شابَّاً يُصرُّ على مشاعره تجاهها، فما بالك إن كان ذاك الشابّ هو الوحيد الذي نال قلبها. اسمعني آدم، إن كنت متعباً ممَّا حدث فأنا متعبةٌ أكثر!

كان آدم يصغي إليّ دون أن يقاطعني، كنت أسمع صوت أنفاسه السريعة. أعلم أنَّه يتألَّم كثيراً، لكن ليس بيدي حيلة. إن ضعفت الآن وتراجعت عما أخطِّط له، سأظلّ ألومه طيلة حياتي على أنَّه السبب في تحطيم أحلامي. لكن إرهاقه النَّفسي ذاك كسَّر لي قلبي فرأيت دموعي تنهمر من عينيّ.

آدم، ذاك الشابُّ الذي لم يؤذني إطلاقاً، ها أنا ذا قد كسرته بسبب تهوُّري في قصَّة حبٍّ لم أكن أهلاً لها. كان ذلك خطئي منذ البداية حين ظننت أنَّني أستطيع خوض تجربة حبٍّ بتضحياتها وبعدم تكافؤ طرفيها. لم نكن متكافئَين في أحلامنا، ليس أنْ أحدنا على صوابٍ والآخر على خطأ، إطلاقاً! لكن أحلامنا متوازيةٌ ومستحيلة التقاطع. رغم معرفتي بذلك

منذ وقتٍ مبكرٍ لكنِّي ظننت أنِّي سأتجاوز كلَّ الصعاب والعوائق وأتَّبع قلبي فقط، ومع الأسف أخفقت بجدارةٍ!

نعم، فخلال تلك الأيام الماضية كنت أبرِّر لنفسي طيلة الوقت أنَّ ما فعلته الآن هو أفضل له ولي. ذلك خيرٌ من أن نتابع في طريقٍ خاطئٍ وأن نستمرَّ في ذلك الخطأ. حبِّي له كبير وحبُّه لي أكبر، أؤمن بذلك، لكن لن يتمكَّن الحبُّ وحده من تغطية كلِّ المشكلات التي ستواجهنا فيما بعد بسبب قناعتي بأنَّ تضييعي للمنحة تلك يعني الخسارة الكبرى في حياتي، وبسبب قناعته أنَّ حياته هي هنا فقط، وأنِّي أستطيع استكمال دراستي حيث نحن هنا. تابعت كلامي معه دون أن أُشعِرَه بدموعي:

- آدم أرجوك سامحني، لم أكن أودُ أن أُلحِق بحياتك هذه الفوضى، لا أملك أيَّ مبرِّرٍ لما حدث!

قاطعني آدم بصوتٍ متقطِّعٍ مرتبكٍ:

- جُمانا، لا تبكي!
- أنا! أنا لا أبكي!

كيف شعر بدموعي؟ تساءلت قليلاً لكن سرعان ما وجدت الإجابة، لم يكن ذلك غريباً عن آدم. فبغض النظر عمن كان يكبت حزناً أو ألماً، فآدم أوَّل من سيشعر به حتَّى لو لم يشعر به أحد، سيكون بجانبه، سيجد الطريقة المثلى ليشاركه مشكلته تلك وليجد لها حلَّاً، وإن لم يستطع فعلى

الأقل سيجد سبيلاً لمساندته ومواساته. أيُّ قلبٍ ذلك الذي تملكه يا آدم، يا لخسارتي!

أكمل كلامه:

- جُمانا، دموعك غالية، أرجوك لا تبكي..
- إن كانت حقّاً كذلك لِمَ لم تحرص عليها؟
- جُمانا! لا تلوميني أرجوكِ.
- لا ألومك، آدم، ماذا تريد الآن؟
- أريد أوّلاً أن أمسح دموعك.
- لستُ بحاجةٍ إلى من يواسيني أو يمسح لي دموعي، بل لمن لا يتسبب بانهمارها! آدم، لا تكن عاطفيّاً فقط. إن كان لديك ما هو جديد فقله، أمّا أن نكرّر حديثاً مليئاً بالعواطف، والأشواق، والدموع فهذا لن ينفع إطلاقاً! ألستُ محقّة؟
- ربّما..
- آدم، لا أريد أن ننهي علاقتنا بنزاعٍ وتجريحٍ. دعنا نودع بعضنا وداعاً لائقاً لتلك الذكرى الجميلة، الذكرى التي لن أنساها ما حييت لعلاقةٍ جميلةٍ ولطيفةٍ ومحترمةٍ. شكراً لكلِّ شيءٍ تعلّمته منك. شكراً لكلِّ لحظة سعادة شعرتها وأنا بقربك. شكراً لك ولعائلتك، وللطفكم معي، وأخيراً شكراً لحبّك الذي غمر

قلبي. أرجوك، ادع لي بالخير حين تذكرني، أعلم أنَّك ستفعل ذلك دون أن أوصيك. أحتاج إلى دعمٍ ممَّن حولي، فكن ممَّن يدعمني حتَّى ولو على بعدٍ. سأبدأ بمشوارٍ أعلم أنَّه ليس بالهيِّن، لكن سوف أقدِّم أقصى ما لديّ.

- قلبي ودعائي معك، أتمنَّى لك التوفيق جُمانا.
- أحتاج إلى دعائك فقط، لم يعد ليَ الحق بقلبك. أرجوك لا تقيِّد حياتك بذكراي. آدم، أنا اخترت طريقي، فاختر طريقك أنت أيضاً.

بقينا نتحدَّث على هذا المنوال الهادئ إلى أن تحسَّن صوته وهدأ قلبي. كانت زبدة حديثنا عن الوداع والأمنيات الجميلة لكلٍ منَّا، فكلانا لا يريد تغيير الخطَّة التي رسمها لحياته ومن الواضح أنَّ احتمال لقائنا ثانيةً هو احتمالٌ معدومٌ. أغلقت هاتفي الخليوي لأجدنا تحدَّثنا أكثر من أربعين دقيقةً. نظرت إلى وجهي في المرآة فإذا بعيوني متورِّمةً من كثرة الدموع، لكنَّ قلبي سكن كثيراً بوداعه وتأكيد انفصالنا وإقناعه ألا يعاود محاولاته لاسترجاع علاقتنا. في الوقت ذاته، راودني شعورٌ وإيمانٌ أنِّي لن أحبَّ سواه في حياتي.

ADAM
37:02

جُمان أكتوبر 2009

أرسلتُ إليها رسالةً نصيّة:

- سأسافر بعد أسبوعٍ. جود! دعينا نلتقي.

فردَّت مباشرةً:

- هل أنتِ في المنزل؟
- نعم.

لم تمرّ نصف ساعة حتَّى قُرِع الباب، أسرعت وفتحت لها. ضمَّتني إليها وبدأت حفلة البكاء، ثمَّ قالت لي:

- أنا آسفة جُمان.

هززت رأسي ثمَّ أجبتها:

- أنا من عليها أن تعتذر، سامحيني جود، تعمَّدت إزعاجك للدفاع عن نفسي.
- فلننسَ الأمر الآن، فكلٌّ واحدةٍ منَّا نالت من الأخرى، لقد كنتُ قاسيةً معك، كان بإمكاني تمرير الأفكار ذاتها بأسلوبٍ ألطف.

صمتت قليلاً ثمَّ سألتني بحزنٍ:

- والآن أخبريني، هل أنتِ مستعدَّة؟ متى ستباشرين بالدراسة؟ أظنُّ أنَّ الفصل الدراسي يبدأ في أكتوبر أليس كذلك؟
- نعم، سأحاول الالتحاق بالفصل الحالي.
- أتمنَّى لك التوفيق والنجاح دوماً يا جُمان.

انطلقنا إلى غرفتي ورحت أحكي لها عن كلِّ شيءٍ ما عدا عن آدم، كانت جود مهتمَّة بالتفاصيل، تسألني وتستفسر وتتأكَّد من أنِّي سأكون بخير، شعرت بها وهي تخفي حزنها بفراقنا لكن في الوقت ذاته كانت مبتهجةً لأجلي. وبينما كنَّا نتبادل أطراف الحديث فتحت جود حقيبةً كانت معها وبدأت تفرد الأشياء حولي، سألتها:

- ما كلّ هذا يا جود؟
- أغراض عليك أن تأخذيها معك إلى فرنسا.
- متى جمعتها؟
- منذ يوم شجارنا، وبعد أن أفرغتُ حزني بالبكاء، وضعت قائمةً بما سأرسله معك، وبدأت بجمعها.
- حقّاً؟ ظننتك حذفتِ اسمي من قائمة الأصدقاء لديك.
- سامحك الله يا جُمان، وهل أنتِ صديقة عابرة في حياتي؟ أخبريني، ما الضير إن تجادلنا؟ ألا نتجادل مع أحبِّ الناس

إلينا؟ مع أهالينا وإخوتنا! هذا أمرٌ طبيعيّ، وخدشٌ صغير لا يؤثِّر في صرحٍ كبير، بل ويلتئم بسرعةٍ.

- هل سامحتني فعلاً؟

- نسيتُ الأمر جُمان، أنتِ اخترتِ ما يناسبك، ولا أحد يستطيع أن يلومك، لكن كان لا بدَّ من توضيح الأمور، والوقوف مع الحقِّ، هذا كلّ ما في الأمر، تذكري: ليس الصديق من صَدَّقك، بل من صَدَقك، أنا لم أكذب يوماً عليك لأرضيكِ، حين أمتدح أو أنتقد، أنا أعني ما أقول. أليس ذلك أفضل من المجاملة؟

- بل هذا ما أحبّه فيك جود، لكن أخبريني: هل سامحتني على اتهاماتي السخيفة لكِ؟

تنهدت ووضعت يدها على خدها وقالت:

- أتصدِّقين؟ لقد فكَّرت مليّاً بما قلته.

- لكنِّي حقّاً لم أكن أعنيه.

- مع ذلك، كان الحقّ معك فيما يتعلَّق بعمر، عليّ أن أفعل شيئاً حيال الأمر.

- وهل من جديد؟

- لا إطلاقاً، أكرِّس الوقت الحالي فقط لكِ، والآن دعينا نبدأ بـ "مجموعة جود".

أمسكت بالأغراض وفي عينيها دمعة تخفيها وبدأت تشرح بابتهاجٍ:

- أوَّلاً: هذا دفتر ملاحظات، لا تفتحيه الآن، زينته لكِ بطريقتي الخاصَّة، ستجدين بين الصفحات جملاً مكتوبةً بخطِّ يدي، لن أفصح عنها الآن، لكن عندما تقرئينها، اسمعيها بصوتي...

انتشلتُ الدفتر منها وضممته إليّ، فتظاهرت جود بأنَّها لم تنتبه وأكملت:

- هذا الصندوق يحوي كوباً، ضعيه في مكانٍ آمنٍ في حقيبتك كي لا ينكسر.
- هل أستطيع أن أراه الآن؟
- لا! بل في فرنسا.
- حاضر.
- والآن: هذه مقلمة صغيرة تليق بطالبة ماجستير ذكيَّة ورقيقة ومتفوقة مثلك، خذيها معك إلى المحاضرات، اخترت لكِ ألوانك المفضَّلة، أنا أعرفها كلّها.
- كيف سأحضر المحاضرات من دونك جود؟
- ستعتادين الأمر، ثمَّ ألا ترين كم تتطور تطبيقات التواصل؟ سأجلب هاتفاً حديثاً خلال الأشهر المقبلة، وحينها سأستطيع استخدام الانترنت من خلاله، وسنتواصل في أي وقتٍ وأي مكانٍ، لا تقلقي.

- سنفعل ذلك من كلِّ بدٍّ.
- أرسلي إلي كلَّ تفاصيل يومك، وانسي أمر المسافات التي تفصلنا، هي لا شيء، صدِّقيني.

ووضعت يديها على وجهها وراحت تبكي، ضممتها إليَّ ثمَّ قلت لها:

- هيَّا أرني ماذا جلبتِ لي أيضاً؟

أخذتْ نفساً عميقاً، وابتسمتْ مجدَّداً، ثمَّ قالت:

- ساعة خاصَّة مع الآذان، كي لا تُحرمي من سماع الآذان هناك.
- كم أنتِ رائعة!
- التالي: ألبوم صور، افتحيه في فرنسا أيضاً، يحوي بعضاً من صورنا وكلماتنا الخاصَّة التي اعتدنا أن نكرِّرها دوماً خلال السنوات السابقة.
- ما هذه الكنوز يا جود؟ كم بذلتِ من الجهد لأجلها؟
- لا شيء يُذكر يا عزيزتي، والآن: هذا طقم للصلاة، طرَّزته بنفسي، أرجو أن ينال إعجابك، استخدمتُ اللون الأزرق الذي تحبينه.

فتحته، ورحت أتأمَّله بدهشةٍ:

- يا للروعة، لم أكن أعلم أنَّك ماهرة في التطريز.

- ليس إلى هذا الحدّ، لكن لنقل إنَّه "صُنِعَ بحبٍّ".
- جميلٌ جدَّاً. بالمناسبة، سآخذ معي نسخة القرآن الكريم التي أهديتني إيَّاها العام الماضي.
- آه جميل! لا تنسي قراءة سورة الكهف أيام الجُمُع، فهي لم تعد عطلةً بعد الآن.
- إن شاء الله.

ابتسمت ثمَّ أخرجت علبةً صغيرة وفتحتها:

- وهذا حرفنا، الحرف الأجمل في الأبجدية لعلَّاقة مفاتيحك، ستمتلكين بيتاً جميلاً يا جُمان، وستعتمدين على نفسك، تحصَّني دوماً بالأدعية كيفما تحركتِ، وأنتِ تخرجين وحينما تعودين، إذا استوحشت فاستأنسي بذكر الله، أسأل الله أن يحفظك ويسدِّد خطاك دوماً.

ثمَّ أمسكت جود بصندوقٍ متوسِّط الحجم، لونه زهريٌّ فاتح ويحيط به شريطٌ ذهبيّ، بدا الصندوق خفيف الوزن، وقبل أن تقول شيئاً، بادرتُ بالكلام مازحةً وقلت:

- وهذا الصندوق يجب ألا أفتحه الآن، بل بفرنسا.

ضحكتْ جود ثمَّ قالت:

- أخطأتِ.

- ماذا إذن؟

- هذا الصندوق افتحيه بعد أن أغادر اليوم، اتَّفقنا؟

- اتَّفقنا.

صمتنا قليلاً ثمَّ قلت لها:

- لا أعلم كيف أشكرك جود!
- لا تشكريني، هذا أقلّ ما يمكن أن أقدّمه لك، سأشتاق إليكِ كثيراً، وصدِّقيني لن يتغيَّر شيء، سأبقى متربِّعةً على قائمة أصدقائك، وسأثبت لكِ ذلك.
- ليس لديّ صديقة غيرك يا جود، أنتِ تعلمين ذلك.

نظرت إليّ وقالت:

- والآن، ألن تحضِّر لنا سامية أي مأكولات خفيفة، هيَّا لنذهب إلى المطبخ.

أمسكت جود بيدي وسحبتني من اضطرابي ومضينا إلى المطبخ. تساءلت وأنا أمشي خلفها: يا تُرى هناك وحين سأتألم، من سيسحبني من حزني يا جود؟ مَن؟

قضينا بعدها بضع ساعاتٍ معاً، وقبل أن تغادر جود أخبرتني أنَّها ستأتي لوداعي في المطار، فأعطيتها تفاصيل رحلتي ومضت.

صعدت إلى غرفتي وعواطفي متأججة، كنت سعيدةً بأن تعود الأمور بيننا كما كانت، نظرت إلى هداياها الكثيرة والتي تحمل كلَّ الودِّ والإخلاص والصدق، ثمَّ أمسكت الصندوق الزهريّ ونزعت الشريط الذهبيّ من حوله، أخذت نفساً وقلت في نفسي: والآن لنر ماذا خبّأت بكَ جود!

فتحته وابتسمت ابتسامة عريضة، وانهمرت دموعي مجدداً.

تمتمت بثقةٍ وثبات: وصلتْ الرسالة يا جود، وصلتْ في وقتها المناسب، نعم سأفعلها!

آدم نوفمبر 2009

قادتني خطاي إلى المطار، لم تنطفئ نيران الغيظ في قلبي ولكن حبِّي لها أكبر من كلِّ غيظٍ أو غضبٍ. لم أكن أرغب بالتحدُّث معها فالوقت لم يحن بعد، لكن وددت رؤيتها فقط. في قرارة نفسي كنت قد اتَّخذت القرار بانتظارها حتَّى تنهي دراسة الماجستير، سنة أو سنتان لن تقتلا الحبَّ الذي في قلبي لها، فإن لم أستطع أن أكون أباً في العشرينات سأكون أباً في الثلاثينيات، مع أنَّ أحد أحلامي أن أكون أباً بعمرٍ صغيرٍ كي أصادق طفلي أكثر، كنت أريد لطفلي ولي أن ننضج معاً، ولكن هنالك أولويات في الحياة وجُمانتي كانت إحداها.

وبالطَّبع كنت أعرف توقيت رحلتها وعلى متن أيِّ خطوط هي مسافرة، جلست أنتظر، يبدو بأنّي أتيت إلى المطار قبل المسافرة نفسها وكأنِّي أنا المسافر لا هي، أمَّا هي فقد وصلت في اللحظة الأخيرة، كما فعلت حين أخبرتني بقرارها المفاجئ بالسفر في اللحظة الأخيرة، كما فعلت مع والديها حين أخبرتهما بقرار ارتباطنا في اللحظة الأخيرة. تأتي قراراتها وأفعالها دائماً من غير سابق إنذار. هي تقرِّر وترسم الخطط وتبني المستقبل ثمَّ تُعلم الآخرين بتلك الخطط في اللحظة الأخيرة.

حين ظَهَرتْ، كان وقع الصدمة عليّ كبيراً جدَّاً، فقد ظهرت أمامي بحلّةٍ أخرى، مع حجابٍ يزيِّنها، إذن كعادتها اتَّخذت القرار من نفسها. طوال الأيَّام التي كنَّا فيها معاً تجنَّبتُ الحديث معها عن الحجاب، فقد أردت أن يكون الموضوع صادراً عن قناعةٍ تامَّةٍ منها، وكنت أشعر أنَّ موضوع الحجاب يسبِّب لها صراعاً داخليَّاً، لذا كنت أتجنَّب ذكره أمامها. في النهاية عقدت السلام في داخلها وقرَّرت ارتداءه، كم هي خطوة رائعة منها! آمل قريباً أن تعقد السلام في نفسها بالنسبة لي وتعود، لأنِّي أحتاج إليها بالفعل فهي وحدها من تكمِّلني.

لم أستطع السيطرة على نفسي وعلى تلك الفرحة التي اعترتني لاتِّخاذ جُمانا قرارها ووضعها للحجاب لذا أرسلتُ تلك الرسالة إليها: "جُمان، مباركٌ لك تلك الخطوة، وليكن التوفيق والنجاح حليفك دائماً وأبداً".

في هذه المرَّة ذكرت اسمها بالشكل الصحيح لعلَّها تشتاق إلى اسم جُمانا الذي كنت أناديها به.

جُمانا، لن أنساكِ ولن أنسى أيَّامي وأحلامي معك.

LONDO
FRANK
PARIS
BERLI
ROME

الفصل الرابع

جُمان يوليو 2011

استيقظت باكراً، حضَّرت قهوتي ورحت أحتسيها بهدوء في الشرفة، ورغم بُعد برج إيفل عن مكان سكني، إلا أنَّني أستطيع رؤيته بوضوح.

كانت الساعة السادسة صباحاً، أنهيت كوبي ومن ثمَّ رحت أتجوَّل في شقّتي، لأرى إن كان عليَّ ترتيب أي شيء فيها. لا أحبُّ أن أراكم أعمال المنزل، فأنا هنا المسؤولة عن كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، لا يشعر المرء بتلك التفاصيل والأعباء إلا حين يعتمد على نفسه كليَّاً، ورغم أنَّ شقَّتي صغيرة، إلا أنَّ مهمات التنظيف لا تفرِّق بين قصرٍ أو غرفةٍ.

أفرغت غسَّالة الصحون، ووضعت الملابس النظيفة في مكانها، ومن ثمَّ كويتُ ما سأرتديه اليوم في الجامعة، إنَّها المهمَّة الأكثر إزعاجاً، وكي أتناسى هذا الإزعاج، فتحت جهاز الحاسب، وشغَّلت بعض أغاني فيروز، فصدح صوتها في أرجاء غرفتي ورحت أدندن معها.

لقد مضت قرابة السنتين منذ أتيت إلى هذه البلاد، ومنذ أن وصلت إلى باريس باتت الحياة مختلفةً، يدفعني كلُّ شيءٍ إلى أن أتحدَّى نفسي دائماً. من حسن حظِّي أنِّي تعلَّمت اللغة الفرنسية في طفولتي، ممَّا جعل الأمر

أيسر عليّ. لم تكن المواد في برنامج الماجستير بهذه الصعوبة لكنَّها كانت مزعجةً في بعض الأحيان، فحلقات البحث وكثرة المشاريع مرهقة بعض الشيء، وكانت المقارنة أمراً لا مفرَّ منه؛ المكتبة، الطلاب، الكلية، الدراسة، المواد. لم أشعر بالانتماء إلى هذا المكان سريعاً، فما تزال كليَّتي هي تلك التي درست فيها الهندسة الطبيَّة مع أصدقائي وزملائي، وليست هذه التي في فرنسا، ومنذ البداية كنت مدركةً أنِّي لن أجد صديقةً وفيَّةً مثل جود، ولن أجد منافساً متعاوناً مثل يزن، ولا زميلاً كريم الخلق وحسن المبسم مثل عمر، ولا فتاةً مرحةً مثل ليلى، ولا شاباً متَّقد الذكاء والحكمة مثل أُسَيد.

أمَّا آدم، فما يزال خياله يلوح لي، كيف لا؟ وأنا أفتقده جداً! أتمالك زمام مشاعري أحياناً وتشغلني دراستي عن تلك الأفكار، لكن في المقابل تمرُّ بعض الليالي عصيبةً عليّ، وذلك حين تهبُّ رياح الشوق على قلبي، وإلى الآن أستيقظ كلَّ يومٍ وأنا على أملٍ بأنِّي سأجد رسالةً أو مبادرة منه، ولهذا السبب بالتحديد ألغيتُ كلَّ حساباتي على مواقع التواصل الاجتماعيِّ، لا أرغب بقضاء وقتي وأنا أنتظر تعليقاً، أو رسالةً أو حتَّى "أعجبني"! كما لا أريد مطاردة صوره وأخباره هنا وهناك. إن كان يرغب في التواصل حقَّاً فبإمكانه إرسال رسالةً عبر البريد الإلكتروني، من يبحث عن شيءٍ يجده إن رغب هو بذلك.

سرحت قليلاً، وكدت أحرق القميص بالمكواة، فتنبَّهت وعدت إلى الواقع. أخذت نفساً عميقاً، وفتحت خزانتي لأنتقي ألواني، نظرت إلى أَحْجِبَتي الجديدة التي اشتريتها في الآونة الأخيرة، ابتسمت وأنا أذكر تعليقات والدتي حول حجابي، هي ما تزال غير مقتنعة بهذه الخطوة، ظنَّت أنَّها نزوة وأنِّي سأتخلَّى عنه حالما أصل إلى فرنسا، لذا لم تعارض في وقتها قراري، ما أدهشني أنَّها استخدمت الأسلوب ذاته مع آدم، فقد صرَّحت لي بالصدفة أنَّها وافقت على ارتباطي به لأنَّها كانت متأكِّدة من انفصالنا، لذا لم تشأ أن تكلِّف نفسها عناء الجدال معي، وفضَّلت أن أتراجع عن الأمر بنفسي، للأسف صدق حدسها في ذلك الحين. لكن مع الحجاب كان الأمر مختلفاً بحمد لله، ولحسن الحظ، خاب ظنُّها في تلك.

تأكَّدت من أنِّي ثبَّت حجابي جيداً، وقبل أن أغلق باب الشقَّة، بحثت عن مفاتيحي لأتأكَّد أنَّها في حقيبتي. وحين وجدتها، أغلقت الباب وانطلقت وأنا أبتسم بتفاؤلٍ ورحت أسرد بعض الأدعية، فلاح لي وجه جود.

جود! اشتقتِ إليكِ كثيراً. لا أصدِّق أنَّ عشرين شهراً قد مضوا بالفعل، ولم نلتقِ وجهاً لوجه. يؤلمني أنِّي لم أتواجد معها في حفل خطوبتها، ولن أكون معها في حفل زفافها، فبعد كثيرٍ من الأخذ والردِّ والتردُّد والدلال من قبل جود، ارتبط الاثنان وأخيراً، عمر وجود، وسيقام حفل زفافهما في سبتمبر، وللأسف لن أتمكَّن من حضوره بسبب ضغط العمل في رسالة الماجستير.

جُمان سبتمبر 2011

في صباح اليوم التالي لزفاف جود، اتَّصلت بوالدتي كي تخبرني أكثر عن فرحة عمر وجود، وبينما كانت والدتي تحكي لي بعض التفاصيل عن زفافهما، لم تستطع إلا وأن تقترب من منطقة الخطر لقلبي، إذ قلبت الحديث فجأة إلى موجةٍ ثانيةٍ:

- أتعلمين؟ كان قرارك صائباً، وهذا ما تأكَّدت منه البارحة بأمِّ عيني.
- ماذا تعنين؟ لم أفهم!
- أعني انفصالك عن آدم.

اضطَّربت دقات قلبي حين سمعت اسمه، صمتُّ ولم أسألها، فأكملتْ الحديث:

- هذا الشاب، كلَّما كبر، أصبحت تصرفاته أكثر صبيانيَّة!

لم أحتمل تلك الكلمات فسألتها بلهجةٍ متوترةٍ:

- ما الذي فعله لتتحدَّثي عنه بتلك الطريقة؟
- لو رأيته كيف كان يرقص، وَيلي إن كنتما مرتبطين، كيف سأقول إنَّ هذا صهري؟!

خفق قلبي مجدَّداً حين سمعت كلمة "صهري"، لا، لم يعد صهرك ولن يكون صهرك يا أمِّي.

آدم! أنا متأكِّدة أنَّ جميع الفتيات لم يستطعن إلا مراقبتك، كما كنتُ أراقبك أنا، وكما كانت تصرفاتك تلفتني إليك. أجبت والدتي بينما هي مسهبةً بشرح رقصاته وحركاته الطفولية وغير المناسبة لمهندسٍ بالغٍ مثله:

- أمِّي، ما لنا وله! لقد انفصلت عنه وانتهى الأمر، أرجوكِ لا تتحدَّثي عنه بتلك الطريقة، هذا يزعجني.
- أنا لا أتحدَّث عنه بسوءٍ، بل أؤكِّد لك صواب قرارك.
- لا داعيَ لذلك، أنا لست متردِّدةً لتدعميني.
- لكنَّك حزينة.
- ومن قال لك ذلك؟
- أنا أمُّك وأشعر بك.

آلمني قلبي، وغرغرت الدموع في عينيّ، كنت على وشك البكاء، لكنِّي تراجعت وأجبتها:

- أشكرك يا أمِّي، أنا بخير، ولا حاجة إلى أن تؤكِّدي لي أيَّ شيءٍ، أنا لا أتواصل مع آدم، فلا تقلقي! وهو لم يؤذني بتاتاً، لذا أرجوك لا تتحدَّثي عنه بالسوء.
- حسناً جُمان، اعذريني، وكوني بخيرٍ!

صمتت قليلاً، ثمَّ أردفت كلامها قائلةً:

- والحقُّ يقال، لقد أقبل إلى الطاولة التي كنَّا نجلس إليها أنا ووالدك، وألقى السلام بأدبٍ واحترامٍ.

لِمَ تسترسل أمِّي بهذه التفاصيل وأنا بالكاد أتماسك؟ لم أجبها حول ذلك الموضوع، بل حاولت إنهاء المكالمة قائلة:

- حسناً، يجب أن أغادر الآن اعذريني، سلامي لأبي وقبلاتي الحارَّة لكما.

وما إن أغلقت هاتفي، حتَّى نظرت إلى المرآة وتساءلت: أأبكي أم لا!؟ إن كنت سأبكي فلماذا؟ وما الفائدة؟ لكن مهلاً، منذ متى وأمِّي تتحدَّث بهذه الطريقة؟ ليست من عادتها أن تذمَّ شخصاً لم يفعل لها شيئاً، ولا يعنيها، ولا علاقة لها به. فكَّرت قليلاً، أتعتبر أنَّ زواج جود سيجعلني أذكر تلك المشاعر وتلك الأحلام؟ ألا تعلم أنِّي لا أربط الأمور ببعضها

بتلك الطريقة! أم أنَّها تشعر بالأسى عليه؟ أم ربَّما عليّ؟ لا أدري. لا بدَّ وأنَّها كانت تراقبه طيلة الوقت، بدافع الفضول لا غير.

أشعل كلامها عن الزفاف في قلبي حنيناً كبيراً، فتحت ألبوم الصور الذي أهدتني إيَّاه جود قبل سفري، ورحت أقلِّب صفحاته. لقد تعمَّدت جود ألا تضع أي صورة يظهر فيها آدم، ورغم محاولات جود في انتقاء الصور، وقصِّها وتحريرها، إلا أنَّ صورة واحدة أفلتت منها دون أن تتنبه إليها. أذكر يوم فتحت هذا الألبوم للمرّة الأولى وأنا في رحلتي بالطائرة إلى فرنسا، يومها أثارت الصور عواطفي ودفعت دموعي للنزول رغمًا عنّي، ورغم كلّ الدموع استطعت أن ألحظ تفاصيل تلك الصورة. أذكرها جيداً، إذ التقطتها لنا إحدى زميلاتنا قبل بدء المحاضرة في سنتنا الثانية، ونحن جالستان على مدرج القاعة، ولأنَّ جود كانت تحبُّ تلك الصورة كثيراً، وضعتها ولم تلحظ أنَّ من يجلس خلفها، هو آدم!

تأمّلت معصم آدم في طرف الصورة الأيسر، أصابعه النحيلة السمراء وذلك الشريط المميز حول معصمه الدقيق، أحبّ هذه الأشرطة رغم غرابتها وأعرف أن آدم يفضّلها، لم يغيّر هذا الشريط بالذات رغم قدم الصورة وظل يرافقه لسنوات، كان يرتديه يوم انتقينا خواتم خطبتنا، ما تزال صورته عالقة بعينيّ وهو يريني خاتمي بعد أن حفر عليه أول

حرف من اسمَينا. وجهك غائبٌ في تلك الصورة يا آدم، ذلك القليل منك كفيلٌ بإشعال اضطرابي في كلّ مرة أقلّب بها صفحات الألبوم، لطالما فكّرت أن أمزق هذه الصورة وأريح نفسي، لكن أجدني أتراجع في اللحظة الأخيرة وأقول في نفسي: حتّى ولو أزلت صوره من كلِّ أجهزتي وألبوماتي، كيف لي أن أزيلها من قلبي؟

جُمان نوفمبر 2011

كانت المرَّة الثانية التي أقف بها أمام لجنة تحكيم لمناقشة مشروع التخرُّج، وهذه المرَّة لنيل شهادة الماجستير. لا يكون الأمر مرهباً للغاية هنا، فعدد الطلاب الذين يحضرون المناقشة قليل، وكنت قد تدرَّبت على العرض التقديميّ مرَّاتٍ عديدة أمام مشرفي وزملائه.

مشرف رسالة الماجستير في العادة هو طالب دكتوراة ضمن مجموعة تابعة لبروفيسور، وكانت مجموعتنا تحت إشراف البروفيسور جوستاف، هو شخصٌ وقورٌ، تعاملت معه قليلاً حين درَّسنا بعض المحاضرات، لكن لا أعتقد أنَّه يحفظ اسمي، ربَّما فقط شكلي، فأنا الوحيدة التي أرتدي الحجاب في هذه المجموعة من الطلاب.

كان البروفيسور جوستاف والمشرف الخاصّ بي ضمن لجنة التحكيم. حين بدأتُ بالمناقشة كنتُ أراقب ردود أفعال البروفيسور جوستاف، لم أشعر حينها أنَّه ينظر إلى هيئتي أو حجابي، كان طبيعيَّاً وحياديَّاً في التعامل معي، ولعلَّ مشرفي قد مهَّد له قبل المناقشة أنِّي من المتفوِّقات.

عشرون دقيقةً ومن بعدها الأسئلة، أجبت وناقشت، ورأيت البروفيسور وهو راضٍ عن عملي ومشروعي وأطروحتي. كنت متأكِّدة من أنِّي سأحصل على العلامة الكاملة. وفعلاً، هذا ما حدث، تفوَّقت بجدارةٍ على جميع زملائي الذين تخرَّجوا معي، وبعد مرور يومين وصلني بريد إلكترونيّ من البروفيسور يخبرني فيه بأنَّه يودُّ مقابلتي. حين ذهبت إلى الموعد وتحدَّث معي البروفيسور كانت فرحتي لا توصف، فقد عرض عليَّ أن أعمل باحثةً لديه في القسم، وأن أبدأ برسالة الدكتوراة لأتمَّ بحثي الذي بدأته في أطروحة الماجستير. كان جوابي له أنِّي سأفكِّر، فقد راسلت كثيراً من الجامعات في أوروبا ووصلتني ردودٌ مختلفةٌ، ورغم ذلك، علمت في قرارة نفسي أنِّي سأبقى في كليتي الحاليَّة فقد اعتدت المكان، وإن بقيت هنا فلن أضيِّع الوقت، بل سأباشر في بحث الدكتوراة بعد أسبوعٍ فقط، فهنا أعرف الجميع، ولن يتغيَّر موضوع البحث كثيراً، لذا ستكون الأمور في البداية ميسَّرة وليست صعبةً كما لو ذهبت إلى مكانٍ جديدٍ.

لذا وبعد يومين، أرسلت إلى البروفيسور رسالةً تتضمَّن موافقتي على عرضه، ومن ثمَّ وقَّعت العقد واستلمت مكتبي الجديد بغضون أيام. كان المكتب متوسِّط الحجم، تطلُّ نافذته على الشارع العام. وفي يومي الأوَّل، وقفت أتأمَّل المكان من نافذة مكتبي، وأتساءل: هل سيتصل بي ليبارك أم لا؟!

كان هذا السؤال يجول في خاطري منذ يوم تخرجي. سألتني جود مستنكرةً حين أخبرتها عن تساؤلاتي تلك:

- كيف سيعلم بتخرُّجك؟ إن كنت قد أغلقت كلَّ الوسائل بوجهه!

أجبتها وأنا أنتظر خططها الجهنميَّة التي اعتادت أن تحيكها حين نودُّ الوصول إلى شيءٍ:

- ألا من طريقة؟
- لا جُمان، لا أستطيع أن ألقِّمه إيَّاها، سيشعر بأنَّ الأمر مدبَّر.
- أعلم، أعلم! لكنَّه كان يعلم أنَّ تخرجي قريب، ولذلك لم أحضر حفل زفافك.
- وما الذي يؤكِّد لك ذلك؟
- ليلى تعلم بالأمر، وهذا يعني أنَّه يعلم من كلِّ بدٍّ.

- معك حق.
- إذن، لِمَ لا يسأل عنّي؟
- اسمعي، فعِّلي حسابك على الفيسبوك مجدَّداً، واتركي الباقي لي.
- حسنا سأفعل، أعتمد عليك.

وفعلاً، ما إن أعدت تفعيل حسابي على الفيسبوك، حتَّى وضعت جود لي صورةً وأنا بحفلةٍ صغيرةٍ أقيمت لي مع زملائي في القسم، وكتبت تحتها:

"مباركٌ التخرُّج لأحلى جُمان في الدنيا".

جُمان نوفمبر 2011

كان ذلك في الأسبوع الثاني بعد بدئي بمشوار الدكتوراة، عندما أغلقت الهاتف، نظرت مجدَّداً إلى قائمة الاتِّصالات الواردة، ورحت أضرب كفَّاً بكفٍّ. هل اتَّصل بي آدم حقَّاً، حاولت أن أستعيد ما قاله، يا للبؤس! كم أنا غبيَّة!

جلست قليلاً، وحاولت استذكار ما حدث منذ أن رنَّ هاتفي ورأيت اسمه بحروفه الأربعة Adam.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- كيف حالك جُمان؟
- أنا بخير، ماذا عنك؟
- بخير!

وصمتنا كلانا، لكنَّه على ما أذكر سألني:

- ما أخبارك؟

أجبته ببرودٍ:

- بخيرٍ، ماذا عنك؟
- لا جديد.
- مممممم

ثمَّ سألني كما لو أنَّه لا يعلم:

- تخرَّجتِ؟
- نعم منذ أسبوعين تقريباً.

اعتقدت هنا في هذه اللحظة أنَّه سيبارك لي، لكنَّه حين أجابني شعرت بأنَّه يسخر منِّي، فقال:

- العقبى للدكتوراة.

أغاظني، لا يريد أن يبارك لي بالأساس، ولم يعتبر أنِّي أنجزت شيئاً، وليس فخوراً بما فعلت، فأجبته وأنا غاضبةً منه:

- بدأت بها بالفعل، ستمتد لأربع سنواتٍ مقبلة.

قلتها بحزمٍ، فكان وقعها عليه سيئاً، يا إلهي لم أكن أودُّ أن يكون منحى حديثي بهذا الشكل، صمتَ قليلاً ثمَّ قال:

- مبارك، تستحقِّين كلَّ الخير.

فأجبته ببرودٍ شديدٍ:

- شكراً!

لم أسهب، ولم يكمل، وانتهت المكالمة بطريقةٍ جافَّةٍ للغاية، رغم أنِّي كنت أنتظرها بفارغ الصبر، وكنت أتدرَّب يوميَّاً على الردود التي سأوجهها لأسئلته، وماذا سأقول وكيف.

يا إلهي ذهبت كلُّ أحلامي هباءً منثوراً. ماذا كان يريد؟ وماذا كنت أنتظر منه! هذا ما لم أعلمه ولم أستطع إصلاح ما فعلت. في تلك الليلة لم يغمض لي جفن، تكررت المحادثة برأسي مئات المرّات، أمضيت ساعات الليل وأنا أراقب السماء التي تلبَّدت بالغيوم، كما قلبي.

جُمان فبراير 2012

خرجت من القاعة بعدما انتهيت من إلقاء المحاضرة التي أوكلني بها البروفيسور جوستاف نيابةً عنه بسبب انشغاله لهذا اليوم، وحين وصلت إلى مكتبي فتحت هاتفي وإذ برسالةٍ جعلت يومي هذا من أجمل أيامي في فرنسا، فجود هنا في باريس وترغب في لقائي. تعمَّدتْ ألا تخبرني مسبقاً كي تفاجئني، هذه المشاكسة كم لديها من الحيوية والحماسة!

لم تسعني الدنيا من الفرحة حين قرأت رسالتها فاتَّصلت بها مباشرةً وطلبت منها تحديد المكان الذي سنلتقي فيه.

- الآن فهمت لماذا تبدو باريس مشرقةً اليوم على غير العادة!
- عزيزتي جُمان، اشتقت إليك كثيراً.
- متى وصلتما؟
- اليوم صباحاً، وضعنا أمتعتنا في الفندق وها أنا ذا أحدِّثك الآن قبل الانطلاق.
- هو يومكما الأوَّل هنا!
- نعم، وستكون وجهتنا الأولى إلى برج إيفل.

- ممتاز، هل نلتقي هناك؟
- نعم.
- لن أضيِّع الوقت على الهاتف، ألقاكما بعد نصف ساعة، هل ذلك مناسب؟
- نعم بالتأكيد.

وما إن أغلقت الهاتف وكنت على وشك المغادرة حتَّى رآني البروفيسور جوستاف وطلب منِّي الحضور إلى مكتبه.

هل هذا وقتٌ مناسبٌ للذهاب إلى مكتبه!

وددت لو أخبره أنِّي لا أستطيع المجيء، وأنَّ صديقتي العزيزة تنتظرني، ولكن بالطبع لم أفعل، سأصبح بلا شكّ أضحوكةً بنظره ولن يأخذني على محمل الجد مرَّة أخرى.

أرسلت رسالةً إلى جود فحواها:

"عزيزتي جود، اعذريني، سأتأخَّر قليلاً لسببٍ اضطراريٍّ، حالما أنتهي سأتصل بكِ مباشرةً ونلتقي".

أمضيت بعدها قرابة الساعتين مع البروفيسور ثمَّ انتهينا من عملنا ومناقشة بعض الأمور المتعلِّقة بأوراقٍ بحثيَّةٍ ستُرسل إلى مؤتمرٍ خلال الأسابيع المقبلة، ومن ثمَّ وأخيراً أفلتُّ منه وانطلقت إلى جود.

في الأحوال العادية تكون مناداته لي ومناقشته معي بأمور الأبحاث والطلاب أمراً يسعدني جدَّاً، لكن اليوم بالذات كان الموضوع ثقيلاً على قلبي جدَّاً!

اتَّصلت بجود ومن ثمَّ ذهبت إلى المكان الذي أرسلته إلي، وهناك التقيتها هي وعمر.

كعادتها جود كانت متألِّقة. سابقاً كنت أظنُّ أنَّ جود متألِّقة وسط جامعتنا، فالبنات عددهنّ محدود ونحن في مكانٍ تغلب عليه الأشياء الاعتياديَّة، لذا فلا بدَّ وأن تكون جود متألِّقةً ومميَّزةً بين الجميع، ولكن الآن وأنا أراها قلت في نفسي: ما شاء الله هذه الفتاة تشرق أينما كانت، حتَّى في فرنسا عاصمة الأناقة والجمال كانت جود جذَّابة للغاية.

حين رأتني جود ركضت نحوي وبدأت دموعنا بالانهمار، كان اللقاء مليئاً بالمشاعر والأشواق الحارَّة جدَّاً، أمَّا عمر فقد ألقى عليّ التحيَّة بحياء، ما يزال عمر هو ذاك الشابّ الخجول الذي تحمر وجنتاه كلَّما تحدَّث، وما تزال نظراته تلاحق جود أينما ذهبت، يا لجمالهما معاً!

بقي عمر برفقتنا لنصف ساعة ومن ثمَّ انسحب عائداً إلى الفندق كي يترك لنا المجال لنمضي الوقت معاً، كان قلبي يخفق بشدَّةٍ، فأحاديثُ مخبّأةٌ ستفتح الآن، دموعٌ مخبّأةٌ سأجعلها تنهمر الآن.

العلاقات عن بعدٍ لا تعمل على نحوٍ طبيعيّ، وكذلك الصداقات، ورغم أنّ البعد بيني وبين جود لم يكن تأثيره واضحاً، إلا أنَّ اللقاء وجهاً لوجه له حالٌ أخرى. بدأنا أحاديثنا بحفل زفافها كانت قد وضعت نسخةً لجميع الصور ومقاطع الفيديو على هاتفها المحمول خصِّيصاً لأجلي.

في حفلها، كانت جود أميرةً حقيقيةً مع أميرها عمر، بينما كان في الأرجاء فتى أسمر يحوم حولهما، اسمه آدم ولكن الوصيفة جُمان لم تكن موجودةً للأسف.

وصلتني مسبقاً بعض الصور من حفلة الزفاف، ولكن ليس بالكمِّ الذي أرتني إيَّاه جود في ذلك اليوم. كانت مقاطع الفيديو مليئةً بالحياة لأنَّها ببساطة مليئة بآدم. منذ مدَّة وأنا أفكِّر ماذا يعني لي آدم! واكتشفت أخيراً أنَّ آدم يعني الحياة، آدم الذي يرغب في أن يعيش الحياة بطولها وعرضها، بمساوئها ومحاسنها، بكلِّ تفاصيلها وبكامل أحاسيسه، هو لا يوفِّر مشاعره إطلاقاً. ما أزال أذكر حين ذهبنا مرَّة لنشاهد فيلماً رومانسيًّا كيف تأثَّر بقصَّة الفيلم وظلَّ أسبوعاً كاملاً يتحدَّث عن الفيلم ويحلِّل شخصيَّاته، ويقدِّم استنتاجاته حول دوافع وأسباب أفعال وردود أفعال كلّ شخصيَّةٍ ظهرت فيه. حتَّى أنِّي مللت حينها من سماع هذا الحديث، ولكن أيقنت أنَّ آدم حين يتعلَّق بشيءٍ ما، يصعب عليه

التخلُّص منه بسهولةٍ، وهذا واضحٌ من علاقته بسيَّارته وأشيائه المفضّله.

لذا كنتُ أدرك في داخلي أنَّه من المستحيل على آدم نسياني ومن الصعب عليه الابتعاد عنِّي، وأنا على ثقةٍ بأنَّه ما يزال متعلِّقاً بي، لذا وإلى الآن أمنِّي نفسي بأنَّنا سنعود إلى بعضنا بعد الدكتوراة، وحتى ذلك الحين كلّ ما عليّ فعله هو أن أصبر، هي بضع سنواتٍ فقط، يجب أن أتحمَّل وحدتي وأمضي قدماً، ويوماً ما ستعود الحياة إلى أيامي، فثمَّة نقصٌ لا يملؤه إلا آدم، ووحشة لا يزيلها إلا آدم، وأحلام لا تتحقَّق إلا مع آدم.

وبينما كنا نقلِّب في الصور لفتت انتباهي فتاة موجودة في أغلب الصور وبالقرب من عمر وجود. سألتُ جود:

- من هذه الفتاة التي تظهر في أغلب الصور؟
- إنَّها أخت عمر.

نظرت إليها باستغرابٍ وسألتها:

- أتمزحين؟ ليس لعمر أخوة كبار من عمرنا كما أعرف!
- لا أمزح، هي أخت عمر بالرضاعة.
- كيف؟
- هذه سلام، ابنة خالة عمر وهي أخته بالرضاعة.

- هل هي من عمرنا؟ لم يسبق لي أن رأيتها! أو سمعته يتحدَّث عنها!
- لا بل أصغر منِّي بخمس سنوات، كان لديها أخ بعمر عمر، وعلى ما يبدو أنَّ الصبيين رضعا معاً في إحدى إجازات عائلتها، فهم يقيمون في كندا منذ زمنٍ بعيدٍ.
- كان لديها أخ!
- مع الأسف، لقد توفي أخوها حين كان طفلاً صغيراً بعمر العشر سنوات.
- يا لهذه القصة الحزينة.
- رحمه الله، الفتاة لطيفة ومرحة.
- وتبدو أنيقة وجذَّابة.

ضحكت جود ومن ثمَّ همست لي كما لو أنَّ الأمر سريَّاً:

- نعم، لذا ومن يوم حفل زفافي إلى الآن لا ينفك أخي كرم عن طلبه بأن أفاتح عمر بموضوعها وأمهِّد له الطريق، فقد أُعجب بها كثيراً.
- لكنَّها ما تزال صغيرة وكذلك أخاكِ.
- حقيقةً، لم أفكِّر بالعمر كثيراً، ولكن لا أرغب بأن أكون في موقفٍ محرجٍ مع عائلة عمر، تعلمين، حماتي ليست امرأة

سهلة، كلّ الأمور معقَّدة لديها، لذا يجب دراسة الموضوع بروِيَّةٍ قبل طرحه. لم أفاتح عمر بالموضوع، ولكن والحق يقال أتمنَّى أن تكون هذه الفتاة من نصيب أخي.

- هل أنهى أخوكِ دراسته؟
- سيتخرَّج قريباً من كليَّة طب الأسنان، أمَّا هي فقد أنهت دراستها في مجال التصوير والإخراج على ما أظنُّ.
- سيكونان زوجين رائعين.
- لا أرغب باستباق الأحداث ولا أعرف إن كان في حياتها شابّ آخر، لمَّحت مرَّة بهذا التساؤل لعمر فأجابني بأنَّه لا يعلم.
- على أي حال، أغلب الظنّ أنَّها ليست مرتبطةً فما تزال صغيرةً جدَّاً.
- أرجو ذلك، وأرجو ألا يصاب أخي بخيبة أملٍ.

قلت لها وأنا أتنهَّد بقوَّةٍ والابتسامة الساخرة تعلو شفتيّ:

- كما حدث معي في الماضي.

أجابتني:

- جُمان أرجوك أين خيبة الأمل التي عشتها؟ لقد بادلك آدم المشاعر، بل أحبَّك أضعاف محبَّتك له.
- كانت خيبة الأمل من ردود أفعاله.
- على كل حال تعلمين موقفي جيِّداً من هذا الأمر، لست في صفِّ أي أحد منكما، وإن قُدِّر لكما الاجتماع مجدَّداً، فستجتمعان ولو بعد حين.

حين قالت جود ذلك لم أستطع إلا أن أخبرها بما حدث قبل أسابيع، فرأيت نفسي أفتح لها قلبي وأحكي لها عن آخر محادثةٍ لنا أنا وآدم، قلت لها:

- لا أظن أنَّنا سنجتمع يوماً، جود، لم أخبرك ما حدث بعد ما وضعنا الصورة على الفيسبوك.

شعرت جود أنَّ أمراً استجدَّ معنا، عدَّلت جلستها، وهي تسألني باهتمامٍ شديدٍ:

- أخبريني؟ هل اتَّصل؟ وجدته لم يتفاعل مع الصورة، وحسبت أنَّه لم يرها بعد!
- اتَّصل. ما يزال آدم كما هو، لم يتغيَّر، وتعمَّد ألا يبارك لي إلا في نهاية حديثنا.

- أفهم من كلامك أنَّك ما تزالين كما أنتِ أيضاً، تتعمدين محاسبته على كلِّ حرفٍ؟!
- جود، ليس الأمر كذلك، لكن مجدَّداً، هي خيبة أملي من مواقفه تجاه طموحي وأحلامي.
- دعينا من هذا الكلام الآن وأخبريني، كيف انتهى الحديث بينكما، هل طلب منك شيئاً، هل صرَّح بشيءٍ؟
- لا تتحمَّسي كثيراً، لقد كان الحوار بائساً للغاية ولا شيء ممَّا يدور في بالك قد حدث، أخبرته عن قبولي بمنحة الدكتوراة وأنِّي سأبقى على الأقل في باريس لمدَّة أربع سنوات أخرى.
- لِمَ قلت له ذلك؟
- قلتُ له الحقيقة، هل أقول له تعال واخطبني!
- ألم تتحَّدثا بعد ذلك؟
- لا، لم يتَّصل ولم أدع له الفرصة لذلك، فكما لاحظتِ ألغيت جميع حساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي مجدَّداً.
- نعم أرى ذلك، تعيدينها شهراً ومن ثمَّ تلغينها دهراً.
- هذا صحيح، لا أريد تشويش تفكيري في هذه الفترة المهمَّة من حياتي.
- جُمان، أخشى أن تندمي يوماً ما.

قالت جملتها تلك وفي عينيها دمعة على وشك النزول، فتظاهرتُ بالقوة وأجبتها بكلّ ثقةٍ:

- ويحك، ألا تعرفين صديقتك إلى الآن؟ جُمان لا تندم!

بقيت عيناها حزينتين وشعرت أنَّها لم تقتنع بجملتي تلك، فقالت:

- جُمان لا تكابري أرجوك!
- أنا التي أرجوك أن نغلق الموضوع حالاً.

ابتسمت وقبضت على يدي وتابعنا أحاديثنا لثلاث ساعات، بعدها عاد عمر ثانيةً. ودَّعت جود وكنت أرغب في الاتفاق معها كي نلتقي في اليوم التالي، إلا أنَّها أخبرتني أنَّهما سيتجهان إلى قصر فيرساي بعد الظهر، وبما أنَّ لديّ محاضرة عليّ أن ألقيها على الطلاب في فترة الصباح لذا فلن نستطيع أن نتقابل قبل مغادرتهما باريس. حينها أدركت أنَّنا كبرنا بالفعل وأصبح لكلٍّ منَّا خططه، وحتَّى اللقاء لم يعد ميسَّراً وسهلاً مع مشاغلنا.

آه كم تغيُّرنا الدنيا!

جُمان يناير 2013

لا أعلم لماذا تتزامن الأحداث مع بعضها، فترى بعض الأشهر تزدحم فيها الأخبار والمستجدَّات، وبعضها الآخر تمرُّ بتكرارٍ ولا شيء يميزُّها. وأنا حين يأتي شهر يناير، أستعد كما كلّ سنة ليوم ميلاد جود، لطالما خطَّطت ماذا سأهديها، وماذا سأكتب لها، وكيف ومتى سأقدِّم لها الهدية، ومع البعد لم تعد للهدية الماديَّة معنىً إن لم تكن مقدَّمةً مباشرة منِّي، فأوَّل سنتين لغيابي عنها كنت أرسل إليها هديتها بالبريد أو عن طريق والدتي، أمَّا هذه السنة حتَّى التهنئة كنت مضطَّرة إلى أن أبعثها لها باكراً وقبل يوم ميلادها، إذ سيصادف يوم ميلادها الأسبوع الذي سأكون فيه في مؤتمرٍ في إنجلترا، وأعلم أنِّي سأكون منشغلةً ولن أستطيع التواصل معها.

اتَّصلت بجود، وبعد محاولات كثيرة، ردَّت أخيراً:

- أهلاً جُمان، آسفة لم أستطع سماع رنَّة هاتفي.
- أأنتِ مشغولة؟
- لا لست مشغولة، أنا عند مصفِّفة الشعر، لذا فالجو صاخبٌ لا أكثر.

- أأتَّصل بكِ فيما بعد؟
- لا عليكِ، أنتظر دوري، كيف حالك؟
- بخيرٍ، مشتاقة إليك كثيراً، كيف حال البيبي الصغير؟ متى ستلدين؟
- خلال الأسابيع المقبلة والله أعلم.

كان الصوت حولها صاخباً، فعرَّجتُ مجدَّداً على وجودها عند المصفِّفة، فقلت لها وأنا أمازحها:

- أعلم أنَّ مناسباتك -ما شاء الله- لا تنتهي، ما المناسبة التي لديك اليوم؟ أهو اجتماعٌ خاصٌّ للنساء فقط ولذا تصفِّفين شعرك؟
- نعم، هو كذلك.
- تعلمين، أنا هنا لا أجد مصفِّفةً في مكانٍ مغلقٍ لذا فلا يتسنى لي حتَّى قصّ شعري، فأنتظر عودتي بإجازةٍ كي أعتني به مجدَّداً. أخبريني أهو اجتماعٌ عاديٌّ؟ أم هنالك مناسبةٌ خاصَّة؟

أجابتني جود بصوتٍ خافتٍ:

- هي حفلة خطوبة.

دبَّت الحماسة بي فسألتها على الفور وأنا أستغرب من إجاباتها المقتضبة:

- يا للروعة! ومن هم العرسان هل أعرفهما؟

لم تجبني بوضوحٍ، كما لو أنَّها لم تسمع سؤالي جيِّداً، فأعدت السؤال بصيغةٍ أخرى:

- وهل أنتِ من طرف العريس أم العروس؟
- العروس اسمها سلام، حدَّثتك عنها حين التقينا، ربَّما لا تذكريها.

أجبتها بكلّ ثقّةٍ:

- بلى أذكرها جيِّداً، سلام أخت عمر، هل تمَّ الأمر بنجاح مع أخيك؟ مباركٌ إن شاء الله، لِمَ لَمَ تخبريني مسبقاً؟
- نعم هي سلام ذاتها، ولكن العريس ليس أخي.
- ألم تتحدَّثي معها بالموضوع؟
- بلى، لكنَّها لم توافق على أخي مع الأسف.
- أضاعته من يدها، لا تدري ماذا خسرت هذه الفتاة.

لم تجب جود، بل اكتفت بالتمتمة، شعرت أنَّها على غير عادتها ولا تتكلَّم كثيراً وأنِّي أنا التي أتكلم هذه المرَّة، ربَّما لأنِّي مشتاقة إلى الحديث مع أحدهم في مواضيع لا تتعلَّق بالعمل أو الدراسة، بالمقابل لا بدَّ وأنَّ

جود قد سئمت من هذه الأحاديث، ولكنِّي شعرتُ أنَّ ثمَّة خطبٌ ما، تابعت أسئلتي حين وجدتها تختصر الكلام:

- إذن فأنتِ من طرف العروس، أخبريني ومن هو سعيد الحظ الذي رفضتْ أخاكِ من أجله، لا أعلم من أين لها أن تجد أفضل من كرم!
- لا أدري إن كان أفضل أم لا، القلب وما يهوى!
- بالفعل القلب وما يهوى، اسأليني أنا، فأنا عندي خبرة في هذا المضمار، هل تعلمين أنَّ أمِّي تقترح لي كلّ شهرين عريساً جديداً وأنا ما أزال أرفض الفكرة ولا أحاول فتح قلبي لأحدٍ؟

وهنا أجابتني جود بكلِّ جديَّةٍ قائلةً:

- برأيي حان الوقت لتفتحيه.

أربكني جوابها ذلك ولم أفهم لِمَ غيَّرت نبرة صوتها، فقلت لها:

- لِمَ أعطي المجال لشخصٍ لا أعرفه؟ إن كنت سأوافق على الارتباط الآن فالرجوع إلى آدم هو أفضل خيار! على كل حال، دعينا نعود إلى عريس ابنة حماكِ، ما مواصفاته؟ هل هو من معارف عمر؟ ما رأيك به؟

تغيَّرت نبرة صوت جود مجدَّداً، ومن ثمَّ أجابتني وصوتها يرتجف بعض الشيء كما لو أنَّ جبلاً ضخماً يتوضَّع على صدرها:

- جُمان من الآخر، العريس هو آدم..

لم أفهم ما قالته في البداية، ولم أستطع حتَّى ربط الحروف ببعضها، هل سمعت أذناي اسماً اعتادت سماعه، أم أنِّي أهذي؟ سألتها وأنا ما أزال هادئةً.

- آدم! آدم من؟
- وكم شخصاً باسم آدم نعرفه؟
- لا، ليس آدم الخاصّ بي! أليس كذلك؟

هنا عاد صوت جود لطبيعته، وبدأت بالكلام بعدما كانت تتمتم طيلة المكالمة، فقالت لي كما لو أنَّها تؤنِّبني:

- جُمان، ما بالك؟ لقد انفصلتما منذ أكثر من أربع سنوات، كيف تسمِّيه آدم الخاصّ بك؟

تجاهلت سؤالها وأنا في ذهولي ورحت أكلِّم نفسي بصوتٍ عالٍ:

- إذن تخلَّى عنِّي!

بدأت دموعي بالانهمار على وجنتيّ بينما كانت جود تحاول أن تجد له أعذاراً وقالت:

- جُمان، أنتِ من تخلَّيت عنه.

حرَّكت رأسي يميناً ويساراً وأنا أنفي ما تقوله جود:

- لا، لست أنا التي أخطب الآن.
- وليس هو من سافر تاركاً كلَّ شيءٍ وراء ظهره.

لم ألقِ بالاً لما كانت تقوله جود، بل أخبرتها وأنا أصرخ:

- جود سأتَّصل به الآن، الآن وحالاً!

ذعرت جود من انفعالي وراحت تحاول تهدئتي وهي تكرِّر:

- جُمان أرجوكِ، لا تصابي بالجنون، ماذا ستقولين له؟ وما ذنب سلام في كلِّ هذا؟

وما إن ذكرت اسمها حتَّى جنَّ جنوني بالفعل، وشعرت أنِّي أفقد السيطرة على مشاعري وكلامي وتابعت قائلةً:

- ذنبها أنَّها اختارت شابَّاً مرتبطاً بغيرها، متى وكيف وأين حدث الأمر؟ جود أجيبيني، كانتْ تلاحقه، رأيت عينيها، لم تزحهما عنه في كلّ الصور، أهي من أوقعته؟ تبَّاً لها!

وانفجرتُ من البكاء، لم تكن تعلم جود ماذا ستفعل، كانت تحاول أن تخفف عنِّي وفي نفس الوقت توضِّح لي عدم منطقيَّة ما أتفوَّه به:

- سأخبرك بكلِّ شيءٍ فيما بعد، لكن أرجوك اهدئي الآن، جُمان تعلمين علم اليقين أنَّك تناقضين نفسك بهذا الحديث، لن أناقشك، ولن ألومك أو ألومه، ولكن كما قلت لك كلّ شيء قسمة ونصيب. جُمان يا عزيزتي، استجمعي نفسك وقواك، اقرئي ما تيسَّر لك من القرآن وادعي الله أن يزيح عنك هذه الغمَّة، ولكن أرجوك لا تقومي بأيِّ فعلٍ متهوُّرٍ يتسبَّب بأذيةٍ لآدم أو لسلام.

"آدم وسلام" أهكذا بات اسميهما معاً، وأنا لم يعد لديّ أي وجودٍ! لم أستطع إجابتها بشيءٍ، أكملتْ حديثها وهي تعتذر منِّي وتقول:

- سامحيني أرجوك، تعلمين أنِّي مضطَّرة إلى حضور الحفلة، ولا داعي لأن أخبرك أنَّ لا يد لي في الموضوع بتاتاً!

كنت أمسح دموعي وأنا أجيبها:

- أتفهَّم موقفك جود..
- المشكلة إن لم أذهب سيعتقد الجميع أنَّ الأمر متعلِّقٌ بكرم، وهو ليس كذلك، أرجوك اعذريني.

- لن يقدِّم ذهابك شيئاً كما لن يؤخِّر. تخلَّى عنِّي وانتهى الأمر! لكن ما يؤلمني أنّك أخفيتِ الأمر عنّي! لماذا لم تخبريني؟
- سامحيني أرجوك، لم أكن أعلم بالتفاصيل، وتمَّت إجراءات الخطبة بشكلٍ سريع، لم أشأ أن أزعجك بخبرٍ لست متأكِّدة منه.
- لا عليكِ.
- سأتَّصل بك لاحقاً، اعتني بنفسك.
- حسناً
- قلبي معك!

وأغلقتُ الهاتف حتَّى قبل أن أبارك لها بيوم ميلادها.

جُمان، التي تحسب حساب كلَّ شيء لم تحسب حساباً بأن هذا اليوم ربَّما يأتي ويرتبط آدم بغيرها! يا لغبائي!

نظرت إلى نفسي في المرآة ودموعي على خدودي. إذن هذا اليوم ليس يوماً عاديًّا لك يا آدم!

رحت أفكِّر بخيبتي، وأتساءل: ترى ما أنواع الزهور التي سيختارها؟ ما لون ربطة العنق التي سيضعها؟ أيّ ساعةٍ سيلبس في معصمه! وما الأغنية التي سيراقص بها خطيبته؟ هل سيهمس في أذنها بأنَّه يحبُّها، هل

سيخبرها بأنّها أجمل الورود؟! هل طبع اسمه واسمها على خاتم الخطوبة أيضاً وكتب عبارة "معاً إلى الأبد"

آهٍ يا آدم ماذا فعلت بنا؟!

شعرت أنَّ الأرض ستنزلق من تحت قدمي وأنا أهلوس بهذه الأسئلة، كاد رأسي أن ينفجر وانفطر قلبي، تمنَّيت لو أنِّي لم أتكلَّم مع جود اليوم ولم أسمع هذا الخبر إطلاقاً.

أعلم أنَّ لا ذنب لها في ذلك، ولكن أن أسمع الخبر في نفس يوم الحدث! والله يصعُب ذلك على نفسي وقلبي وروحي.

جُمان مارس 2013

حين يأتي الربيع، تزداد وتيرة المؤتمرات هنا وهناك، وفي هذه المرة كانت وجهتي إلى النمسا لحضور مؤتمرٍ في فيينا. كنت أجلس في القطار، أنظر إلى جمال جبال الألب. الريف، كم هو جميل!

سأقضي بعد أيام المؤتمر أسبوعاً كاملاً في ريف النمسا، أحتاج إلى إجازةٍ كي أجمع شتات أفكاري وأسيطر على مشاعري مجدَّداً، فقد مضت الأيام لأنَّها يجب أن تمضي، لكِنّي ما أزال تحت صدمة ارتباطه، منذ أسابيع وأنا أحاول اختلاق مشاغل وأعمال من لا شيءٍ، خصَّصت عدداً كبيراً من ساعات المراجعة لطلابي، وبتُّ أرمي نفسي في كلِّ ما يمكن أن يشغلني ويبعدني عن التفكير به وبارتباطه، لا أريد أن تتاح لي الفرصة بأن أجلس دقيقةً وأشرد بتفكيري بهما، ونجحت خطَّتي تلك نوعاً ما. كنت أصارع نفسي كلَّ يوم حتَّى لا أعاود الاتِّصال به وألومه وأخبره كيف أحرقني بفعلته هذه. أشعر يوميَّاً كأنِّي أربط الجمر على يدي كي أمنعها من أن ترسل إليه حرفاً واحداً عبر وسائل التواصل الاجتماعي، تلك المواقع لها جانبٌ سيءٌ جدَّاً وهي سهولة التواصل مع أي شخصٍ بحججٍ واهيةٍ وأسبابٍ غير مبررةٍ تغطِّي على الدوافع الحقيقة وراء ذاك التواصل، ووحدهما المعنيّان هما من يعلمان سبب هذا التواصل، ولكي

أخفِّف من عبء ذلك الصراع كنت أتكلَّم مع جود، أحدثها عمَّا يجول في خاطري من عتابٍ ولومٍ له، وحدها جود ستتفهَّم وضعي، ولن أكون بحاجةٍ إلى أن أقلق من ما ستقوله عنِّي، فهي ستتفهم أنَّ تلك الحالات المتناقضة لا تعني انفصاماً بالشخصية، بل هو ضعفٌ يجتاح قلبي وأنا أحتاج إلى أن أنفِّس عنه لشخصٍ أثق به فلا يفشي سرِّي ولا يعتقد بأنَّه يتملَّك نقطة ضعفي. كانت مكالماتنا تطول لساعات، ومع أنَّها لا تتحدَّث في كثيرٍ من الأحيان، لكن يكفي أنِّي أشاركها حزني وألمي، كنت أسمع صوت بكائها معي، وبعد أن أُفرغ ما في قلبي كانت جود في كلِّ مرَّةٍ تعيد الرؤية الواضحة لعينيّ، لكن مع هذا وذاك كان الفضول يتملَّكني، أريد أن أعرف مزيداً من التفاصيل من جود عن ذلك الثنائي الذي سيبني سعادته على تعاستي، لكنَّها لم تكن تعطيني تفاصيل كثيرة. لم يكن سهلاً عليّ بأن أعترف بهزيمتي وخسارتي، والأشد إيلاماً، هو أن أسلِّمه فعلاً لفتاةٍ غيري!

فتحت جهاز الحاسب كي أراجع بعض الأوراق البحثية في القطار، لكن لم تكن لديّ الرغبة والمقدرة على التركيز مطلقاً. أغلقت الملفَّات ورحت أتصفَّح الأخبار والمستجدَّات على موقع الفيسبوك بعد أن أعدت تفعيل كلَّ حساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي، فلا سبب لهروبي منه، فقد تخلَّى عنِّي وانتهى الأمر. كانت تغطية شبكة الإنترنت

سيئةً جداً، ومع ذلك كنت أنتظر بهدوء تحميل المنشورات وإذ بي أرى خبراً لم تصدِّقه عيناي في بادئ الأمر.

آدم، يزفُّ أجمل خبر على الإطلاق، فقد غيَّر حالته الاجتماعية من "خاطبٍ" إلى "علاقةٍ معقَّدة". أقسم لو لم أكن في القطار لصرخت بأعلى صوتي من الفرحة. لم أفكر كثيراً ولم أنتظر أي تأكيدٍ أو خبرٍ أو كلامٍ من أحدٍ، وأرسلت إليه على الفور:

- مرحبا آدم كيف حالك؟

لم يجب كما لم يقرأ الرسالة بالأساس. بقيت طوال الطريق أنتظر أن يعاود فتح الفيسبوك ليقرأ رسالتي، وأنا أعيد تحميل الصفحة بالكاد لأرى هل قرأ رسالتي أم ليس بعد؟ لم أعتقد يوماً أنَّ مشاعري ستسيطر على كياني إلى هذه الدرجة!

يبدو أنَّه تخلَّى عن تلك الفتاة. تساءلت حينها: بل ربَّما تكون هي من تخلَّت عنه!

خطر ببالي حينها أن أستطلع الأمر في صفحتها الخاصَّة عبر رؤية حالتها الاجتماعية. بحثت سريعاً فوجدت صفحتها، لكن ما صدمني أنَّها ما تزال على الوضع نفسه "مخطوبة".

أهو من تخلَّى عنها! عاودني شعور الشفقة على تلك الفتاة، فوجدت نفسي أتَّصل بجود لأخبرها بما حصل وأستشيرها، رغم أنِّي موقنة بما ستقوله لي، فهي ستكرر على مسامعي الأسطوانة ذاتها، ولكن مع ذلك، كان لا بدَّ لي من سماع رأي جود، فأنا لن أستطيع تدارك الأمر أو المضيّ في سفري وتلك الأفكار تشغل بالي، وأخيراً ردَّت جود على مكالمتي، فهي مشغولة طيلة الوقت مع ربيع الصغير وأنا أتفهَّم انشغالها.

- مرحباً جود، هل رأيتِ الحالة التي حدَّثها منذ قليل؟
- أهلاً جُمان، نعم رأيتها.
- وما رأيك؟ ما صحَّة هذا الكلام؟

تنهَّدتْ وبدأت كلامها ضدِّي وضدّ مشاعري وآمالي وتخيّلاتي:

- جُمان أنت بعيدةٌ جدَّاً عن الصورة الحقيقية لما يحدث هنا. منذ أربع سنوات وأنتِ في عالمٍ مختلفٍ وبعيدٍ جدَّاً. دعيني أقولها بصراحة، أنت لم ترِ كيف ذاب هذا الشاب وما يزال يذوب.

قاطعت كلامها رغم كرهي لهذه العادة، فقلت لها:

- ماذا عنِّي؟ أنا هنا أحترق! ألا قيمة لمشاعري؟

- جُمان لو أخبرتك أنَّهما انفصلاً حقّاً، وأنَّ آدم يريد العودة إليك، هل أنت مستعدَّة للتخلِّي عن كلِّ شيءٍ الآن وفي هذه اللحظة والعودة إليه؟ أجيبيني بكلِّ صراحةٍ!
- نعم، أنتهي من الدكتوراة وأعود إليه مباشرة.
- جُمان، سلام تخلَّت عن كلّ شيء من أجله هو فقط، لا شيء لها هنا، لا عمل ولا لغة جيِّدة ولا أصدقاء ولا حتَّى ذكريات، أرجوك لا تقارني حبّك له بحبِّها له!
- لست بصدد المقارنة، ولكنَّ الدنيا أولويَّات، وهو اختارني بالأساس.
- أنتِ من قلتها، الدنيا أولويَّات، وأولويَّة تلك الفتاة هي آدم، لقد غالبتُ نفسي طوال الأسابيع الماضية ولم أحدِّثك عن الفتاة وعن مدى إعجابها بآدم كي لا أزيد الطين بلَّة، لذا أرجوك لا تنبشي بقبر ميِّتٍ!
- ومن الميِّت الآن؟
- حبُّك لآدم.
- جود، أنت تتحيَّزين للفتاة وتنحازين لطرفها نظراً لقرابتها بك.

- سامحك الله يا جُمان، لا تظنِّي بي سوءاً، اسمعيني، أنا لست في طرف أيًّ منكما.
- أعلم أنَّك لن تبوحي بأكثر ممَّا قلته، لكن من الواضح أنَّ آدم هو من تخلَّى عنها، لذا سأنتظر حتَّى تسأم وتستسلم وتدعه وشأنه، وعندما تغيِّر حالتها سأعاود الاتِّصال به، ما رأيك بذلك؟ أما تزال لديك أيّ تحفُّظات؟
- يبدو حلَّاً مقبولاً للوقت الحالي.
- اعذريني جود إن قسوت عليكِ.
- لا عليك، أتفهَّم شعورك، لكن ثقي بأنِّي أقول ما أقول لمصلحتك فقط.
- أعلم، أقسم بالله أعلم، لكن قلبي يا جود..
- أدعو الله أن يزيل الهمَّ عنك وعن قلبك يا عزيزتي، اعتني بنفسك.
- في أمان الله.

ودَّعتها وأغلقت الهاتف، وكما وعدتها لم أرسل أيَّ رسالة أخرى إلى آدم وانتظرت ردَّه، لكنَّه لم يرد!

جُمان أبريل 2013

من الأشياء الجميلة التي أحببتها في فرنسا هي سهولة الحصول على الأطعمة والأغذية الصحيَّة من محلَّاتٍ خاصَّةٍ. بدأت وفقاً لذلك باتِّباع الأنظمة الصحيَّة وشراء الطعام الصحيِّ والممهور بكلمة Bio. بالفعل يبدو أنِّي أكبُر، وإنَّ تغيُّر عاداتي الصحيَّة واهتمامي بالطعام الصحيِّ وعدم انقطاعي عن الرياضة، أظنَّها علامات تشير إلى ذلك. نعم فأنا أرغب في المحافظة على رونق وجهي وحيويَّته وأريد ألا تظهر عليّ علامات الثلاثينيات مبكراً، فثمَّة احتمال أن نعود أنا وآدم إلى بعضنا، وأنا أكبره بسنتين وهو شابٌّ رياضيٌّ، لا أريد أن أبدو أكبر منه خاصَّةً أنَّ سلام -والتي لم تغيِّر حالتها الاجتماعية بعد إلى عازبة!- تصغره بخمس سنوات. لا أعرف ما خطب تلك الفتاة حقَّاً! سألت جود أكثر من مرَّة عن وضعهما فأقسمت إنَّها لا تعلم شيئاً، كما أنَّ عمر لا يسأل آدم عن الموضوع حتَّى لا يشكِّل الأمر أي حساسيَّة بينهما، أمَّا هو فقد وصلني ردَّه على رسالتي بعد عشرة أيامٍ من تاريخ الإرسال، وكتب لي بكلِّ برودٍ:

- بخيرٍ، ماذا عنك؟

أجبته حينها مباشرةً:

- لم يتغيَّر وضعي.

كنت أشير إلى أنَّه هو من غيَّر وضعه وحالته الاجتماعية، لم يسهب وقال لي مقتضباً:

- جيِّد! آمل أن تبقي بأفضل حال.

كانت كلماته باهتة ولم يطل الحديث، ولست أنا جُمان التي ستركض وراءه الآن، حين تتخلَّى عنه سلام نهائيَّاً سأفتح المجال بيننا أكثر، والحقُّ يقال كانت آمالي ترتفع في كلِّ مرَّةٍ أقرأ فيها حالته العاطفية المعقَّدة تلك، وكنت أقول في نفسي لعلَّه ينتظر تخرُّجي ولا يودُّ إزعاجي.

جُمان　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　مايو 2013

الخامس من مايو، أنهيت عملي باكراً، اتَّصلت بصديقتي الرومانيَّة -والتي تعمل في القسم الإداري للكلية- كي نذهب معاً إلى السينما لنحضر فيلماً أرغب في مشاهدته، ولم تتح لي الفرصة إلى الآن، لكن مع الأسف فقد كان جدول مواعيدها غير متَّفقٍ مع جدولي، لذا قررت يومها الذهاب وحدي.

"فيلم البؤساء" بنسخته المحدَّثة، لا أملّ من هذه الرواية ولا أملّ من أيِّ نسخة من أفلامها، ولا أفوّتها. انتهى المشهد الأخير فهممت بالعودة إلى المنزل وأنا محمَّلةً بجرعةٍ عاليةٍ من الكآبة، وفي طريق العودة اشتريت عشائي ومجدَّداً من سوق الأطعمة الصحيَّة.

يا للسخرية، أودُّ الحفاظ على نضارة وجهي تحسُّباً من ارتباطي بشخصٍ يصغرني، ولم أكن أعلم ما ينتظرني في تلك الليلة التي كانت من أقسى الليالي في حياتي.

لسببٍ ما في مخيلتي المتفائلة، كنتُ أعتقد أنَّ حلَّاً سحريَّاً سيجمع كلَّ أحلامي معاً، أكمل دراستي، وأحصل على درجة الدكتوراة، وأعمل في شركةٍ مرموقةٍ، وتصبح مكانتي عاليةً في المجتمع، وأتوِّج كلَّ هذه

الأحلام السعيدة بارتباطي بآدم، الشابّ الذي أحبَّه قلبي، لكنِّي وعلى ما يبدو كنت حالمةً بشكلٍ مبالغ فيه وغير منطقيٍّ.

يا للبؤس!

في تلك الليلة وبينما كنت أنتظر وجبتي لتجهز، أمسكت بهاتفي أقلِّب بين تطبيقاته كي أكسر حالة الاكتئاب التي اعترتني من تأثير الفيلم، وإذ بصورةٍ تقلب كلَّ موازيني وتعيدني إلى أرض الواقع القاسية والمؤلمة.

أتت هذه الصورة لتخبرني أنَّ الإنسان لا يحصل على كلِّ شيء. لم أتمالك نفسي من الصدمة، طلبت من البائع إلغاء طلبي وجريت إلى المنزل بعيون متجمِّدة، لم أجرؤ على أن أفتح هاتفي مجدَّداً لأتأكَّد من صحَّة ما رأته عيناي، فانتظرت كي أصل إلى المنزل أوَّلاً، فقد خشيت على نفسي من أن أفقد توازني. كنت أمنِّي نفسي أن ثمَّة خطبٌ ما وما رأيته لم يكن صحيحاً. وصلت إلى المنزل، رميت كلَّ ما بحوزتي من حاجيات، وجلست جاثيةً على ركبتيّ ممسكةً بهاتفي بيدين مرتجفتين.

كلمة السر، لقد نسيتها! تبًّا، أستخدمها في اليوم ألف مرَّةٍ كيف أنساها. حاولت بالكاد تذكُّر كلمة السر واستطعت فتح هاتفي مجدَّداً وأنا تحت تأثير صدمةٍ لم يفهمها قلبي ولم يستوعبها تفكيري.

الصورة صحيحة، أضافتها ليلى منذ نصف ساعة.

ليلى بجانبها آدم وسلام، وبتعليق، "مبارك للعروسين".

أهو زفافه؟ اليوم؟! نعم فملابسهما والأجواء توحي بذلك بالطبع.

متى وكيف، جود أين جود؟ كيف لم تخبرني؟!

اتَّصلت بها مباشرة، أعلم أنَّها في الحفل الآن، لكن يجب أن أتحدَّث إليها، لعلَّ الأمر كلّه مزحة، لعلَّ الصورة غير حقيقة وليلى تمازحهما. رحت أبكي وأنا أنتظر جود أن تنتشلني من حالتي تلك، أن تخبرني أنَّها الآن في المنزل ولا يوجد لا حفلة ولا زفاف ولا عروس ولا عريس. بعد أكثر من ربع ساعة انتبهت جود إلى هاتفها وردَّت أخيراً:

- أهلاً جُمان.

كان صوت الأغاني حولها مرتفعاً وصاخباً، فعلمت أنَّ الأمر حقيقيٌّ، لم أسألها، لم أعاتبها، بل قلت لها بكلِّ هدوء ومن غير أيِّ مقدِّمات:

- جود! افتحي الكاميرا الآن وحالاً. أريد أن أراهما، لا تناقشيني ولا تجادليني أرجوك!
- جُمان، أجننتِ؟
- نعم جننت، وإن لم تفتحي الكاميرا سأجنّ أكثر، جود أنت المسؤولة إن حدث لي أي مكروه، دعيني أرى الخيانة متجليَّةً بأبهى صورها.

كنت أصرخ بصوتٍ مختنقٍ، لم تستطع جود مُمانعة ما أطلبه بعد ذلك التهديد الذي وجَّهته لها بكلِّ جديَّةٍ، فقالت لي:

- جُمان، سأمشي وفق رغبتك لكن اعلمي أنَّ ما تفعلينه ضرباً من الجنون، ولا تنسي أنَّه لا يحقُّ لي فعل ذلك من غير إذنهما، لكن سأدع الأمر يمر.

لم أردّ على كلامها، فتحتُ جهاز الحاسب وأعدت الاتصال بها عبر السكايب وانتظرتها لتفتح الكاميرا، وبعد ثوانٍ رأيتُ البثَّ المباشر لجزءٍ من حفل زفافهما. كانت تلك الدقائق كافيةً لتحرق ما تبقى من دمي، وروحي. خلالها شاهدتهما يتبادلان الخواتم ليضعاها في مقرِّها النهائي،

في اليد اليسرى. شاهدته وهو يقدِّم لها هدية زفافهما من المجوهرات التي ألبسها إياها بنفسه، الطوق وبعدها الأساور، الخاتم والأقراط. شاهدته وهو يراقصها على أغنية رومانسيَّة فرنسيَّة، من الواضح أنَّه لا يفهم من كلماتها شيئاً، لعلَّها هي من اختارت الأغنية، يا للأيام! منذ سنواتٍ، أخبرني أنَّه في يوم زفافنا سيراقصني على أغنيته المفضَّلة والتي زعم أنَّها تعبِّر عن حاله، "أتحدَّى العالم"!

لا يا آدم، أنت لم تتحدَّ أحداً، لم تتحدَّ حتَّى نفسك، تحدَّيتني أنا فقط، تحدَّيت حبَّك لي، فوأدته كما يئد الجاهليون فلذات أكبادهنّ، وأدتَّه حيَّاً، وإلا لما كانت نظرة الحزن تكسو عينيك يوم زفافك. نعم رأيتها، رأيتها رغم بعد المسافات ودقَّة الكاميرا السيئة وحركة يد جود المرتجفة.

وفي لحظةٍ ما، كانت سلام على وشك أن تنحني لتسند رأسها على كتفه، فتقصَّدت جود أن تدير الكاميرا حينها وقالت:

- يكفي جُمان أرجوك، سأغلق الكاميرا.

لم أجبها، أومأت إليها بالإيجاب وأنا أقول:

- أرجوك، لا تتَّصلي بي إلى أن أراسلك بنفسي.
- حسناً جُمان، ارتاحي الآن، لكن أرسلي إلي بين الحين والآخر أنَّك بخيرٍ، لا ترمني بنار القلق أرجوك، ستتجاوزين الأمر، أنا متأكِّدة من ذلك، تصبحين على خير.

أجبتها وصوتي يئنُّ من الحزن:

- باركي للعروسين.

بكيت بشدَّةٍ وأغلقت جهازي وتجمَّدت في مكاني يائسةً مثل البؤساء. يا لغبائي، ظننت أنَّ جرعة اليأس من فيلم اليوم ستملأ أسبوعي كلّه تشاؤماً، ولم أدرِ أنَّ هنالك جرعة أخرى آتية لتملأ العمر كلّه ألماً.

وقفت وحاولت إنكار الأمر، هرعت إلى تلك القصاصة التي ما أزال أحتفظ بها، تلك القصاصة الصغيرة التي تسلَّلت إلى حقيبتي يوم مزَّقت ورقة اتِّهام آدم لي، والتي دوّن عليها أفكاره كي لا ينسى أيًّا منها، كي

يحاورني بالمنطق ودون أن يغضب، كي لا يشتِّت تركيزه في هدفه. في تلك الأيام حين كان هدفه التمسُّك بي، لكن للأسف على طريقته.

أذكر أنِّي رأيتها في حقيبتي بعد وصولي إلى فرنسا بشهور. حين رأيتها لم أرمها، احتفظت بها، يبدو أنَّها من القسم السفلي للورقة التي لم أعط المجال لآدم يومها أن يصل إلى تلك البنود الأخيرة، لأكتشف لاحقَّاً أنَّه كتب في البند الأخير:

"أحبك جُمانتي، لا حياة لي من دونك، ابقِي معي"

نظرت إليها وعيناي بالكاد تبصران من كثرة الدموع.

آدم، يا لخطّك السيء كم كان جميلاً!

وضعتها تحت وسادتي لأوهم نفسي أنَّ كلَّ شيءٍ كما هو، ولن يتغيَّر حبُّ آدم. أغلقت كلَّ الأنوار، هدأت قليلاً لكنَّ أعماقي كانت تصرخ:

"لا حياة لي من دونك"

وَيلاه ما أسهل الكلام!

جُمان مايو 2013

لم تكن الإجراءات بتلك الصعوبة، فقد حصلت على التأشيرة لزيارة دولة الإمارات بسهولةٍ، كذلك أمّي وأبي، وقرَّرنا أن نلتقيَ هناك. في المقابل لم يمانع البروفيسور من قراري المفاجئ بالسفر، ولا سيَّما أنِّي قد طلبت أسبوعاً واحداً فقط.

حين وصلت إلى المطار، استقبلني والداي اللذان وصلا قبلي إلى دبي، وهنا كانت صدمة والدتي فقالت:

- جُمان، وجهك شاحبٌ جدًّاً، ما بكِ؟
- من تعب السفر لا تقلقي!
- لا أظنُّ الأمر كذلك ما بكِ بالضبط؟

نظرت إليها وأنا مستغربة، أهي تعلم بما حدث وتتظاهر بتجاهل الأمر أم أنَّها حقَّاً لا تعلم، سألتها بصوتٍ خافتٍ:

- ألا تعلمين السبب حقَّاً؟
- ما هو أخبريني؟

وهنا قاطعها والدي فسألني:

- أهنالك خطبٌ في الكلية؟ البروفيسور؟

وكأنَّ الحياة ومشكلاتها تتمحور كلّها حول الدراسة والعمل. استجمعت قواي وشجاعتي وأجبتهما من غير لفٍّ أو دوران:

- آدم، تزوَّج الأسبوعَ الماضي.

لم يتوقَّعا أنِّي سأجيب بهذه الصراحة، ولم أعلم أكانا على علمٍ بالأمر أم لا، فقد أجابا بشكلٍ أتوماتيكيٍّ:

- بالتوفيق، وما علاقة إرهاقك بالأمر؟
- إنَّه الحزن، والتعب النفسي، والألم، وأحوالٌ أعايشها أنا أيضاً، ألستُ بشراً؟

لم يعجبهما جوابي، فغيَّرت والدتي الموضوع ونحن في طريقنا إلى الفندق.

وفي صباح اليوم التالي وبينما كنَّا نتناول طعام الإفطار، شعرت بأنَّ والدي يودُّ إعادة ثقتي بنفسي عبر أسئلته حول دراستي وأبحاثي، كنت أجيبه وأنا سعيدة بإنجازاتي، ورغم أنَّهما يعرفان أغلب تلك المعلومات حول المؤتمرات والأوراق البحثية التي قدَّمتها، إلا أنَّهما يستمتعان بسماعها ولا يملَّان من إنجازات ابنتهما، وفي وسط الحوار الدائر بيننا، سألني والدي:

- كم من الوقت تحتاجين حتى تنهي رسالة الدكتوراة؟
- كنت قد خطَّطت لثلاث سنوات، لكن اكتشفت لاحقاً أنَّ الأمور أصعب ممَّا كنت أتخيَّل.

لم يعقِّبا، وأكملا طعامهما، لكنِّي أنا من أضفت تعليقاً حول الموضوع، فأكملت قائلةً:

- على أي حال، الحمد لله أنِّي لم أعطِ آدم أملاً أو وعداً بعودتنا لبعضنا البعض، ها هو ذا قد تزوج وأنا نفسي لا أعلم متى سأنتهي وهل أنتهي بالأساس! فالأمور تزداد تعقيداً كلَّما تبحَّرت أكثر بالاختصاص.

رفعت والدتي رأسها وهي مندهشة لجرأتي مجدَّداً، فابتسمتُ ابتسامة الخاسر وغرست وجهي في فنجان قهوتي وأنا أضحك على أسلوبي الجديد الذي لم أعتده بعد. كنت أنتظر بعد هذه الصراحة أن تستوعب والدتي حالتي، وتدرك كم أنَّ قلبي مجروح، وتفهم معاناتي، كنت أتوقَّع أن تأخذني بين ذراعيها فأبكي، وتحضنني فأريح رأسي قليلاً خلال هذه الأيام المعدودة، لكن كانت مفاجآت أمِّي لا تنتهي في دبي.

فبعد ظهيرة يوم الإجازة الأوَّل، أعطتني والدتي الأوامر للذهاب معها إلى التسوُّق متناسيةً أني قد أتيت للتو من باريس عاصمة الأناقة

والأزياء. كانت حجَّتها إيجاد أزياء وملابس تناسب الفتاة التي ترتدي الحجاب، الحجاب الذي لم تقتنع به إلى الآن، فهي لا تمانع في أن تنتقده في كلِّ فرصة تُتاح لها. لم أناقشها فلا طاقة لي بذلك، وأنا أعلم وجهة نظرها منذ البداية.

على أي حال، استمتعت في التسكُّع بين المحلات التجارية، جميلةٌ هي أسواق دبي، تختلف عن باريس ولا يمكن مقارنة هذه بتلك. ملابس السهرات والأعراس تكون أكثر فخامة حتَّى لو كانت بسيطة، كما أنَّ عباءاتهم تعجبني، رغم أنَّها لا تناسب أسلوبي، لكن رؤيتها تبعث على البهجة، أمَّا محلات فساتين الزفاف، فهي في عالمٍ آخر من الإبهار.

حين رأتني والدتي وأنا أنظر بحسرةٍ إلى الفساتين وتكاد الدموع تنهمر من عينيّ، حاولت ألا تترك لي المجال لفتح أحزاني، وراحت تكرِّر لي:

- سأفرح بك قريباً، وسأراك بالأبيض.
- أمي أرجوك، لا تتحدَّثي معي كأنِّي طفلةٌ، أنا حزينة لأجل الشخص وليس لأجل الفكرة بحدِّ ذاتها، أنا لا أفكر بالارتباط أساساً، وبتُّ متيقنةً ألّا مجال للدراسة مع الزواج، ولو لديّ النية بالارتباط لبقيت مع آدم منذ البداية.
- آدم، آدم، آدم، ما بك؟ لم يكن مناسباً بالأساس، ليتني أعلم ماذا أحببت به!

- من دواعي سروري أن أشرح لك ما أحببت به، لكن سيكون هدراً للطاقة والوقت، فالرجل تزوَّج وانتهى الأمر.
- وهل تعتقدين أنِّي أودُّ سماع ذلك فعلاً، هذا ما ينقصني! الحمد لله أنَّه تزوَّج كي نغلق هذه الصفحة وننتهي منها للأبد.

تنهَّدتُ وأنا أنظر في الأرجاء حولي، فرأيت فستاناً مشابهاً لفستان سلام يوم زفافها، وقفت أمام واجهة المحل وقلت لأمي:

- كانت ترتدي ثوباً مشابهاً لهذا!
- من؟
- سلام، زوجة آدم.
- كيف رأيتِ صور حفل الزفاف؟

لم أشأ إخبار أمي بما فعلته يوم زفافه وكيف طلبت من جود فتح الكاميرا. بقيت في مكاني، وكي تحاول أمّي كسر الجليد راحت تسألني:

- وما مواصفاتها، تلك التي قبلت به؟
- قبلت به؟ تقولينها كما لو أنَّه شخصٌ كريهٌ بغيضٌ لا يحبّه أحد، لا أفهم تحاملك الشديد عليه! لم نرَ منه إلا الخير.
- أين الخير الذي رأيناه منه؟! حين أيقن أنَّك تتفوقين عليه في كلِّ شيءٍ هجرك.
- أمي أنا التي هجرته.
- المهم أنَّه ارتبط أخيراً بواحدةٍ مثله.
- ماذا تعنين بواحدةٍ مثله؟
- من مستواه.
- وما هو مستواه الذي تتحدَّثين عنه؟
- لا أريد الخوض في الموضوع، لكن من الواضح أنَّه لم يكن مناسباً لك ولا لمستواك.

ضحكت على خيبتي، ولم أستطع إلا أن أوضِّح لها وضع سلام، فأجبتها:

- لقد ارتبط آدم بفتاةٍ أفضل منِّي، هي ابنة خالة عمر وأخته في الرضاعة وما أدراك ما عمر وما عائلة عمر! كندية

الجنسيَّة وتتقن أربع لغات، تصغرني بسبع سنوات، أهذا هو المستوى الذي لا يعجبك؟!

- عمر زميلك في الجامعة، زوج جود؟
- نعم هو، الذي لم يكن يعجبك سواه من زملائي.

بعدها صمتنا أنا وأمِّي ولم يعد لدينا طاقة للكلام، لكن لم تنتهِ البرامج والترتيبات، ففي اليوم الثاني خرجت أمِّي بمشروع جديدٍ، وبدأ يومي وهي تقول لي:

- جُمان بشرتك متعبة وتحتاج إلى العناية، صديقتي طبيبة جلدية تعمل هنا في دبي، ولديها مركز للعناية بالبشرة، لقد حجزت موعداً لك اليوم.

لم أناقشها كثيراً، فنزلت عند رغبتها وانطلقنا إلى ذلك المركز. حين بدأت الموظفات بالعناية ببشرتي وأظافري، شعرت كما لو أنِّي عروس وسيقام زفافي غداً، لم أزعج أمِّي بأفكاري تلك، فوهبتها استراحةً من آدم لذلك اليوم، الذي مضى بجدالٍ أقل، وكما هو متوقعٌ لديها في اليوم الثالث مشروع جديد، ألا وهو شعري. لم أمانع الذهاب، فأنا أحتاج إلى تشذيبه فعلاً، لكنَّها لم تكتفِ بالتشذيب فقط، فراحت تلحُّ وتقول:

- ألا تملّين من نفس اللون؟

- أمِّي هذا لون شعري وتعلمين أنِّي أحبّه ولا أنوي تغييره!
- ابنتي، ستتجدَّد نفسيتك مع تجديد لون شعرك.
- منذ متى وأنت تفكِّرين بهذه الطريقة؟ أشعر أنِّي لم أعد أعرفك!
- منذ أن بدأت أنتِ بالتغيِّر، اسألي نفسك!

لم أعقّب فطاوعتها ومضينا، لأكتشف في اليوم الرابع أخيراً لِمَ كل هذه الاستعدادات والإجراءات، فثمَّة عريس مدعوٌّ على العشاء الليلة، وأنا لا ينقصني الآن حقّاً سوى هذا العريس لتكتمل "بهجتي" في دبي، لكنِّي فكَّرت قبل أن أثور وأعترض ألّا مانع من الذهاب، فمع تثاقلي خلال الأيام الماضية لجميع النشاطات التي قمنا بها أنا وأمِّي إلا أنّني انشغلت قليلاً عن التفكير في آدم وزواجه، حتَّى ولو كنت أذكره، إلا أنِّي لست بحالة الحزن والكآبة المعتادة. كان إلهائي وتعبئة وقتي هو الحلّ الأفضل لي، ولا بدَّ أنَّ والدتي عرفت هذه الاستراتيجية فاتَّبعتها معي.

حين حان موعد العشاء، كنت متحمِّسةً بعض الشيء لرؤية عريس الهنا الموعود، كي أرى كيف يختار والداي ومن هو الذي يوافق معاييرهما.

دخلنا إلى المطعم الساعة الثامنة مساءً، كان العريس في انتظارنا على طاولة الطعام. حين رأيته لا أدري كيف استطعت تمالك نفسي من

الضحك. كان بالفعل العريس النموذجيّ لي في نظر والديّ، وكأنَّ والدتي استطاعت أن تؤمِّن طلبيَّةً خاصَّةً وأتت بالدكتور حكمت.

حين جلستُ لم أشعر أنِّي مرتبكةً أمامه، فلستُ فتاةً صغيرةً لأرتبك، وليس هنالك ما يستدعي الخجل، أمَّا هو فقد كان ودوداً، رحت أنظر إليه، هو لا يشبه آدم بشيءٍ. يرتدي نظَّارات وملابسه رسميَّة جدَّاً، أمَّا شعره فمصقولٌ لدرجة ألّا شعرة تتحرَّك من مكانها، عكس شعر آدم الذي كان يتطاير فوق جبهته وعينيه طيلة الوقت. كنتُ أراقب كلَّ تفاصيل الدكتور حكمت، نظرت إلى بنطاله ورحت أتساءل: هل قام بكيِّه مئة مرَّة كي يحصل على هذه الكسرة القويَّة، أمَّا حذاؤه فقد كان ملمَّعاً كما لو أنَّه مرآة تعكس ما حولها.

خلال حديثه حكى لي الدكتور حكمت عن دراسته للاختصاص في ألمانيا، وعن إيجابيات العمل في دبي ولماذا اختار العمل هنا بعد الانتهاء من الاختصاص. كان الحديث مملّاً للغاية، رغم أنّه كان منسَّقاً وواضحاً بكلماته وجمله كافَّة، لكن أنا ليس لدي أي فضول لأعلم ما فعل وما يريد أن يفعل، انتظرت أن يُختتم الفصل الأول من المسرحيَّة، ويبدأ الثاني، الفصل الأكثر إثارة، وهو بعد أن يغادر حكمت وتبدأ أمِّي بإقناعي به.

وحدث ما كنتُ أتوقَّعه. تذرَّع والدي بعد مغادرة حكمت بأنَّ لديه بعض الأشغال فغادر وترك لنا المجال وحدنا، وما إن ودَّعنا والدي وانطلق، حتَّى بدأت أسئلة أمي:

- جُمان ما رأيك؟ الشابّ كامل لا ينقصه أي شيء.

هنا لم أتمالك نفسي وأخيراً أظهرت الضحكة التي كتمتها لمدَّة ساعتين، وبقيت أضحك قرابة الدقيقة، تضايقت أمِّي منِّي، فقالت لي وهي تنهرني:

- جُمان ما المضحك في الموضوع؟
- لا أدري، ولكنَّ الموقف مضحك.
- مضحك؟
- نعم، فبينما أعاني أنا من كسر القلب وضياع الأحلام، تأتي أنتِ لتقدمي لي عريساً جديداً كما لو أنَّه الحلّ السحري لحالتي، وتتوقَّعين أن أتجاوب معك، أليس الأمر برمَّته مضحكاً؟

هنا غضبتْ أمِّي وقالت لي:

- جُمان، يكفي استهزاءً وكلاماً فارغاً، هل ستبقين في معاناتك المزعومة تلك إلى الأبد؟ هل سيمضي بك العمر وأنتِ تعيشين في خيالات وأوهام؟
- لِمِ تقللين من قيمة مشاعري؟ أنا لا أفهم. أمَّا عن العريس، فإن كان ولا بدَّ أن أعطيكِ رأيي، فاسمعيه، هو شخصٌ ممتازٌ لكن ليس مناسباً لي أنا، وأنا لستُ موافقةً على إكمال مراسم التعرف إليه لأنِّي لا أرغب بالارتباط به، وأرجوك لا أريد مناقشة هذا الموضوع، أريد العودة حالاً إلى الفندق إن لم يكن لديك مانع.

وعدنا ومضى ذلك اليوم، ومضت بقيَّة أيام الإجازة المحدودة بعده على نحوٍ مزعجٍ، لم نعد نتكلَّم كثيراً، كانت أمِّي تسرد لي بين الحين والحين بعض المحاضرات غير المباشرة عن الثقة بالنفس، والثبات على القرارات، والحسم في الأمور، وأنَّ على الإنسان أن يكون مسؤولاً عن اختياراته ويواجه مخاوفه وضعفه. أعلم أنَّ كلامها سليم، وأؤمن أنَّها تريد أن تراني بأفضل حال، لكن لِمَ لا تحاول أن تفهم مشاعري؟ لِمَ لا تسألني عن وجع قلبي وتخففِّ عنِّي؟ لِمَ تتعامل معي كما لو أنّني آلة؟!

كان الأمر مؤلماً، والأكثر إيلاماً هو اليوم الأخير من الإجازة، ففي الطريق إلى المطار وبينما كنتُ أنظر من خلال النافذة إلى أبراج دبي العالية، والأضواء القوية، وصخب الحياة، سألتني والدتي:

- جُمان متى علمت بزفافه؟ أهي جود من كانت تجلب لكِ الأخبار؟ أم وسائل التواصل؟

ابتسمت لها ابتسامةً ماكرةً وقلت لها:

- تأخَّر هذا السؤال، كان لدينا متَّسعٌ من الوقت كي نتحدَّث عمَّا جرى، وكيف جرى، وكيف كانت حالتي، وماذا فعلت، وكيف استطعت أن أتجرَّع الألم وحدي بين أربعة جدران، وكيف تمكَّنت من تجاوز صدمة ارتباطه، وما العواقب والجروح والندوب التي ما تزال عالقةً في قلبي وروحي، كنتِ حينها ستفهمين لماذا لا أفتأ أذكره، وأذكر كلّ ما يتعلَّق به.
- جُمان لا تلوميني، نحن لا نفكِّر إلا بك وبمصلحتك.
- أعلم يا أمِّي، أعلم، لكن هلَّا فكَّرتما بمشاعري ولو لمرَّةٍ واحدةٍ؟!
- عليك أن تتذكَّري أنَّنا لم نجبرك على شيءٍ.
- لم أنسَ ذلك، ولا ألومك.

وفي تلك الأثناء وصلنا إلى المطار، نظرت إلى والدتي برفق وقلت لها:

- سامحيني إن كنت فظَّةً معك أمي!
- لا عليك، كوني أقوى وهذا يكفيني، على أي حال، لقد اعتذرت من الدكتور حكمت، لا أريد أن أضعه في موقف محرج.
- شكراً لك أمِّي.

وعندما حان وقت الوداع رقَّ قلبي كثيراً، افترقنا ودموعي على خدِّي، عدت لوحدي مرَّة أخرى، لم أستطع حتى أن أستمتع بوجودي مع والديّ. كان تصرُّفي خاطئاً، وكان عليّ أن أكون أقوى، لِمَ استسلمت لمشاعري بهذه الطريقة السخيفة؟!

رحت أفكِّر وألوم نفسي، شعرت بالخزي الشديد، وأدركت في النهاية أنِّي ابنة أمّي وأبي اللَّذين لطالما أغرقتهما بالنقد، لم أعد أريد لومهما بعد الآن في أي تصرُّف، فلديّ الطباع ذاتها، وكلَّما حاولت التطبّع بصفات وأراء وأفكار وأساليب أخرى لا أنجح ويتغلَّب طبعي على تطبُّعي.

أكان تصرُّفي خاطئاً أم صحيحاً؟ كنت أتساءل وأنا في الطائرة، لم أجد جواباً، ولم أعد أريد التفكير أكثر، لكن شيئاً واحداً كنت متأكِّدةً منه، أنِّي جئت إليهما أحترق وعدت وأنا رماد.

جُمان يوليو 2013

إنّه الصيف مجدَّداً، الصيف الرابع الذي أقضيه في باريس. تلك المدينة التي تتغيَّر في شهر تموز لتصبح مليئةً بالسيَّاح وخاليةً من سكَّانها. طوال السنين الماضية كنت أعتبر نفسي من فئة السيَّاح، وكنت أتمتَّع بجمالها صيفاً، ولا سيَّما أنِّي لم أكن أجد الوقت للتنزُّه شتاءً بسبب انشغالي بالعمل والدراسة، لكن في هذه السنة تحديداً، لم أرغب بقضاء الصيف فيها، فقد ألفت المكان واعتدته وبتُّ أشعر أنِّي من سكَّان هذه المدينة وأهلها، لذا فقد كنت بحاجةٍ إلى السفر إلى مكانٍ آخر أقضي به عطلتي وأروِّح عن نفسي.

ورغم أنِّي التقيت بوالديّ قبل شهرين، إلا أنَّني أردت رؤيتهما مجدَّداً، فاخترت أن ألتقيَ بهما في تركيا، لكنَّهما رفضا بحجَّة انشغالهما في العيادة. لم يغب عن أمِّي سبب تجنُّبي المجيء إلى الوطن، فهي تعلم أنِّي أحاول التهرُّب من المكان الذي يوجد فيه آدم، ويذكِّرني بآدم وأيَّامي الماضية معه. كانت في بادئ الأمر تطاوعني، لكنَّها في هذه السنة أبت أن ترضخ لطلبي. من الواضح أنَّه لم يعد يعجبها هذا الوضع بعد الآن، وترغب في أن أعود قويَّةً صارمةً متحكِّمة بزمام أموري، وشعرت من كلامها أيضاً أنَّ هنالك بعض العرسان في قائمتها وترغب في أن ألقاهم. لم أناقشها

وخضعت لضغطهما ولمشاعر الاشتياق التي تجتاحني، فقد اشتقت إلى منزلي، وغرفتي، وأشيائي، وذكرياتي هناك، اشتقت إلى مبنى جامعتي، وزملائي وصديقة الروح جود، لذا حجزت تذكرة السفر. كانت فرحة والديّ كبيرة عند رؤيتهما لي، لم يكن قد مضى على آخر اجتماعٍ لنا إلا بضعة أسابيع، ولكن كما تقول أمّي رؤيتك في منزلك لا تشبه رؤيتك في الفنادق، وأكلك معنا في المنزل لا يشبه طعامنا في المطاعم، آهٍ لدى أمّي كثير من المشاعر التي لا أعرفها إلى الآن، أهي امرأةٌ لا تعرف كيف تظهر مشاعرها، أو أنَّها تخفيهم عمداً؟

حين وصلت، اتَّصلت بجود لأخبرها بمجيئي، كانت سعيدةً للغاية بهذا الخبر، لا أفلح مثلها في تحضير المفاجآت، كنت أودُّ لو أذهب إلى منزلها فأظهر لها من دون أي موعد مسبقٍ ولكنّي لا أستطيع فعل ذلك، فهذا ليس من طباعي، خشيت أن أسبب لها الإحراج أو أن أذهب في وقتٍ غير مناسب. المهم أنّي وعدتها بزيارتها في بيتها في اليوم التالي لوصولي.

كانت المرَّة الأولى التي أرى فيها جود في منزلها. لطالما رأيت بعض زوايا منزلها من خلال الصور أو حديثنا عبر الفيديو، لكنَّه كان أكثر فخامة على الواقع. تحبُّ جود الفخامة والألوان الذهبية كما تحبُّ اقتناء التحف الثمينة. حين دخلت قلت لها:

- أشعر أنِّي في قصر فيرساي.

ضحكت وهي تقول لي:

- لا تبالغي، إن كان منزلي المتواضع مثل فيرساي، ماذا عن منزل أهلك؟
- لا أبالغ، الألوان هي ذاتها، جميل حين يختار المرء أثاثه ومقتنياته بذوقٍ وحكمةٍ.
- شكراً لإطرائك جُمان، شرَّفت أهلاً بك.

ومضت جلستنا بهدوءٍ ولطفٍ، عدنا بها إلى أيامنا الماضية، ورأيت جود وهي أمًّاً لطفل. ربيع الرضيع الصغير، هو جميل جدَّاً، يشبه عمر وجود في الآن ذاته، لم أستطع أن أحمله كثيراً فقد كان يبكي، لذا ظلَّ في حضن والدته ليتسنَّى لنا الحديث، ورحت أفضفض لها عمَّا في داخلي لكن بتحفُّظٍ وتأنٍّ، فلا رغبة لي بفتح الأحزان، ولا أريد أن أكون مصدراً للطاقة السلبية أينما حللت، كما أنَّ وضع جود قد تغيّر، فقد باتت أمَّاً ولديها مهمات ومسؤوليات كثيرة، وسيكون مُملَّاً أن أشكي وأبكي وأنا أنعي قصصي القديمة التي لا طائل منها، ناهيك عن صلة القرابة بينها وبين زوجة آدم، الأمر الذي يسبِّب لجود الإحراج بشكلٍ مستمرٍّ، لذا حاولت ألا أكثر من الحديث عن آدم وعن الفراغ العاطفي الذي يعتري

فؤادي والذي لم أجد من يملؤه بعد، وبينما كنت على وشك المغادرة، وإذ بالباب يُطرق.

- أهو عمر؟
- لا، لا يعود عمر في هذا الوقت.
- أتتوقَّعين قدوم أحد؟
- قد تكون ريم أختي، فقد أخبرتها أنَّك هنا وقالت لي إنَّها ستحاول القدوم لرؤيتك.
- آه بالفعل، لقد اشتقت إليها.

وذهبت جود لفتح الباب، وإذ بجارتها. رحَّبت بها وقدَّمتنا لبعضنا البعض. السيدة رجاء، امرأة في الخمسينيات من عمرها، تكبرنا بنحو عشرين سنة، لطيفةٌ وودودة، إلا أنَّها مثل المذياع المتحرِّك، لا تتوقَّف عن الكلام إطلاقاً، فبغضون عشرين دقيقة كانت قد تحدَّثت عن ألف موضوع، تبدأ بحديث وتنتهي بآخر، لم تعطِ المجال لأحدٍ كما لم تهدأ ثانية، إلا حينما طُرِق الباب مجدَّداً، قالت حينها جود:

- لا بدَّ أنَّها أختي ريم، سأفتح الباب.

ومضت جود لتفتح الباب إلا أنَّ ربيع الصغير تضايق بشدّةَ من تكرار النقر على الباب وعلى الجرس، فبكى بشدَّةٍ. جرت جود نحوه لتهدئته، فنهضت جارتها وفتحت الباب وقالت:

- سلومة، أهلاً يا ابنتي، ما هذه المفاجأة الجميلة؟

لم تكن ريم، بل سلومة، من سلومة تلك؟

تساءلت وأنا أنتظر من مكاني. سمعت صوتاً لا أعرفه يجيبها بلكنةٍ خاصَّةٍ:

- أهلاً تانت رجاء، ألم تحزرا أنّيِ من أطرق الباب؟ انتبهوا في المرَّة القادمة فأنا أستخدم بصمةً خاصَّةً لقرع جرس الباب، ألم تكن البصمة واضحة؟

ضحكت السيدة رجاء وهي تجيبها:

- لا لم تفلحي ببصمتك تلك، لكن فلحت بإيقاظ ربيع المسكين وجعلته يدخل بنوبة بكاءٍ من خوفه.

ضحكت تلك الضيفة ثمَّ دخلت مع السيدة رجاء، كنت ما أزال جالسةً في مكاني، في الصالة الكبيرة التي تطلُّ على مدخل المنزل، وبينما كانتا

تتوجَّهان نحو الغرفة التي أجلس فيها، انتهت جود من تهدئة ربيع فأتت ترى من الذي طرق الباب:

- سلام؟

قالتها جود بارتباكٍ شديدٍ، فلاحظت الاسم أخيراً "سلام" أهي هي؟؟! ارتجف قلبي وارتبكت أنا أيضاً، إلا أنِّي ثبتُّ في مكاني وركَّزت في حديثهما أكثر.

- نعم سلام! لِمَ كل هذا الاستغراب؟ أهنالك شيء على وجهي؟
- لا، كلُّ شيء على ما يرام، لم أكن أعلم بقدومك!
- أهي المرَّة الأولى التي آتي بها من غير موعدٍ؟ على كلِّ حالٍ، أين الشاورما؟ لقد اتصل بي عمر وأخبرني أنَّه سيحضر اليوم شاورما لذيذة من مطعمي المفضَّل، لم أقاوم تلك الدعوة وأتيت مباشرة.
- أهلاً وسهلاً بكِ سلام.

إذن هذه هي سلام، تطرق الباب دون موعدٍ ولا تعير أهميَّة أو حساباً لأيِّ شيءٍ. تأتي وتزور الناس من غير دعوةٍ، وترغب في إضافة بصمتها على رنَّة جرس الباب! ما هذه الفتاة! وما هذا السخف! أيعقل أنَّها بالفعل تربية كندا؟ أيعقل أنَّ آدم أحبَّها؟

أكملت كلامها، وهي تدخل إلى الصالة التي أجلس بها قائلةً:

- هل سأقف طيلة اليوم هنا في المدخل، يبدو أنَّ لديك ضيوفاً.

وددت لو أتجنُّب اللقاء بها ولكن ليس من المعقول أن أهرب، ثمَّ لست أنا من سرقت منها حبيبها، بل هي التي فعلت!

وفي تلك الأثناء أقبلت جود وهي مضطربة وراحت تعرِّفنا إلى بعضنا.

- سلام أخت عمر، جُمان صديقتي.

حين وقفت سلام أمامي رأيتها بوضوحٍ، إذن فهذه هي بطلة قصّتك يا آدم! كانت سلام أجمل ممَّا تخيَّلت، صحيح أنِّي رأيتها أكثر من مرَّة في الصور وفي الفيديو ولكن كنت أوهم نفسي أنَّها تبدو في الصور أجمل من الحقيقة، فأنا في كلِّ المرات التي رأيتها في صورها كانت في مناسباتٍ خاصَّة، لذا فقد كانت بأبهى حللها، ولكن والحق يقال، كانت سلام تلك جميلةً وهي على طبيعتها ودون أي مساحيق للتجميل، فاجأني شعرها المموَّج المتروك على حاله، والذي كان يناسب وجهها، وصدمت بملابسها التي ترتديها، فقد اعتقدت أنّها تتبع الأسلوب الرسميّ، كونها من عائلة عمر، إلا أنّها كانت ترتدي بنطال جينز، وقميصاً فضفاضاً وغريباً بعض الشيء، أمَّا طولها فبالكاد يصل إلى 160 سم، وبكلِّ ثقةٍ

كانت ترتدي حذاءً رياضيًّا يبقي على طولها الطبيعي القصير مقارنة مع آدم!

حزَّ في قلبي حين لاحظت أنَّها تلفّ على معصمها أحد الأشرطة التي كان يضعها آدم على معصمه، وبينما أنا أتأمَّلها، جلس الجميع، تعمَّدتْ سلام أن تجلس في الطرف المقابل لي، وليس بجواري، سألت نفسي: أتريد أن تأخذ مسافة أمان منِّي! تبًّا، كما لو أنِّي سأنقضُّ عليها!

كانت المسكينة متوتِّرةً جدًّا، واحمرَّ وجهها بعدما سمعت باسمي، يبدو أنَّ انفعالاتها تنعكس مباشرة على وجهها، فهي لا تستطيع إخفاء ارتباكها، ومشاعرها. تساءلت: أهكذا ارتبكت أمام آدم فأوقعته في شباكها؟ أم أنَّها أطالت النظر إلى عينيه، مستخدمةً جمال عينيها؟

كنتُ أنظر إليها بمقتٍ شديدٍ دون أن أظهر أيّاً من مشاعري كما تفعل تلك الحمقاء. في هذه الأثناء وضمن هذه الأجواء غير اللطيفة حاولت جود أن تسيِّر الجلسة والحديث بلباقةٍ، وراحت تركِّز في حديثها على عمر، العنصر الحيادي الوحيد بيننا، إلى أن تذمَّرت جارتها السيدة رجاء وقالت:

- عمر، عمر، أليس لنا سيرة غيره!

ضحكت جود وهي تجاملها.

آهٍ لو تعلمي يا سيدة رجاء كم نعاني نحن الثلاثة في هذه اللحظة. ارتبكت جود ويبدو أنَّ ربيع قد شعر بأمِّه فبدأ بالبكاء، وباءت محاولات سلام في إسكاته بالفشل، لكنّها استسلمت وسلَّمته لأمِّه التي أخذته إلى غرفةٍ أخرى لتهدئته فقد كان بكاؤه شديداً، وبقينا بذلك أنا وسلام والسيدة رجاء، فاستلمت الأخيرة الحديث وبدأت بي:

- هل تعلمين؟ لطالما حدَّثتني عنك جود، هي فخورةٌ بك وبإنجازاتك، أخبرتني أنَّك طالبة بالماجستير.

قلت في نفسي: جيِّد حان وقت الاستعراض، أجبت السيدة رجاء بتواضعٍ مصطنعٍ:

- بل أنا طالبة دكتوراة، لقد أنهيت الماجستير منذ أكثر من سنةٍ.

- بسم الله ما شاء الله، أتمنَّى أن يصبحن بناتي مثلك، ألم تجدي صعوبةً بدراستك؟
- من يملك هدفاً يحقِّقه حين يسعى إليه، مهما كان صعباً.
- أكيد، فبالإضافة لدراستك هنالك عائق اللغة والغربة كم أنت عظيمةٌ!

ابتسمتُ ونظرت بطرف عيني إلى غريمتي، التي كانت محتارةً في شعرها تأخذه يميناً وشمالاً، مرتبكةً بكلِّ ما حولها، شعرت أنَّ ثمَّة هالة من الفوضى تحيط بها. أكملت السيدة رجاء استجوابها فسألتني:

- وكيف هي لغتك الفرنسية؟
- بحمد الله أتقنتها بشكلٍ جيِّدٍ.
- أتعلمين يا عزيزتي جُمان؟ ابنتنا أيضاً تتقن أربع لغات أو أكثر، ومع ذلك تعمل مصورةً فقط، سلام، ما اللغات التي تتقنيها؟

يبدو أنَّ الخالة رجاء وكثيرون غيرها لا يقتنعون بشهادة سلام في فنِّ التصوير، مع أنَّها قد حصلت عليها من جامعةٍ مرموقةٍ جدَّاً في كندا، فلقد اطَّلعت على ملفِّها المهنيِّ، على أي حال، هذه مشكلتها، فلتتعامل مع هذا المجتمع التي اختارت البقاء فيه. هنا خرجتْ سلام من الشرود وقالت:

- عفواً تانت، لم أسمع سؤالك!
- ما بالك اليوم سلومة؟ كنَّا نتكلَّم عن الدكتورة جُمان وإنجازاتها ووصلنا إلى موضوع اللغة، سألتك عن اللغات التي تتقنيها.
- آه، أنا معكن، ما شاء الله، أتمنَّى لك التوفيق دائماً.

ووجَّهت نظرها نحوي بسرعةٍ شديدةٍ، فأجبتها بكلِّ ثقةٍ:

- شكراً لك.

وهنا أعادت السيدة رجاء سؤالها للمرَّة الثالثة:

- سلام لَم تجيبي عن سؤالي!
- آه، أتقن العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية أيضاً.

لم تقتنع السيدة رجاء بحالة سلام، وشعرتْ أنَّ خطباً ما يعتريها، فسألتها:

- سلام ما بكِ؟
- لا شيء.

كنت أفكِّر وأنا أتابع هذه المسرحية، كم أنَّ هذه الفتاة غير ثابتة، وكيف سبَّبت لها رؤيتي كلَّ هذا الاضطراب. أكملتا حديثهما:

- لكنَّك لست على طبيعتك.

- لا شيء، لا تقلقي.

ثمَّ نظرت إليها السيدة رجاء وقالت لها:

- بالمناسبة ألن تتوقفي عن ارتداء ملابس زوجك؟ من يراك لن يصدِّق أنَّ والدتك اشترت لك جهازاً يكفي عشرين عروساً، ولم تترك سوقاً في كندا وتركيا وإسبانيا لم تجهِّزك منه.

قلت في نفسي حينها: إذن فهو قميص آدم هذا الذي ترتديه، وبسبب طوله وعرضه ومقاسه غير المتناسب مع حجمها تركته مفتوحاً وربطت نهايتيه بعقدةٍ كبيرةٍ.

أكاد لا أصدِّق، حتَّى قميصه لم تتركه وشأنه!

وفي هذه اللحظة عادت جود إلى الغرفة وأخيراً، كانت تلك المدّة أثقل ربع ساعة مرَّت عليّ في حياتي كلّها. آلمني كلُّ ما رأيت وسمعت ولم تعد لديّ أي رغبة للمكوث أكثر. استأذنت جود بالرحيل، ودَّعت الضيفتين وحين وقفت عند الباب لم أستطع إخفاء انزعاجي. انهمرت دموعي على خدِّي وقلت لجود بصوتٍ مختنقٍ حتَّى لا يصل إلى آذان سلام:

- حتَّى صديقتي لم يتركوا لي الفرصة لأراها، حتَّى أنتِ أخذوك منِّي يا جود!

تغيَّرت ملامح جود وبدت حزينةً ممَّا قلت، ضمَّتني إليها بقوَّةٍ وقالت لي:

- لا تهذي جُمان، أقسم إنَّ الموضوع حصل بالصدفة، لم تتح لي الفرصة أن أخبر عمر بقدومك اليوم.
- أعلم، جود أعلم.
- أنا هنا دائماً معك ولأجلك، تذكَّري هذا جيِّداً.
- أعلم ذلك.

مسحت دموعي وتمالكت نفسي، وكي تغيِّر جود الموضوع قالت:

- لا تنسي موعدنا غداً في اجتماع أبناء دفعتنا في نادي المهندسين.
- بصراحة لم تعد لي رغبة بالمجيء.
- ولكنَّ سيأتي الجميع، سيكون اللقاء رائعاً.
- سأفكِّر بالأمر، لكن لا طاقة لي أن أراه مع زوجته، لا أريد أن أراها مرَّةً أخرى.
- لا تفكِّري كثيراً في هذا الموضوع، هذه دفعتك أنتِ، وأنت إحدى نجومها، إن لم تأتِ سيكون الأمر مخيِّباً للآمال، أرجوك حاولي القدوم.
- أعدك أنّي سأحاول.

وافترقنا وعدت إلى المنزل بعد أن هوَّنت عليّ جود بكلامها الصدمة التي انهالت على رأسي. أعدت الحديث الذي دار بيننا أنا وسلام مئات المرّات، رحت أتذكَّر انفعالاتها وذهولها، تساءلت: أهي ضعيفة إلى هذه الدرجة ولا قدرة لها على مواجهة الطرف الآخر! بالنهاية أنا هو الطرف الخاسر! فهي زوجته وأنا لا شيء بالنسبة له الآن.

لكن ألم يستطع أن يختار لنفسه زوجةً غيرها؟! أهذه الفتاة الطريَّة هي التي استبدلها بي؟

بعد ساعات عاودت جود الاتِّصال بي لتطمئنَّ على حالتي، أجبتها بكلِّ حزمٍ وأنا أتظاهر بالقوة:

- أتحسبيني سلام؟ أنا بخير لا تقلقي، وحبَّذا لو تطمئنِّي عليها هي، شعرت أنِّي أمام طفلة نُزعت منها دميتها وترغب في البكاء.
- جُمان، أرجوك، تذكَّري أنَّها أخت عمر، لم أرَ من الفتاة إلا كلّ الخير.

لم أرد، فسألتني:

- هل اتَّخذت قرارك فيما يتعلَّق بالذهاب إلى لقاء الدفعة؟
- لن أذهب.

- كنت تتحدَّثين عن قوَّتك منذ دقيقة، أظهريها إذن وأثبتي لنا ذلك.
- لست بحاجةٍ إلى أن أثبت شيئاً.
- ولكن سيسأل الجميع عنك ولا سيَّما أنَّهم على علمٍ بأنَّك هنا في إجازةٍ، لذا ستكونين موضع الحديث إن لم تأتِ.
- سأفكِّر على كلِّ حالٍ.
- حسناً، أنتظرك غداً لا تتأخَّري.
- على فكرة، لقد كرهت الشاورما للأبد.
- كما تشائين يا عزيزتي، المهم ألا تكرهينني.
- لن أفعل، اطمئنّي!

ضحكتُ وأغلقت الهاتف ورحت أفكر بقراري فيما كنت سأذهب إلى الاجتماع أم لا.

جُمان يوليو 2013

لا أريد أن أكون مثل تلك الفتاة المهزوزة التي لم تستطع مقابلتي في منزل جود لمدَّة ربع ساعة فقط، لذا قررت الذهاب. جهَّزت نفسي وانطلقت إلى اجتماع دفعتنا. لقد مضت خمس سنوات على آخر لقاءٍ بيننا، كانت حفلة التخرج، يا إلهي كم تمضي الأيام بسرعة، أمَّا هو، فهي أربع سنوات لم أره فيها ولم أكلِّمه وجهاً لوجه، بينما ظلَّ طيفه حولي، وها أنا ذا سأراه، كيف سأبدأ السلام؟! عن ماذا سأحادثه؟!

حين وصلت، اشتعل قلبي حماسةً وأنا أرى الجميع، يحمل كلٌّ منهم أخباراً جديدةً، هذا من تزوَّج، وذاك من أنجب، وتلك من باتت تعمل هنا، ومنهنَّ من تغيَّر شكلهنّ والبعض قد اكتسب وزناً، وأغلب المتزوجين من الشباب بات لهم كرشٌ يتقدَّمهم، لكن يزن كما هو، بقي شعلةً من الذكاء تتَّقد، بل ازدادت هيئته ذكاءً مع تلك النظارات التي وضعها على عينيه.

نظرت حولي، أبحث عن جود، فلم أرها، يبدو أنَّها في الطريق، أمَّا هو فلم أستغرب تأخُّره، فهو لن يتغيَّر، هذه عادته دائماً. لم أكن قد لاحظت

ليلى بعد، لكنِّي سمعت صوتها فجأة تحثُّ الباقين على الترحيب "بالعريس".

عريس، أيّ عريس! أمن الممكن أنَّها تعنيه، لا شكّ، فهو متزوِّج منذ شهرين لا أكثر. انصاع الجميع لهتافها وراحوا يغنُّون معاً "عريس الزين يتهنَّى".

وفعلاً، كان آدم هو العريس الذي عنته ليلى.

آهٍ يا ليلى كم تفلحين في كسري في كلِّ مرةٍ! أتنتقمين منِّي لأنِّي تخلَّيت عن آدم كما تخلَّى يزن عنك؟!

دخل آدم ووجه مُحمرٌّ من الاستقبال الحافل الذي حظي به، شعرت أنَّه يبحث عن مكاني ولم يكن مرتاحاً في طريقة تحرُّكه في الصالة. في تلك الأثناء ركضت ليلى نحوه كمن تريد الاحتماء فيه من يزن، أمَّا أنا فأدرت ظهري وأبديت عدم اهتمامي وملاحظتي له كعادتي، ولكنِّي كنت مسرورةً جدَّاً لأنَّه أتى بمفرده ولم تكن معه سلام. رحت أتنقَّل من مكانٍ إلى آخر، أتحدَّث مع زملائي وأنا أتحاشى أن ألتقي معه.

جود! أين أنتِ يا جود؟ لِمَ لم تأتِ بعد؟! كم تجيدين التأخُّر!

كان لا بدَّ وأن نتواجه في لحظةٍ ما، وبالفعل تقابلت أعيننا أخيراً. كان جالساً إلى إحدى الطاولات، مسنداً رأسه بيديه. حين أطال كل منَّا

النظر إلى الآخر، تلاشت ابتسامته التي كانت تعلو وجهه وحلَّت محلَّها نظرةٌ لن أنساها ما حييت، نظرة ملؤها العتاب، كانت تلك النظرة هي ذاتها التي رأيتها يوم افترقنا، لم تتغيَّر إطلاقاً وكأنَّه احتفظ بها طوال تلك السنين فقط ليريني إيَّاها مجدَّداً. كأنَّ السنين قد فرَّقتنا واجتمعنا مرَّة أخرى ولكن الجرح نفسه لم يتغيَّر. كان الموقف صعباً، وكاد قلبي يخرج من ضلوعي ليركض إليه ويخبره أنَّه ما يزال الوحيد إلى الآن الذي يشغله. لا أعلم كيف بدوت في تلك اللحظات ولكنِّي كنت واثقةً أنَّ ضغط دمي قد ارتفع، لم أستطع إلا أن أحوِّل نظراتي من عينيه إلى يده علِّي لا أرى أيَّ خاتم فيها، ولكن وللأسف الشديد كان يرتديه بل إنَّه ولثوانٍ محدودةٍ ودون شعورٍ منه تحسسَّ خاتمه لعلَّه كان يذكِّر نفسه بزوجته، ويؤكِّد لي أنَّ لا أمل لنا معاً.

غضضت بصري والتفت إلى اتِّجاهٍ آخر، لكنَّه كان هو المبادر، فتقدَّم نحوي ليلقي السلام. حين وقف أمامي، رأيته كما دائماً، متألِّقا لم يتغيَّر إطلاقاً، بل ازداد وسامةً، فامتلأ جسده النحيل ليصبح رياضيَّاً بتقسيماته واتسعت أكتافه.

- أهلاً جُمان، حمداً لله على سلامتك.

صوته، نعم هو ذاك الصوت الذي همس في أذني أحبّك، ذاك الصوت الذي أخبرني بأنَّه يحتاج إلي وأنَّه متعبٌ من دوني، ذاك الصوت الذي

كان يرجوني ألا أغادر، والذي ردَّد بأنِّي أجمل وردة في الوجود، نعم هو صوت آدم نفسه، خفق قلبي وأنا أجيبه:

- شكراً، كيف حالك؟
- بخيرٍ، وأنتِ؟
- الحمد لله.

كنَّا لم نفتح أي حديثٍ بعد وإذ بي ألمح أحدهم يقاطع كلامنا ويربت على كتف آدم من الخلف، وبصوتٍ ظاهره اللطف وباطنه كثير من الحزم والقوَّة قال:

- مرحباً آدم!

استدار آدم وإذ بعمر وخلفه سلام، لو لم أرها من قبل لما عرفتها. كانت مفاجأة آدم كبيرة جدًّاً، قطّب حاجبيه وقال:

- سلام! ألم تنوي البقاء مع ربيع؟

نظرت سلام إلى عمر وكأنَّها تستجديه، فأجاب عمر:

- ولِمِ تبقى هي مع ربيع؟ هناك جدَّته وأمُّه وهما أولى به.

لم يعلم آدم كيف يجيب، فاستدار وهو مندهش من الموقف، وقال:

- دعوني إذن أعرِّفكم إلى بعضكم، عمر، جُمان.

وضحك آدم ضحكةً باهتةً في محاولةٍ منه لكسر حدَّة توتُّر الموقف.

- أهلاً جُمان، كيف حالك؟

أجبته وأنا أتظاهر بعدم المبالاة:

- بخير، شكراً لك، ألن تأتي جود؟
- بلى ستأتي، لكنَّها بالسيارة وستلحق بنا حالاً، لديها مكالمة طارئة.

ثمَّ نظر عمر إلى آدم نظرةً مغزاها "ماذا عن سلام"، حينها أشار آدم إلى سلام وقال:

- وهذه سلام أخت عمر.

وهنا رأيت وجهاً آخراً لعمر لم أره في حياتي، كان غاضباً من آدم أشدّ الغضب، بينما انكسرت الفتاة انكساراً شديداً، حاول آدم تدارك الموقف فقال:

- مهلاً، مهلاً، أنا أمزح فقط، يبدو أنِّي لم أعد أجيد المزاح الجيد، سلامي هذه جُمان زميلتنا في الجامعة، جُمان أعرِّفك هذه زوجتي سلام.

سلامي! أهكذا يناديها؟

تظاهرنا بأنَّنا نلتقي للمرَّة الأولى، كما لو أنَّ ثمَّة اتفاق مسبق لهذا التظاهر، وَيلي كم نفكِّر نحن النساء بأسلوبٍ مشابهٍ لبعضنا البعض!

لم نبقَ كثيراً على هذا الوضع السخيف، بل مضى آدم مباشرةً مع زوجته ممسكاً بيدها بوجهه الشاحب والغاضب. أنا التي أعرف ذلك الوجه مهما حاول إخفاءه. جلست بعدها قرابة الساعة ومن ثمَّ عدت إلى المنزل، لم أحظ حتى بالجلوس بجانب جود، فقد كانوا جميعاً يجلسون إلى طاولةٍ واحدةٍ، عمر وجود وآدم وسلام.

عنيدةٌ هي جود، أخبرتها أنِّي لا أودُّ القدوم إلى هذا اللقاء، لكنَّها أصرَّت. لم تفهم أنَّ انتماءها إلى عائلة زوجها هو الطاغي الآن، هذا هو

الواقع مع الأسف. لم أنزعج منها، فلا علاقة لها بشيءٍ، ولم ولن يتغير شيءٌ من مودَّتي لها، لكنَّه النصيب؛ أن تكون عمَّة ربيع هي الشخص الأكثر بغضاً لي.

الفصل الخامس

جُمان سبتمبر 2015

كنت أجلس في غرفتي، أنظر إلى اللوحات التي علَّقتها على الحائط، لقد مرَّ شهر على تخرُّجي وحصولي على شهادة الدكتوراة، لكِنّي ما أزال متخبِّطةً لا أعلم إن كنت سأبقى في الجامعة، أم أسافر إلى مكانٍ آخر، فعقدي مع الجامعة على وشك الانتهاء وما أزال متردِّدةً أساساً فيما إذا كنت سأكمل طريقي في المجال الأكاديمي أم سأقتحم المجال الصناعي. قطع سلسلة أفكاري إشعارٌ بقدوم رسالةٍ، لا بدَّ وأنَّها جود، فهذا هو الوقت الذي تفرغ فيه من مشاغلها، منذ زمنٍ طويلٍ لم نعد نتحدَّث كثيراً، إنَّما نكتب كتابةً، لا أعلم كيف انتهى بنا الأمر كذلك، نتحدَّث مع بعضنا فقط في الحالات الخاصَّة، على أي حال لا تنقطع رسائلنا إطلاقاً، وهذا ما يهمّ، فأنا أقدِّر انشغالها الشديد مع عمر والأطفال. فتحت الرسالة، وكالعادة السؤال ذاته "أأنتِ هنا؟"، أجبتها:

- نعم، هل نام الأطفال؟
- بشقِّ الأنفس، وأنا الآن أحدِّثك في الظلام، لا طاقة لي للخروج من سريري، كيف حالك؟
- بخيرٍ
- ما أخبارك؟

- لا جديد
- ورامي؟
- أتعلمين؟ أشعر أنِّي سأنهي الأمر قريباً.

توقَّفت جود عن الكتابة لوهلة، ثمَّ وضعت لي وجوهاً تعبيرية عن الاندهاش، فوضعتُ لها وجهاً ضاحكاً وكتبت:

- لِمَ كلّ هذا الاستغراب؟
- كاد الأمر أن يتمّ، وكلّ شيء على ما يرام، ماذا طرأ بالضبط؟
- لا شيء على ما يرام، أنا أوهم نفسي.
- جُمان، لا تضيعيه من يدك، رامي رجلٌ جيِّدٌ وذو أخلاق ودين، أعتقد أنَّكما تتحدَّثان مع بعض منذ عشرة شهور، أليس كذلك؟
- هذا صحيح، لكن أنا لا أستطيع منع نفسي من المقارنة

وهنا توقَّفت عن الكتابة حتَّى لا تنهال جود عليّ بأي كلمةٍ، وضعت لي جود في تلك الأثناء قلباً مكسوراً وكتبت:

- في هذه الحالة لن ترتبطي بأحدٍ إطلاقاً.
- ولْيكن..
- هل أنتِ جادَّةٌ جُمان؟
- لا أعلم، لم أعد مرتاحةً بالتعامل معه.

- لكنّك اعترفتِ لي أنَّ ثمَّة مشاعر جميلة تحملينها له.
- نعم، لا أنكر ذلك، لكنَّها ضئيلة وقليلة، ليست ثابتة، يزعجني حين يعاتبني ويطالبني بمزيدٍ من الاهتمام، أنا لا أستطيع أن أحمِّل نفسي أكثر من طاقتها ولا أستطيع أن أتظاهر بالاهتمام حين لا ينبع من قلبي فعلاً.
- حاولي جُمان، حاولي أن تفتحي قلبك له أكثر، فالرجل معجبٌ بك كثيراً.
- الحقُّ يقال، هو كذلك فعلاً، طيلة تلك الشهور كنت أشعر بطاقةٍ إيجابيَّةٍ في كلماته، فليسوا جميعهم على هذه الشاكلة، هل تذكرين أمجد؟
- أمجد! لا.

وضعت لها وجوهاً ضاحكة، وقهقهةً طويلة ومن ثمَّ كتبت:

- أحد المرشحين الذين حصلت عليهم، كنتِ حينها منشغلةً مع ربيع، فلم أشأ أن أزعجك، ومن الجيد أنِّي لم أفعل، فقد انتهى الأمر خلال مدَّة قصيرة.
- ما كانت مشكلته هذا؟
- لا يريد الزواج، إنَّما هي أمُّه من تدفعه إلى ذلك، وكي يتخلَّص من إلحاحها راح يبحث عن عروس.

- ويح قلبي، أأخبرك بذلك بشكلٍ صريحٍ؟
- ومباشر ومن غير لفٍ أو دوران.
- هذا يعني أن نعطي فرصة لرامي مجدَّداً، هل أنتِ موافقة جُمان؟
- حسناً سأحاول.
- أنت تعلمين جُمان أنَّه ومع الوقت ستبدأ الفرص بالاختلاف، لا أعني أنَّ القطار سيفوتك، لكن تكون الفرص الآن أكثر واقعيَّة.
- أعلم، لا عليك، لديك الضوء الأخضر لقول أي شيءٍ.
- جُمانتي، أحبُّك كثيراً.
- وأنا أيضاً، أرسلي كثيراً من القبلات إلى ربيع وورد وسلامي لعمر، اذهبي إلى النوم لا بدَّ وأنَّك متعبةٌ.
- حسناً، تصبحين على خير.

وضعت لها وروداً وقلوباً وأغلقت هاتفي وفكَّرت مجدَّداً في إعطاء رامي فرصة أخرى لنرى عن ماذا ستسفر تلك الفرص الثمينة.

جُمان نوفمبر 2015

رغم أنَّ نصائح جود كانت وما تزال صائبةً أغلب الأحيان، إلا أنَّني لم أكن واثقةً من صحَّتها هذه المرَّة، فقد وضعت طاقةً وجهداً في سبيل الإبقاء على علاقة التعارف مع رامي، وكان لا بدَّ من الانتقال إلى مرحلة التعارف الحقيقي والواقعي بعد المعرفة الافتراضيَّة التي تغلب بها حسنات الشخص على سيِّئاته وترجح كفَّتها بسهولةٍ ويسرٍ مثل جميع العرسان الذين تقدَّموا لي مسبقاً.

في يوم وصوله، ذهبت إلى استقباله من المطار، كان رامي يشبه صورته، وحين بدأ بالحديث كان حديثه كما هو عبر مكالمات الفيديو، حتَّى حركات يديه كانت تظهر هي ذاتها. بدأت أقتنع أنَّ العالم الافتراضي ربَّما يعطي فعلاً صورةً حقيقةً. أمسكت هاتفي أطلب سيارة أجرة كي نذهب إلى الفندق ويضع أمتعته ومن ثمَّ نتناول طعام الغداء معاً، حينها أبدى دهشته الكبيرة لأنِّي إلى الآن لا أملك سيارة. أجبته وأنا أهزُّ برأسي:

- لكنِّي لا أحتاج إليها.

أمسك حقيبته ليجرَّها وهو يقول:

- أنا أجد أنَّ السيارة باتت متطلَّباً رئيساً في الحياة ولا يمكن العيش من دونها.

صمتُّ ولم أناقشه، وبعد أقل من ساعة كنَّا قد وصلنا إلى المطعم، كنت أتساءل بيني وبين نفسي: أين ضرورة السيَّارة؟ لو كان معي سيارة لبقيت لمدَّة ساعة كاملة أبحث عن مكانٍ لركنها في هذه المدينة الصاخبة.

لكنِّي أبقيت تلك الأفكار في رأسي فقط، ورحت أترجم قائمة الطعام، فاختار رامي ما أعجبه ونصحني باختيار أحد الأطباق، فأجبته بكلِّ هدوء:

- لا بل سأختار هذه الوجبة، لا أحبِّذ اللحوم.

وما إن قلت ذلك حتَّى بدأ بسرد محاضرةٍ كاملةٍ عن ضرورة اللحوم لأجسامنا وكيف أنَّها العنصر الأكثر أهمية، وأنَّ اختياري خاطئ. لم أعقِّب كثيراً، فأنا آكل اللحوم ولم أقل له إنِّي نباتية!

بعد هذه المحاضرة غيَّر مسار الهجوم الذي اتَّبعه وأصبح أكثر لطفاً، فأخبرني عن مدى إعجابه الشديد بي وبأنِّي على الواقع أبدو أجمل وأرق، لم أبادله هذا الرأي، بل أخبرته أنَّه يشبه نفسه كثيراً، تكلَّمت معه بواقعيَّتي المعتادة، وعندما انتهينا من لقائنا أصرَّ أن يوصلني إلى منزلي،

فمشينا معاً لمدَّة نصف ساعة وافترقنا بعد أن تواعدنا بأن نلتقي في صباح اليوم التالي.

حين عدت إلى المنزل، لم تكن هنالك أي مشاعر مميَّزة، لم أكن في قمَّة سعادتي كما توقعت، أحتاج إلى أن آلفه أكثر، لذا فقد كنت متحمِّسة لليوم التالي كي أراه أكثر وأتعرَّف إليه عن كثبٍ، على أمل أن تولد بعض المشاعر الخاصَّة تجاهه وأن يكون أكثر لطفاً وأقلّ تدخُّلاً. كنت أشكُّ بتلك الخصلة السيئة أثناء تعارفنا، لكنِّي أخشى أنَّها باتت جليَّةً وواضحةً، تذكَّرت حين كنَّا نتحدَّث معاً عن عملي كيف كان يصرُّ على أنَّ العمل الأكاديمي أفضل للفتاة من العمل في المجال الصناعي، ومع أنِّي ذكرت أمامه أكثر من مرَّة نيتي في ترك الجامعة والتوجُّه نحو شركات الصناعة للأجهزة الطبيَّة، إلا أنَّه ظلَّ يصرُّ دائماً على أنَّ البقاء في التدريس والبحوث هو أفضل لي.

التقيت به في الساعة الثامنة صباح اليوم التالي في المطعم التابع للفندق الذي يقيم فيه، هناك حيث دعاني لتناول طعام الفطور معه. اخترت أطعمتي من المائدة المفتوحة وجلست أنتظره إلى أن عاد، وما إن جلس حتى بدأ مجدَّداً بالتشكيك باختياري للأطعمة وأنَّ إفطاري لا يحتوي على البروتين. ومجدَّداً لم تكن لدي أي طاقة لنقاشه أو الرد عليه، لا أعلم

لماذا، لكن ربَّما شعرت في داخلي أنِّي لن أستمرَّ معه ولهذا السبب لا أريد إضاعة طاقتي بالجدال.

بعد أن فرغنا من الطعام، طلب رامي أن نمشي قليلاً كي يرى باريس في وضح النهار. التقطت له في طريقنا بعض الصور، وكنت أتجاهل طلبه بالتقاط صورة لنا معاً، فرحت أتظاهر بأنِّي لم أسمعه، ولعلَّه فهم الأمر فتوقَّف عن طلبه، وبينما كنَّا نمشي بين المحلات التجارية أصرَّ رامي على أن يشتري لي هدية، فهو لم يشأ أن يجلب هديَّة لا تناسبني، بل يودُّ أن أختارها بنفسي على حدِّ تعبيره، ويا ليته اختارها هو وأراحني، أهو شخصٌ يعطي الاختيار لغيره بالأساس؟ كنَّا ننظر إلى واجهات المحلَّات فاستوقفني معطفٌ جميلٌ أحببته.

- هذا المعطف أراه جميلاً.

نظر إليَّ مستهجناً ومستنكراً ما قلته، وراح يفرك ذقنه بيده وهو يقول:

- لا أعتقد أنَّه لائق، كما أنَّ هذا اللون لا يناسبك، أعتقد أنَّ المعطف الذي بجانبه يناسبك أكثر.

هنا لم أستطع أن أصمت، عدلت من وقفتي، وقلت له:

- اعذرني رامي لكن منذ أن رأيتك وأنت تنتقد اختياراتي وتناقشني بها، وإلى الآن علاقتنا غير رسميَّة، ماذا سيصبح الحال إن تزوَّجنا؟

- جُمان، ما المشكلة في ذلك؟ ناقشيني أنتِ أيضاً وأقنعيني بوجهة نظرك.

- المشكلة أنَّ لا طاقة لدي على جدالك ونقاشك.

أجابني بعد أن تغيَّرت ملامحه وأظهر لي وجهاً حزيناً بعض الشيء:

- لا أفهمك، هل سنقضي حياتنا أنا أتحدَّث وأنتِ لا طاقة لديك على الرد؟

- ولهذا السبب بالذات لن نستمرَّ معاً!

- جُمان، ما الذي حصل فجأة؟ هل أزعجك إبداء رأيي إلى هذا الحدّ؟

- اعذرني لكنَّك لا تبدي الرأي، إنَّما تنتقد!

- أنا لا أقصد الانتقاد، صدقيني، لكنِّي اعتقدت أنِّي بتُّ قريباً إليكِ ولديّ مساحة من الأريحيَّة في تعاملي معك.

- لا رامي، لم نصل إلى هذه المرحلة بعد، وحتَّى لو كنَّا سنصل إليها، أنا لا أحبُّ هذا الأسلوب ولا أحتمله، حتَّى والدايَ لم

أعتد أن يتدخَّلا في اختياراتي، ولم أرغب يوماً بأن يملي عليّ أحد آراءه بهذه الطريقة!

قطّب حاجبيه وضمَّ كلتي يديه إلى بعضهما البعض وهو يسألني:

- والآن؟

- كما قلت لك للأسف لن نستطيع الاستمرار معاً، من الواضح أنَّك تحبُّ الجدال وأنا لست من هذا النوع، إن أكملنا معاً، فأنا بطبيعة الحال لن أرضخ إلى آرائك وانتقاداتك، وبالوقت ذاته لن أُتعب نفسي بالنقاش والاستماتة في توضيح صحَّة رأيي، وبالتالي سيزداد استياؤك من تصرُّفي الذي ستعتبره عناداً وتكبُّراً على النصيحة، وأنا في المقابل سيزداد استيائي من أسلوبك وردَّة فعلك وسنصل إلى طريقٍ مسدودٍ.

- بهذه البساطة؟

- لا ليس بهذه البساطة، بالتأكيد فكَّرت في الموضوع كثيراً قبل أن تأتي حين كنت أرى جزءاً من الصورة، ولكن حين التقينا ورأيت الصورة كاملةً، أدركت أنَّنا لا نصلح لبعضنا البعض، صدقني!

تنهَّد حينها تنهيدةً طويلةً، وابتسم ليخفي انزعاجه وصدمته من كلامي، ثمَّ قال:

- تمنَّيت لو نعطي فرصةً لعلاقتنا، فأنا بالفعل معجبٌ بكِ، لكن لا أرغب بأن أكون مصدر إزعاجٍ لك، لذا سأنزل عند رغبتك، وأنسحب، أتمنَّى لكِ كلَّ التوفيق جُمان.

كانت عيناه تلمعان حين قال تلك الكلمات، وكان صادقاً بالفعل، لكنَّه للأسف فشل فشلاً ذريعاً في تقديم نفسه، ولم يستطع إلا أن ينفِّرني منه، فقلت له وقد خفَّفت من حدَّة كلامي:

- ولك أيضاً، وصدِّقني هذا الأفضل لي ولك، لن نكون سعداء معاً.

ابتسم ابتسامته المصطنعة مجدَّداً وقال لي:

- آمل أن تجدي السعادة مع أحدهم يوماً ما، لكن، حاولي أن تتقبَّلي الناس بشكلٍ أكبر، وإلا سيكون الأمر صعباً للغاية.

أجبته بكلِّ ثقةٍ:

- على أي حال، ليس من الضروري أن أربط سعادتي بأحدهم، وأتمنَّى أن تعثر على نصفك الثاني أيضاً.
- ماذا عن الهدية؟

ابتسمت وأنا أجيبه:

- لم يعد لها داعٍ أليس كذلك؟
- نعم، معك حق.

أنهينا كلامنا بهدوءٍ وودَّعته متمنِّيةً له السلامة والتوفيق، وأغلقت بذلك صفحة رامي، الشخص الذي كنت أظنُّه الأنسب لي من بين العرسان الذين قابلتهم وتحدَّثت إليهم خلال السنتين السابقتين، والذي أوهمت نفسي أنَّه لربَّما يملأ الفراغ الذي تركه آدم، آدم الذي أصبح أباً، أعتقد أنَّ عُمْرَ ابنه يقارب السنتين، سبحان الله كم تمرُّ الأيام بسرعة!

جُمان يناير 2016

تندرج عطلة نهاية الأسبوع بالنسبة لي تحت مسمَّى الأشغال الشاقَّة، فعليّ خلال ثمانٍ وأربعين ساعةً أن أنظِّف، وأرتِّب، وأغسل وأكوي الملابس، وأحضِّر بعض الأطعمة الخفيفة، وأشتري حاجيات المنزل وأقرأ الرسائل التي وصلتني عبر البريد وأنجز كثيراً من المهمات الروتينية الأخرى.

لقد مضت أسابيع على مباشرتي بعملي الجديد في شركةٍ للأجهزة الطبيَّة، إذ التحقت بقسم الأبحاث العلمية التابع للشركة، فبقيت بذلك على تماسٍ مع السلك الأكاديمي وفي الوقت ذاته مع المجال الصناعيّ، أحببت وظيفتي الجديدة وألفت مجموعة العمل بسرعة، رغم الضغط الكبير مقارنةً مع أيام الجامعة، فخلال أيام العمل لا أستطيع أن أقوم بأي شيء عدا الدوام، لذا فأنا أحاول جاهدةً في عطلة نهاية الأسبوع أن أنهي مهماتي في المنزل بوقتٍ مبكرٍ كي يتسنى لي الترفيه عن نفسي، فأبدأ بذلك الأسبوع المقبل بطاقةٍ متجدِّدةٍ للعمل، وكان الأسبوع الماضي من الأسابيع التي نجحت فيها بتخصيص ساعةٍ للخروج مع بعض زميلاتي في العمل، ولكن رغم ذلك النجاح العظيم، إلا أنِّي فشلت بالترفيه عن نفسي في نهاية المطاف.

فمنذ أن وصلنا إلى مكان اللقاء وأنا أشعر بأنِّي في وادٍ آخر، فمواضيعي لا تشبه مواضيعهنَّ البتة، فأنا التي لم تتزوَّج ولم تُرزق بأطفال كيف لي أن أتفاعل معهنّ وهنّ يتحدَّثن عن الأطفال وطرائق التربية، والطعام والطهي، والمشكلات بين الأزواج.

فأنا إلى الآن لم أجد نصفي الثاني بعد، رغم محاولاتي وإعطاء الفرص لأشخاصٍ لم أكن أتخيَّل سابقاً أنِّي سأعطيهم فرصةً أو أتكلَّم معهم بنيَّة الزواج. بدأ اليأس يتسلَّل إلى داخلي فعلاً وبدأت أفقد الأمل في إيجاد الشخص المناسب. لم يشغلني موضوع العمر مثل باقي الفتيات، ولم أخشَ أن يفوتني القطار، فإن كان القطار سيمضي مع الشخص الخاطئ فالأفضل أن يفوتني، ولكن أكثر ما يشغلني هو التفكير في إنجاب الأطفال، فمنذ أن أتممت عامي الثلاثين وذلك الأمر هو المستحوذ الأساسي على كياني، ولأصدق القول، أحياناً كنت أفكر بالارتباط بأي شخصٍ من الذين تقدَّموا لخطبتي فقط لأصبح أمّاً، ولكن في اللحظات الأخيرة أعدل عن رأيي وأقنع نفسي أنَّ الوقت ما يزال أمامي حتَّى سنِّ الأربعين.

ما زاد الأمر سوءاً ألّا أخت أو أخ لديّ، لذا فأنا محرومةٌ حتَّى من شعور الخالة أو العمَّة والذي يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ شعور الأمومة، وصديقتي

المقرَّبة -والتي بمكانة الأخت لي- بعيدةٌ عنّي بآلاف الأميال، لذا لا أستطيع تقديم الحبّ والحنان لأطفالها أيضاً.

وحيدةٌ أنا، لم تنجب أمّي غيري، ولم أرتبط إلى الآن، وأعيش بعيدةً عن والديّ. أعلم أنَّ تلك الوحدة لم تشكِّل عائقاً لي، وتأتيني أيامٌ يغلب فيها تفكيري الإيجابيّ على السلبيّ، لكن ما ألبث أن أذكر بأنِّي وحيدة، وأنا أبارك لصديقةٍ بزواجٍ أو خلفةٍ على سبيل المثال، فتنهال عليّ التعليقات من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وهم يكرِّرون: "العقبى لكِ"، و"حان دورك!" و"لماذا لم ترتبطي إلى الآن؟" وغيرها من التعليقات والأسئلة الكثيرة. أعلم أنَّ هذه الأمنيات كلّها عن طيب خاطرٍ وقلبٍ، لكنِّي وصلت إلى مرحلةٍ باتت فيها حتَّى تلك التعليقات تزعجني.

في ذلك اليوم عدت إلى المنزل مساءً، وفي العادة لا أحتسي القهوة بعد الساعة الرابعة عصراً، كي أحظى بنومٍ جيِّدٍ دون أي منغصّات، إلا أنّني قرَّرت كسر القاعدة، فحضَّرت كوب القهوة، ورحت أحتسيه بهدوء. كم أحبُّ هذا الكوب!

لا شيء يضاهي إبداعكِ يا جود! لطالما حفزتني الكلمات التي انتقتها.

أدرت الكوب وقرَّرت أن أختار بيت شعرٍ يدعمني اليوم، فلفتتني كلمة لطالما تجاهلتها: "أحنُّ"، أظنُّها تشير إلى قصيدة محمود درويش، أحنُّ إلى خبز أمِّي وقهوة أمِّي، ولمسة أمِّي.

لكن هل ذقت يوماً طعام أمِّي؟ في البيت لا أحد يطبخ غير سامية؟ ترى من كان يعدُّ لنا الطعام عندما كانت سامية تذهب إلى إجازة؟ أنا حقّاً لا أعلم! ماذا عن قهوة أمِّي؟ أيضاً لا أذكر إن كانت قد حضَّرت لي يوماً القهوة.

حسناً، لمسة أمِّي، هذه أذكرها. تأمَّلت قليلاً، وشعرت بالحنين فعلاً، فاتَّصلت بها.

- مساء الخير، هل ما تزالين مستيقظة؟

- أهلاً جُمان، لم أنم بعد، كيف حالك يا عزيزتي؟
- أنا بخير.
- عندي سؤال يا أمِّي
- تفضلي!
- هل تحبّين تحضير الطعام؟

ضحكت مستغربة من سؤالي المفاجئ في هذا التوقيت المتأخر، وقالت:

- هل اتصلتِ بي لتسأليني هذا السؤال؟
- ليس بالضبط، لكن انتابني الفضول فجأة.
- حسناً، لم أجد الطبخ كثيراً، في منزل والديّ كما تعلمين كانت فريدة -رحمها الله- هي المسؤولة عن المطبخ، وفي سنوات زواجنا الأولى أنا ووالدك، كنتُ مضطَّرةً لتحضير الطعام، لكن لم يكن بتلك الجودة، وبعد سنوات أتت سامية، وتحرَّرت من تلك المهمَّة الشاقَّة.
- إذن فكنتِ أنتِ التي تعدِّين الطعام في طفولتي المبكرة.
- بالطبع! بالذات عندما كنَّا في ألمانيا، في تلك الأيام لم يكن هناك محلَّات خاصَّة لبيع المنتجات الخاصَّة بمطبخنا ومأكولاتنا، لن تصدقي إن قلت لك إنِّني وبإحدى المرَّات خبزت خبزنا

الرقيق، كان والدك قد اشتاق إلى طعمه كثيراً، فجلبنا طحيناً وخميرة، وحاولت أن أخبز، لا أنسى ذلك اليوم إطلاقاً.

وراحت تضحك، سألتها:

- وما الذي حصل؟
- وضعت طبقتين من العجين لكلِّ رغيف، ظنَّاً منِّي بأنَّ الخبَّاز يفعل ذلك.
- ألا يفعل الخبَّاز ذلك بالأساس؟

ضحكت أكثر، ثمَّ قالت:

- إذن أنا وأنتِ نتملك المهارات ذاتها. لا، هي طبقة واحدة لكن هناك طريقة خاصَّة لتقليب الخبز فينتفخ وتنفصل العجينة، ويبدو كما لو أنَّه طبقتان، هذا علمٌ بحدِّ ذاته.
- صدقتِ! وكيف كانت النتيجة؟
- كان المنظر غريباً والطعم أكثر غرابة، لكنَّنا أكلناه، لم تكن لدينا رفاهية إبداء الرأي في الطعام الذي نحضِّره، فلا وقت ولا مجال لإعادة المحاولة.

تنهَّدت قليلاً، ومن ثمَّ سألتها:

- كيف استطعت التوفيق بين اختصاصك، ودراستك وبيتك؟

- لم يكن الأمر سهلاً، لكن في المقابل، لم أفلح في إنجاب أختٍ أو أخٍ لكِ! مهما حاول الإنسان أن يوازن أولويَّات حياته، لا بد أن يرجِّح في النهاية كفَّةً على الأخرى، وأنا رجَّحت كفَّة حياتي المهنيَّة على عائلتي، لست نادمةً على ذلك، وقد حقَّقت مسيرةً مهنيةً لطالما حلمت بها، ولكن أشعر بالحزن عليكِ وألوم نفسي لهذا.
- أمِّي لديّ سؤال: تعلمين بأنِّي أصبحت في الثلاثينيات، هل يتوجَّب عليّ أن أستعجل بالارتباط من أجل الأطفال؟ أنا حقَّاً لم أجد الشخص المناسب يا أمِّي
- جُمان، ما من أم لا ترغب برؤية ابنتها سعيدةً ولديها عائلة، وربَّما ستقول لك أي أمٍّ تزوَّجي ومع الأيام سينفتح قلبك أكثر وستحبِّين زوجك وتكوِّنين أسرةً، ولكن أنا لست كذلك، جُمان إن لم تكوني مقتنعةً فلا ترتبطي، ولا تدعي الخوف من الوحدة يدفعك إلى التَّسرع، لذا إن لم تكوني متأكِّدةً من قرار ارتباطك بشخصٍ ما فلا ترتبطي!
- ماذا عن الأطفال يا أمِّي؟
- بصراحة يا جُمان لم تكوني يوماً من الفتيات اللواتي ينظر إليهنّ المرء فيعرف أنهنّ أمهاتٌ بطبيعة الحال، حين التقيتِ بابنة خالك

وهي تحمل طفلها، لم تحاولي حتى الإمساك به أو اللعب معه، وتكرَّر الموقف معك أكثر من مرَّة مع أحفاد صديقاتي.

- ربّما لأنّهم ليسوا أطفالي.
- لا شكَّ في ذلك، ولكن إن كنت سترتبطين لأجل الطفل، ثمَّ يأتي هذا الطفل وأنتِ على خلافٍ دائمٍ مع والده، فما هذه الحياة التي سيعيشها في جوٍّ مليءٍ بالتوتُّر؟ ثمَّ ستعتقدين أنَّ هذا الطفل هو سبب تعاستك لا سعادتك، وهنالك الآلاف من المتزوِّجات ولم يكتب الله لهنَّ بأن يصبحن أمهات، هل أنتِ واثقةٌ أنَّك لن تكوني منهنّ؟

تابعنا حديثنا على نحوٍ هادئ، كنتُ سعيدةً بأنِّي تخطيت ذلك الحاجز بيني وبين والدتي، وحين أغلقت الهاتف، شعرت بالراحة والسكون. أمسكت بالكوب مجدَّداً وقلت وفي عينيّ دمعة: إذن لقد ذقت في يومٍ من الأيام، خبز أمِّي!

جُمان مارس 2016

خرجت من الشركة بعد انتهاء الدوام، وعندما وجدت أنَّ الطقس جميل قرَّرت العودة إلى المنزل مشياً على الأقدام، وبينما كنت أمشي تذكَّرت رامي حين مررت بأحد الشوارع التي مشينا بها معاً، وتذكرت كلماته حين قال لي: "حاولي أن تتقبَّلي الناس بشكلٍ أكبر، وإلا سيكون الأمر صعباً للغاية". قلت في نفسي: لكنَّه لم يكن صعباً حين وجدت آدم، فلِمَ لا أجد شخصاً آخر مثل آدم؟!

يرتجف قلبي حين أذكر اسمه، أعلم أنِّي لم أستطع نسيانه إلى الآن، كيف سأنساه، وهو الذي منحني حبَّاً غير مشروط لم أعتده يوماً. جود وآدم، وحدهما من أحبَّاني كما أنا، فلم يطالبانني أن أغيِّر من نفسي، وكما بقيت جود أعزّ صديقاتي، بقي آدم الأقرب إلى قلبي.

وصلت إلى المنزل فوضعت رأسي المثقل بالأفكار على وسادتي، وغفوت لأصحو بعد ساعةٍ على صوت رنَّة هاتفي يعلمني بوصول رسالة.

- جُمان، كيف حالك؟

كتبت لها:

- أهلاً جود، أنا بخير عزيزتي.

- لديّ سؤال، وأرجو منك أن تجيبي بصراحة.
- تفضَّلي جود، ما الأمر؟
- جُمان، هل تواصل آدم معك في الآونة الأخيرة؟
- أهو تحقيق؟
- ليس كذلك، أجيبيني أرجوك!
- لست مرتاحةً لطريقة سؤالك جود، ما الأمر؟ لنتفرض أننا تواصلنا، هل ستوبخينني؟
- لن أفعل ذلك.
- وأنا لن أجيب.
- يعني أنك تواصلتِ معه.

غضبتُ جدّاً لتسرعها في الاستنتاج، لكنِّي تمهَّلت ولم أستعجل بالرد، فثمة شيءٌ تودُّ الوصول إليه، كانت يداي ترتجفان وأنا أنتظر أن تكمل اتهاماتها، وبالفعل، وجدتها تكتب وتكتب وتكتب، لكن في نهاية المطاف وصلتني منها جملة واحدة فقط لا غير:

- هل أنتِ سعيدةٌ الآن بما حدث؟

سألت نفسي: "ما الذي حدث"، أجبتها:

- لا!

- يعني ذلك أنه قد أعلمك! وهذا هو السبب الحقيقيّ وراء انفصاله عن سلام.

عند هذه اللحظة ولم أعد أفهم شيئاً، اتصلت بها مباشرة، فلم تردّ، يبدو بأنَّ الأمور معقدة وأنَّها تظنُّ بي الظنون الآن، كتبت لها:

- عن أي انفصالٍ تتحدثين؟ أنا لم أتواصل مع آدم منذ التقينا يوم اجتماع الدفعة! أي منذ ثلاث سنوات، حتَّى عندما كان الجميع يبارك له بولادة ابنه، أنا لم أبارك له ولم أرسل إليه شيئاً!

قرأت جود رسالتي وتوقفت عن الكتابة، وبعد دقيقتين اتصلت بي، لم أشأ أن أعاملها بالمثل وأتجاهل مكالمتها، رددت على اتصالها:

- جُمان! أنا آسفة، إصرارك على عدم الإجابة عن سؤالي أثار شكوكي.
- هل أنتِ جادة بما تقولين؟ هل تظنين أنِّي في هذا المستوى من التدني الأخلاقي لأفعل ذلك؟ هل سأخرب بيته؟ أنا لا أصدق بأنَّك تشكّين بي.
- لا جُمان لم أقصد ذلك، اعتقدت أنَّ سلام وجدت محادثة جديدة بينكما، حتى لو كانت عادية، وبسبب ضغوطها تشاجرا وطلبت الطلاق.

- لم أفهم!
- طلَّق آدم سلام منذ أيام، ولا أحد يعرف سبب الطلاق، حاولت أن أفهم من سلام لكنَّها رفضت الحديث حول الموضوع.
- وحينها كلّ ما استطعتِ فعله هو اتهامي أنا بخراب بيته!
- لا جُمان، كنت أريد التأكُّد أنَّ الأمر غير متعلِّقٍ بكِ، أقسم لكِ، والدليل أنِّي سألتك إن كان هو من تواصل معكِ، أنا أعلم أنَّك لن تفعلي ذلك.
- لكن طريقتك كانت مزعجة جدَّاً، أهذا ما أستحقُّه منكِ؟ إن كنتِ أنتِ أقرب الناس لي تشكِّين بي هكذا، فلا حرج إذن على الآخرين.

وهنا لم أستطع منع دموعي من الانهمار، وبدورها جود، باشرت بالبكاء معي وهي تعتذر مجدَّداً، وأنهينا المكالمة بعد طول عتابٍ منِّي وحججٍ واهيةٍ منها. حتَّى في طلاقه تتجه أصابع الاتهام نحوي؟! أهو عمر من أوعز لها بتلك الفكرة؟ سامحهم الله جميعاً!

نعم! لطالما رغبت في محادثة آدم والتواصل معه، ورغم أنَّ كرامتي تقف حاجزاً منيعاً يحول بيني وبين التواصل معه، إلا أنَّني وفي بعض الأحيان كنتُ أضعف، وأتجاوز الكرامة والتربية والأخلاق، فأكتب له رسالةً

عاديَّة جدَّاً، ورغم أنَّها عاديَّة إلا أنَّها ليست كذلك، وبحمد الله يردعني ديني من إرسالها في اللحظة الأخيرة!

لطالما تفكَّرت بنعمة الضوابط الشرعيَّة؛ الأوامر والنواهي، هي ليست عبئاً كما يظنُّها البعض، بل على العكس، فهي تنظِّم حياتنا، وتهذّبنا، فنحن بشر ولنا نزواتنا، وهفواتنا، ولحظات ضعفنا، مهما كانت تربيتنا ومهما بلغت أخلاقنا من الرقيّ والسمو والعلوّ.

حمدت ربِّي مجدداً، ويلاه! ما أبشع الخيانة وأقبحها. وحده الله يعلم كم أجاهد نفسي كي أمنعها من الاقتراب نحو آدم، كم كان موقفي قوياً حين أجبتها: أنا لم أتواصل مع آدم منذ أن التقينا يوم اجتماع الدفعة!

الحمد لله! الحمد لله!

جُمان مارس 2016

- صباح الخير يا جُمانتي.

إنَّه اليوم السابع على التوالي، أستيقظ صباحاً فأجد تلك الرسالة من جود، فأرد عليها كما كلّ يوم:

- صباح النور، لستُ متضايقة منك.

انتظرت ردَّها المعتاد، الذي أرسلته بالفعل بعد خمس دقائق:

- أعلم، لكن أنا ما أزال متضايقة من نفسي.

لم أردّ، فسألتني:

- هل ستذهبين الآن إلى العمل؟
- لا جود، اليوم هو الأحد.
- آه تذكَّرت، هل لديك أي خطط؟
- لا أعلم، عليّ أن أرتِّب المنزل أولاً.
- حسناً لن أشغلك، نتحدَّث فيما بعد.
- في أمان الله.

أنهيت المحادثة معها ونهضت من فراشي، أنا بالفعل لست متضايقةً منها، إلا أنَّ ضميرها ما يزال يؤنبها على غلطتها تلك، لا أستطيع أن أعادي جود أو أكنّ لها أيَّ حقدٍ، كما لا أستطيع إلا أن أسامحها، لكن مع هذا وذلك فقد كانت لهجتي معها مختلفة خلال الأيام السابقة، لم تفهم جود السبب الحقيقي وما تزال تعتقد أنِّي غاضبة مما فعلت. لكن الأمر ليس كذلك. فكيف سأخبرها أنَّ ما يشغل بالي في هذه الأيام هو معرفتي بأنَّ آدم قد عاد عازباً من جديد؟!

لا لن أخبرها بذلك، فالأمر حسَّاس للغاية، لكن ما أعلمه أنِّي مشوشة للغاية، أشعر بالحزن لفكرة انفصاله بسبب وجود طفل في العائلة، وأشعر بالفضول لمعرفة سبب طلاقه، وأشعر بالحيرة حول ما ستؤول إليه الأمور، وأشعر بالفرحة بأنِّي لست السبب في انفصاله، فلقد أبقيت نفسي -وبشقِّ الأنفس- بعيدةً عنه كلَّ البعد كي لا أتسبَّب بأيِّ أذيةٍ أو خيانةٍ لأحد، لكن لا بد أنَّهما لم يتَّفقا في نهاية المطاف، ومن الواضح منذ البداية أنَّهما ليسا توأمين بالروح، وربما الانفصال هو الخير لهما وللطفل، فمن الأفضل له أن يعيش حياةً مسالمةً مع والدين منفصلين على أن يعيش في كنف والدين متصارعين في بيئةٍ تعمُّها المشكلات. هل كانت حياتهم تعمُّ بالمشكلات فعلاً؟ أنا لست متأكِّدةً، لكن ربما، وإلا لم انفصلا؟

جُمان أبريل 2016

كنت في المكتب حين وصلني بريد إلكتروني من أحد أقسام الشركة، يدعوني فيه مديرها لإلقاء بعض المحاضرات ضمن برنامج لمؤتمرٍ نظَّمته الشركة وسيعقد خلال شهر يونيو المقبل. هدف المعرض هو التسويق لأحدث التكنولوجيا الطبيَّة التي تنتجها شركتنا، كما سُتقام دورة تدريبية للشركات التي تعاقدت لاستيراد بعض الأجهزة الطبيَّة، ذكر لي في ختام رسالته أنَّ معظم تلك الشركات هي من الشرق الأوسط، وأنَّه طلب من مديري أن أحضر المعرض وأكون في تلك الأيام مع طواقم العمل، نظراً لخبرتي العلمية، وكوني أجيد الانكليزية والعربية بشكلٍ ممتاز.

أعلمته بأنِّي سأنضمّ إلى فعاليات المعرض، وأرسلت إليه مقترحاتٍ للمواضيع التي يمكن التطرق إليها ضمن المحاضرات، ومن ثمَّ رحت أقرأ التفاصيل حول خطَّة المعرض.

الشرق الأوسط! هل يا ترى ستحضر شركة "شفاء" التي يعمل آدم لصالحها؟ كيف سأصل إلى تلك المعلومة؟

انطلقت إلى الموظَّف المسؤول عن إرسال الدعوات وتنظيم المعرض، واستفسرت حول الأمر، لأكتشف أنَّ شركة "شفاء" تتصدَّر القائمة ومن المخطَّط أن تكون الدعوة لمهندسَين على الأقل لحضور الدورة التدريبية التابعة للمعرض. هنا لمعت الفكرة سريعاً في ذهني، وطلبت منه إرسال ملفَّات المهندسين كي أطَّلع عليها وأختار الأنسب والأكفأ. لم يعترض الموظَّف رغم معرفته بعدم أهميَّة هذه الخطوة بالنسبة لنا، لأنَّ الاختيار يفترض أن يكون على نطاق شركة العملاء وليس على نطاق شركتنا.

وبالفعل، أرسل إليّ ملفَّات المهندسين لجميع الشركات، فاقترحت عليه الأسماء في نهاية الدوام، التي تضمَّنت بالطبع اسم آدم.

قلت في نفسي: أهو القدر سيجمعنا مرَّة أخرى؟ لم أتردد، ومضيت قُدُماً في خطَّتي، وسارت الأمور على ما يرام، إذ أكَّد آدم حضوره مع باقي أفراد شركته، كنت أتساءل: هل يعلم آدم أنِّي أعمل في هذه الشركة أم أنَّه لا يدري أساساً؟ هل سيتفاجأ بوجودي؟ أم أنَّه رأى وقرأ الإعلانات واللوحات الترويجيَّة للشركة حول المعرض والتي أعدت نشرها ضمن حسابي على موقع لينكدإن؟!

كنت أفكِّر طيلة الوقت، وكان بالي مشغولاً، لكنِّي كنت متفائلةً للغاية، فأصبحت باريس خلال تلك الفترة مختلفةً بالنسبة لي، بات كلُّ شيءٍ

فيها أجمل، الآن فقط وبعد مرور سبع سنوات لمكوثي فيها أدركت سبب تسميتها بعاصمة الرومانسيَّة ومدينة العشَّاق، الآن فقط أيقنت أنَّها مدينة الحب.

كيف لا وقد فتحت العنان لقلبي وعقلي بأن أتخيَّل آدم معي في كلِّ الأماكن وأرسم صوراً وحوارات لنا هنا وهناك، عند برج إيفل، وقوس النصر، تلك الصور التي تكاسلت عن أخذها طوال السبع سنواتٍ الماضية بحجَّة أنَّ باريس لن تهرب وبرج إيفل لن يطير، وقوس النصر لن يتحرَّك من مكانه، وأنِّي ما أزال موجودةً هنا. كلُّ تلك الصور بتُّ الآن متحمِّسةً لالتقاطها معه، نعم معه، فقد نعود مجدداً، ولن أسمح لأحدٍ أن يلومني، فهو قد عاد عازباً...

جُمان يونيو 2016

لم أخبر جود بخطتي، وبأنِّي على علمٍ بقدوم آدم، وهي في المقابل لم تسألني، فبعد التحقيق الذي أجرته معي بسبب طلاقه، لم يكن بإمكانها أن تسألني عن أي شيءٍ يخصّ آدم.

أنا متأكِّدة بأنَّها تعلم بخبر سفره، وفي الليلة الأخيرة قبل يوم المعرض، أطالت جود الحديث معي، لعلّها كانت تنتظر منِّي أن أخبرها بالأمر، لكنَّني لم أفعل، لم توجِّه إلي سؤالاً مباشراً ولم أُلمِّح لها بأي تفصيل، فأنا أتفهَّم حساسيَّة موقفها مع سلام، لذلك قرَّرت إخفاء الأمر عنها، كي لا تقع بالحرج مع عمر وأخته.

كنت متأكِّدةً أنَّه قد وصل إلى باريس، فراح قلبي يخفق بشدَّةٍ كلَّما نظرت إلى السماء، أشرقت باريس يا آدم، وأصبحت أجمل المدن.

كان لا بدَّ وأن أهدئ نفسي، قرأت جزءاً من القرآن الكريم بعد صلاة العشاء كما تنصحني جود حين أكون متوتِّرةً. بالفعل، هدأ قلبي وسكنت روحي بعض الشيء، وحين شعرت أنِّي على وشك أن أغفو، قرأت دعاء الاستخارة ومن ثمَّ استسلمت للنوم.

الفصل السادس

جُمان مايو 2023

لم أستطع حتَّى أن أشرب قهوتي، انتشلتها وأسرعت نحو السيارة.

- أخبرتكَ مراراً أنَّ لا داعي لفتح الباب لي، أستطيع القيام بتلك المهمَّة بنفسي.

ضحك وهو يقول لي:

- ليس من عادتك أن تتأخَّري.
- كما تعلم، ستزورني سوزان غداً.
- من سوزان؟
- لطالما أخبرتك عنها، هي صديقتي من أيَّام الدكتوراة والدراسة، لذا أرجوك لا تنسَ أنَّ علينا استقبالها غداً في المطار.
- وكم ستمكث؟
- ثلاثة أيام.

تأوَّهتُ وأنا أحاول تحريك ظهري يميناً ويساراً، فسألني:

- أهي أعمال التنظيف؟

ضحكت وأنا أجيبه:

- نعم، لقد أتعبتني الأعمال المتراكمة حقّاً.
- أخبرتك أنِّي على معرفةٍ بسيِّدةٍ محترمةٍ تستطيع مساعدتك في ذلك، أعلم كم تكرهين تلك المهمّات.
- لا بأس، من الأفضل أن أقوم بها وحدي، فعليّ تحريك جسدي، وإلا فإنَّ مفاصلي ستتيبَّس من كثرة الجلوس على الحاسب، لكن أتعلم ما هي المهمَّة الأكثر شقاء؟

أجابني بسرعةٍ:

- الطهي.
- أصبت!

وعندما ذُكر الطهي أمامي تذكَّرت أنِّي وبسبب استيقاظي المتأخِّر نسيت ضبط بعض الأشياء في المنزل قبل أن أغادر، لذا بدأت الحديث مع أليكسا:

- أليكسا أطفئي الأنوار في المنزل.

أجابتني أليكسا بلكنتها اللطيفة:

- حاضر، لقد أُطفِئت.
- أليكسا، اضبطي روبوت الطعام على أن يسخِّن طعامي في الساعة الرابعة عصراً.

- حسناً، تمَّ الأمر.

قاطعني حينها:

- أولن تتناولي طعامك في العمل اليوم؟
- لا، سأخرج باكراً من العمل.

أكملتُ حديثي مع أليكسا:

- أليكسا ما هي مواعيدي لليوم؟

هنا قاطعني مجدَّداً:

- تتحدَّثين مع أليكسا أكثر من حديثك معنا نحن البشر.

ضحكت وأنا أجيبه وأبرِّر:

- الأمر ليس كذلك وأنتَ تعرف طبعي، ولكن اليوم بالذات كما رأيت استيقظت متأخِّرةً ساعةً كاملةً عن المعتاد لذا كان لا بدَّ من طلب المساعدة من أليكسا.
- لا عليكِ كنت أمزح، جميلٌ أن يتمتَّع الإنسان برفاهية البيت الذكيّ.

- بالفعل عن نفسي، فأنا أحبُّ التكنولوجيا وأحبُّ استخدامها، أتعلم؟ هنالك أشخاص من جيلي يعتبرون أنفسهم قد كبروا على استخدام هذه التكنولوجيا أو الاستفادة منها؟
- تتكلَّمين وكأنَّك من جيلٍ قديمٍ جدَّاً، ما تزالين في مقتبل العمر!

ابتسمت وأنا أتمتم مع نفسي بصوتٍ مرتفع: "أربعون، ويسمِّيه مقتبل العمر!".

ردَّد بلكنته الخاصَّة:

- ما شاء الله! بالمناسبة هل جددتِ اشتراكك في النادي الرياضي؟ أم ليس بعد؟
- آهٍ من الوقت، هنا في هذه البلاد لا توجد دقيقة فارغة، انشغال على مدار الأربع وعشرين ساعةً.
- لو كان بوسعهم جعل اليوم ثمان وأربعين ساعةً لفعلوا ذلك.
- حين كنتُ في فرنسا كنت أظنُّ نفسي مشغولةً جدَّاً، ولكن حين أصبحت في هذه البلاد أدركت ما هو الانشغال الحقيقي.
- باتت الحياة ماديَّةً لأبعد درجة.
- معك حقّ، على أي حال، دعنا نمرّ غداً على النادي الرياضي، لديّ اليوم جدولٌ طويل.

بعدها صمتنا قليلاً ورحت أكمل بعض مهمَّاتي على جهاز الحاسب ريثما نصل إلى الشركة، فالازدحام شديدٌ في نيويورك، وأحتاج إلى نصف ساعةٍ كي أصل إلى مكتبي. أكملت أليكسا سرد جدول مواعيدي، وما إن أنهته حتَّى وصلنا أخيراً إلى مقرِّ الشركة، سألني وأنا أودعه:

- متى اللقاء مجدَّداً؟
- الساعة الثانية ظهراً.
- في أمان الله.

وانطلقت مسرعةً إلى مكتبي، وهناك من اجتماعٍ إلى اجتماعٍ ومناقشات وأوراق وتواقيع وقرارات، كاد رأسي أن ينفجر إلى أن أخبرتني أليكسا أنَّ الساعة هي الثانية ظهراً، فانطلقت مسرعةً لأجده بانتظاري، فسألني:

- إلى البيت؟
- لا، سأمرُّ على معرضٍ للفنون التشكيلية قبل العودة إلى المنزل.
- منذ متى ولديكِ هذا النوع من الاهتمامات! لم يسبق وأن ذهبنا إلى معرض خلال السنوات الماضية؟!
- بصراحة ليس ذلك من اهتماماتي إطلاقاً، ولكن هل تذكر جمعيَّة أطفال التوحُّد التي أخبرتك عنها؟

- نعم التي انتسبتِ إليها السنة الماضية ذات المقرّ البعيد جداً، أشعر أنَّنا نسافر في كلِّ مرَّةٍ نذهب بها إلى هناك.
- بالضبط هي تلك، هذا المعرض تابعٌ للجمعيَّة وسيعود ريعه للأطفال المصابين بالتوحُّد.
- بمناسبة هذا الحديث كيف حال "رابي"؟
- هو بخير، آه تذكَّرت لقد وعدته بإرسال لعبةٍ جديدةٍ إليه كان قد سمع عنها عبر الإعلانات في الإنترنت، تلك اللعبة غير موجودة لديهم، هل يمكننا أن نعرِّج على محل ألعاب الأطفال قبل المعرض؟
- بالطبع أعرف متجراً قريباً من هنا.

وفعلاً، توجَّهنا إلى متجر الألعاب، واشتريت اللعبة، غلَّفتها وأرسلتها عبر البريد، ومن ثمَّ انطلقت إلى المعرض، لم أمكث هناك طويلاً، واشتريت بالميزانية التي خصَّصتها لذلك الأمر بعض اللوحات، وعدت بسرعةٍ إلى السيارة، وضعتهم بجانبي، وأغلقت الباب، لكنَّه سرعان ما قال لي قبل أن ننطلق:

- هلَّا أحكمتِ إغلاق الباب!

كنت أحاول إعادة ترتيب اللوحات كي أستطيع إغلاق الباب مجدداً، فظنَّ أنِّي لم أسمعه، فكرَّر:

- عفواً آنسة جُمان، ما يزال الباب مفتوحاً، لا أستطيع المضي، هلَّا أحكمتِ إغلاق الباب؟

أجبته:

- آه بالتأكيد.

وأغلقت الباب بإحكامٍ ومضينا. لفتت انتباهي الأغنية التي كان يضعها في مسجل السيارة، فسألته:

- الأغنية، أهي باللغة البوسنيَّة؟
- لا، بل باللغة الروسية.

بعدها سكتنا طويلاً، ثمَّ سألته:

- بالمناسبة متى سيسافر ابنك إلى ألمانيا؟

أخفض صوت الأغاني وأخذ نفساً طويلاً، ومن ثمَّ قال:

- الشهر المقبل.
- هل ما يزال الأمر صعباً عليك بسبب خوفك من فراقه؟
- أحاول ضبط أعصابي قدر الإمكان، لكن يُبدي آيدن تردُّدَه الشديد، وهو حاليَّاً على وشك إلغاء الأمر برمَّته، وأنا محتار، فبالكاد أستطيع الصمود أمام رحيله، أخشى أن أندم حين يرحل ويغدو بعيداً عنِّي.
- لا تقلق، فخيار سفره هو الأصحّ وتضحيتك تلك لن تندم عليها، عليك أن تكون الداعم الأوَّل له، تدفعه إلى الأمام ولا يجب أن يرى منك ضعفاً أو تردُّداً، دعه يذهب، ويسافر، ويدرس في المكان المناسب، ويرى العالم، ويأخذ فرصته، ويخالط المجتمعات ويرتقي بفكره وعلمه وتجربته أكثر فأكثر، لن تندم صدِّقني.

بدأت عيناه في تلك اللحظة تلمعان، وقال لي متأثِّراً:

- أنتِ أيضاً، سافرت وابتعدتِ عن والديكِ في سبيل تحصيل العلم، ألم يكن الأمر صعباً عليكِ؟
- بلى كان صعباً للغاية، لكنّي فخورةٌ بالصبر الذي تحلَّيت به وبإصراري وعزيمتي.
- كيف استطعتِ الصمود أمام صعوبات الدراسة والاغتراب؟
- إنّها الأولويَّات، منذ أن كنت صغيرةً وأنا أدرك أولويَّاتي، وعلى قدرٍ كافٍ من تحمُّل مسؤوليَّة خياراتي من غير تردُّدٍ أو تشتُّتٍ.

نظرتُ إلى نافذة السيَّارة، صمتُّ قليلاً ثمَّ قلت له:

- عم جلال، أخبرني، ماذا قلت لي منذ قليل فيما يتعلَّق بإغلاق باب السيارة؟
- لا أذكر، أقلت لكِ "أحكمي إغلاق الباب"؟
- بلى، قلت لي "ما يزال الباب مفتوحاً، لا أستطيع المضيّ، هلَّا أحكمتِ إغلاق الباب"، وأنت أيضاً عم جلال، أحكم إغلاق الباب حين تتَّخذ قرارك، وإلا فلن تستطيع المضيَّ، وقل هذا الكلام لآيدن في كلِّ مرَّةٍ ترى منه تردُّداً، أحكم إغلاق الباب الذي يسحبك إلى مكانٍ غادرته لأنَّ الأفضل لك أن تغادره، أحكم إغلاق الباب الذي يجرُّك إلى التكاسل أو التباطؤ أو

التخوُّف. أحكم إغلاق الباب حين يكون ما خلفه مظلماً، أو مزعجاً، أو متعباً لروحك وقلبك وتفكيرك.

- صدقتِ آنسة جُمان.

وابتسم ابتسامة رضا وطمأنينة. لطالما أحببت ابتسامة العمّ جلال الهادئة والوقورة، منذ وصولي إلى أمريكا قبل ست سنوات، أدركت استحالة العيش هنا من غير سيّارةٍ خاصَّة، وبعد الانتهاء من إجراءات شهادة السياقة، اكتشفت مجدَّداً أنِّي لا أطيق الأمر وحدي. ساعدتني إحدى زميلاتي بعد محاولات فاشلةٍ في البحث عن سائقٍ محترمٍ ولطيف، ومن حينها والعمّ جلال يتحمَّل أعباء إيصالي من هنا إلى هناك ومن أقصى المدينة إلى أدناها، بابتسامته اللطيفة وخلقه اللين الهيِّن، قلت له بعد أن انفرجت أساريره بعض الشيء:

- وكي ترتاح أكثر، أنصحك بصلاة الاستخارة.
- أسمع عنها، لكن لا أعرف الدعاء الذي عليّ قوله بعدها، فما تزال اللغة العربيَّة صعبةً عليّ، كما أنِّي لا أعرف كيف أجد الإجابة؟
- سأرسل إليك الدعاء بالحروف اللاتينية مرفقاً بالترجمة إلى الإنكليزية والبوسنية على حدٍّ سواء، أمَّا عن الإجابة فلا تكون

بأسلوبٍ محدَّدٍ، ربَّما تكون بتيسير الأمر أو تعسيره، وربَّما تكون بشعورٍ داخليٍّ، أو بمنامٍ أو رؤيا كما ينتظر كثيرون.

صلاة الاستخارة، أنا أيضاً لم أكن أعلم عنها كثيراً حتّى ذلك اليوم، لِمَ تصرّ يا عمّ جلال على أن تذكِّرني بالماضي؟ ورحت أعيد شريطاً قديماً في مخيِّلتي...

المكان: باريس.

الزمان: قبل ست سنوات.

الحدث: معرض الأجهزة الطبيّة.

الهدف: استعادة آدم.

في ذلك الوقت، أذكر كم كنت واثقةً من قراري ومن كلِّ أبعاده ومتأكِّدةً ممَّا أفعل. لم يتسنَّ لي أن أحادثه أو أفاتحه بأيِّ كلمةٍ خلال الأيام الأربعة الأولى من المعرض مع أنِّي وضعت كامل جهدي ومحاولاتي، وبالرغم من أنِّي شعرت بتجنُّب آدم لي، إلا أنِّي قلت في نفسي: لعلَّه مُحرجٌ ويظنُّ أنَّ لا أمل لنا معاً، ولا يدرك بأنِّي سأبادر وأطلب أن نعود إلى بعضنا بعد

طلاقه، لكن حين أخبرته بنيَّتي في الحديث معه، اختفى ولم يأتِ! ساورتني الشكوك حول الأمر، فمن المنطقيِّ أن يأتي، بل يُهرع إن كنتُ أعني له شيئاً. انتظرته في ذلك اليوم لمدَّة ساعتين ثمّ عدت خائبةً إلى منزلي أجر أذيال الهزيمة، ومع ذلك لم أيأس، وللمرَّة العاشرة بعد الألف أقنعت نفسي أنَّ عذراً ما منعه من أن يأتي، أقنعت نفسي أنَّ مشاعرنا ما تزال على قيد الحياة وبمجرَّد حديثنا معاً بأريحيةٍ وصدقٍ سيذوب ذاك الجليد وتعود شرارة الحب لتشتعل من جديدٍ. كنت أوهم نفسي بتلك الأعذار السخيفة لأخفي الحقيقة وأتظاهر بعدم فهمي للسبب الرئيس لعدم مجيئه، لكن لم تمرّ أربع وعشرون ساعةً بعدها إلا وتكشَّفت الحقيقة عنوةً أمام عينيّ. كان برنامج المعرض قد أوشك على الانتهاء ولم يبقَ منه سوى الجولات السياحية والترفيهية في المعالم الرئيسة لباريس، فانطلقت إلى الوجهة الأولى، إلى برج إيفل، انطلقت أحمل أحلامي وأمنِّي نفسي بأن أراه وأحدِّثه وتعود المياه إلى مجاريها. ليس من السهل البحث عن شخصٍ ما في منطقة برج إيفل، فهنالك مستويات عديدة للحديقة المجاورة، ناهيك عن الحشود والباعة المتجوِّلين المنتشرين في المكان، لذا عندما لم أعثر على أيٍّ من زملاء المعرض، قلت في نفسي لعلَّهم قد صعدوا البرج أو أنَّهم قد انطلقوا فعلاً إلى الوجهة التالية، وبينما كنت غارقةً في تلك الافتراضات لمحت عائلةً في الحديقة، كان الأب مستلقياً

على المرج الأخضر رافعاً طفله بين يديه بينما تحاول زوجته التقاط صورةٍ لهما. قلت في نفسي: ما أجمل هذه العائلة! تُرى هل أحظى يوماً بعائلةٍ سعيدةٍ مثلها؟!

لكن ما إن نهض ربُّ تلك العائلة حتى تغيَّر كلُّ شيءٍ!

في بعض الأحيان نحتاج إلى ثانيةٍ واحدةٍ كي نرى الحقيقة ونصدِّقها ونؤمن بها ونعي كم كنَّا على خطأ. كانت تلك اللحظة لحظةً حاسمةً ومفصليَّةً في حياتي، أرتني التفاهة التي كنت أغرق بها، والذل الذي لطخت نفسي به، ربَّاه ما تلك المخطَّطات المقزِّزة التي كنت سأهمُّ بتنفيذها؟

ظننت في ذلك اليوم أنِّي سأنهار وأبكي أو أصاب حتَّى بالاكتئاب، لكنِّي لم أفعل أيَّاً من ذلك، بل على العكس، ضحكت على نفسي وعلى تفكيري السطحيِّ والساذج. عائلة متكاملة وجميلة، سمعت بخلافٍ فيها فظننت أنَّ هذا الخلاف هو قدري وسبيلي، يا إلهي بماذا كنت أفكر! حتَّى جُمان في مرحلة المراهقة ستسخر من تفكيري الأخرق ذاك! وفعلاً، ومنذ ذلك اليوم لم يعد الأمر يؤلمني، كنت سعيدةً لأنَّ هذا الموقف هو من رفع الصفحة ليقلبها للأبد، انقلبت وتركت خلفها ذكرى جميلةً وعطرةً، ولولا ستر الله لي لانقلبت عليّ وعلى كرامتي وعلى مروءتي. أحمد الله الذي أنقذني بفضله وجنَّبني الحديث إلى آدم في اللحظات الأخيرة

وحفظ لي ماء وجهي. ومنذ ذلك اليوم، أغلقت الباب، وأحكمت إغلاقه، إلى الأبد.

قطع العمّ جلال سلسلة أفكاري قائلاً:

- ها قد وصلنا يا آنسة!

جمعت أغراضي وحاجياتي المتناثرة على مقعد السيارة، ونزلت وأنا ألوّح للعمّ جلال، قائلةً:

- شكراً جزيلاً، أتعبتك معي اليوم، أراكَ غداً صباحاً.
- على الرحب والسعة، مع السلامة!

وأخيراً عدت إلى المنزل! ورغم أنِّي عدت باكراً، إلا أنَّني كنت أشعر بالتعب والإرهاق، تناولت طعامي، ومن ثمَّ صليت العصر. ارتحت قليلاً واتصلت بوالديّ أطمئنّ عليهما، وبعدها بدأت بمهمَّات المنزل، والتي لم أفرغ منها إلا عند التاسعة مساءً. حينها جلست أنتظر أذان العشاء كي أصلي وأنام، فأمسكت هاتفي وفتحت تطبيق الواتساب، لأجد أكثر من مئة رسالة، رددت على معظمها، بالذات تلك الضرورية والمستعجلة منها، ومن ثمَّ اختتمت يومي برسائل جود التي أرسلتها اليوم:

- جُمانتي، مساء الخير! كيف حالك؟ كيف كان يومك؟ هل تحسَّن السعال؟ أم أنَّك ما تزالين تعانين منه؟ أنا بخير، ستزورني اليوم حماتي وصديقتها، لديّ قائمة طويلة من المهمَّات، آمل أن يكون عمر متعاوناً بعض الشيء، فيعود باكراً ولا يتأخَّر في الدوام. بالمناسبة استمعي لهذا المقطع إنَّه قصير من دقيقتين فقط.

ابتسمتُ وكتبت لها:

- أهلاً جود، أنا بخير الحمد لله، توقَّف السعال وأخيراً، كم كان مزعجاً! إذن فيومك حافلٌ يا عزيزتي، التقطي صوراً للأطفال وأرسليها إلي، لا تنسي!

ضغطتُ على الرابط الذي أرسلته، وفتحت مقطع الفيديو، فإذا به لياسر الحزيمي بعنوان "أنت لستَ رقم واحد في كلِّ مكان"، يتحدَّث فيه عن العلاقات الاجتماعيَّة، أنهيت المقطع وعدت إلى المحادثة، وكتبت لجود:

- سمعته، والآن أخبريني يا جود: أيّ فكرة تلك التي تودِّين مناقشتها بالتحديد؟ فرغم قصر المقطع لكنَّه مليءٌ بالأفكار وزاخرٌ كالعادة.

قرأتْ جود الرسالة مباشرةً، وراحت تكتب:

- تذكَّرتكِ بكلامه يا جُمان.

سألتها باستغرابٍ:

- أنا؟
- نعم أنتِ!
- لماذا؟
- تذكَّرت عندما أتحدَّث إليكِ متى وكيفما شئت.

توقَّفتْ جود قليلاً عن الكتابة ثمَّ أردفتْ:

- عندما أناقشك لساعاتٍ طويلة حول شؤونٍ مختلفة سواء أكانت مهمَّة أم غير مهمَّة، فتصغي إليّ بكلِّ مشاعرك واهتمامك.
- لكن أليس هذا هو الوضع الطبيعيّ؟
- لا يا جُمان، لا!
- لم أفهمك!
- حين سمعت كلماته، رحت أفكِّر، كم أنتِ دوماً بقربي، تقلقين لقلقي، وتحزنين لحزني، وتفرحين لفرحي بلهفةٍ وصدقٍ وعفويَّةٍ، رغم ضيق وقتك وكثرة مشاغلك، بل أكثر من ذلك، تذكَّرت كيف أقسو عليكِ بكلامي في بعض الأحيان، وأعاتبك بأخطائك، فتسمعينني بهدوءٍ وتأنٍّ وانتباه، دون أن تفرضي عليّ حدوداً، أو أن تلزمينني بمعاملتك بما يتناسب مع شهاداتك

ومركزك ومكانتك الاجتماعية في إدارة قسم مهمٍّ في أضخم الشركات العالمية.

أدمعت عيناي ثمَّ أجبتها:

- كيف لي أن أجاري كاتبة؟ ماذا عليَّ أن أجيبك الآن جود؟ كنتِ وما تزالين السبب والعون في إظهار النسخة الأفضل من تلك الفتاة التي تمتدحينها، لذا فأنتِ أحقُّ بالفضل منها.

انتظرتُ ردَّها لدقائق، لكن لم يصلني منها أي شيء، فكتبتُ لها:

- ثمَّ ألستِ مشغولة؟ عودي إلى ضيوفك.

لم تكتب جود شيئاً، بل اكتفتْ بإرسال وجهٍ تعبيريٍّ متأثرٍ بشدَّةٍ، وشجرةٍ ذات ظلٍّ وارفٍ.

تمَّت بحمد الله، وتتبع لآدم..

لتقييم الرواية وإضافة تعليق أو مراجعة، زوروا صفحة رواية هناك عند القمّة على موقعنا.

رواية هناك.. عند القمّة

يُقال بأن "الحبُّ لا يعرف الحواجز"، وأنَّه يتخطى العادات والأعراف وجميع الأقاويل، وأنَّه كالمعجزة في زمنٍ يخلو من المعجزات، وهذا ما اعتقده آدم وجمان، الطالبان في كلية الهندسة الطبيَّة، جمعهما القدر وولد الحبّ بينهما، وبقي لهما أن يصارعا للحفاظ عليه رغم الظروف والتحديات والطموحات المختلفة لكلّ منهما. فهل ينجحا في ذلك؟ وهل بقاء الحب في قلبيهما كفيلٌ بجمعهما معًا؟ أم أنّ للقدر حكم آخر؟

هذه الرواية هي جزء من سلسلة فيء الغمام، وهي مجموعة روايات اجتماعيَّة تقدِّم سبع قصص متوازية ومتداخلة فيما بينها، ورغم ذلك فإنّ كلّ رواية قائمة بحدِّ ذاتها. تتناول الروايات مجموعةً من شباب وشابَّات لِكُلٍّ منهم قِصَّته وأحلامه، ومحاسنه وعيوبه، ونقاط قوته ومواطن ضعفه، ومشكلاته التي سيواجهها وسيسعى لحلِّها.

الروايات متاحة بشكل مجانيّ، ويمكن تحميلها عبر موقعنا أو صفحاتنا على مواقع التواصل الإجتماعي.

سحر وهبة

www.faibooks.com
@faibooks
@faibooks7
@faibooks7
info@faibooks.com

جميع الحقوق محفوظة لسحر خواتمي وهبة اعرابي – ٢٠٢٤